محمد فريد ابو حديد



الوعاء المرمرى

دار المعارف بمصر

الوعاء المرمري

محمد فريد أبو حديد

الوعاء المرمري

قصة جهاد بطل وأمه – من
حياة سيف بن ذى يزن بطل اليمن



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أكتب هذه القصة تذكاراً لقطعة عزيزة من حياتى ، وأهديها إلى هزة الشباب الكبرى فى عام ١٩١٩

كانت ليلة من ليالى فبراير سنة ١٩١٩ قبل أن تنفجر الثورة الكبرى التى كانت كامنة فى النفوس تنتظر الشرارة التى تشعل لهيبها . وكان القمر التام يغمر المنزه المنعزل الذى جلسنا فيه فى حدائق القبة، وكانت إذ ذاك فى عالمها الشعرى الوديع قبل أن ينزل بها العمران إلى زحمة الحياة العابسة . وهبت النسمات الدفيئة علينا فى ظلال الأشجار المبعثرة فى المنزه تبشرنا بقرب مقدم ليالى الربيع وكان الناس يجلسون حولنا أزواجاً أزواجاً يتلفتون فى حذر من العيون الفاحصة وهم يتناجون فى همسات خافتة تحت أنوار مصابيح تهامس كذلك بأشعتها الضئيلة . كان ذلك قبل أن يطلع على فتيان مصر وفتياتها برق المدنية الحديثة وقبل أن تزول عنهم الغلالة الرقيقة التى كانوا يتسترون بها إذا أرادوا أن يختلسوا ساعة لقاء .

ومرت بنا الساعات سريعة ونحن فى حديثنا لا نلتفت إلى شىء مما حولنا . وكان صوتنا يعلو أحياناً فى حماستنا فنتلفت خشية أن نعكر الصفاء على الأزواج القريبة من مجلسنا ، فما لهؤلاء السعداء الذين كانوا يتبادلون أمانى الحياة المزدهرة ويتعاطون خفقات القلوب الحالمة التى هزها الربيع المقبل ــ ما لهؤلاء وما نحن فيه من أحاديث ملتهبة حانقة تنبعث من الثورة الثائرة فى أعماق قلوبنا . كنا جمعاً من الشبان لا يعدو أكبرنا سن الخامسة والعشرين ولكنا كنا قد قفزنا عبر الشباب فلم نكد نلم بشىء من عبثاته السعيدة . ولم ندرك عند ذلك مبلغ إسرافنا فى ساعاته وما أسرع طيرانها ! كنا لا نحسن من شبابنا إلا تلك الدفعات العنيفة التى لا تحمل شيئاً من روائح الشباب العطرة . وكانت الحرب العالمية الأولى قد هدأت فى ميادينها فجأة كما تهدأ العاصفة العاتية فجأة ، ولكن الحطام الذى تخلف عنها كان ما يزال ماثلا فى كل الأركان يثير رعبها ومخاوفها وقلقها ، كأنها ما تزال تتوثب لغضبة أخرى . فلم يكن فى نفوسنا شىء غير سؤال واحد نردده فى أحاديثنا : « ماذا يكون من أمرنا فى مصر بعد أن هدأت العاصفة ؟ » كنا لا ندرى ما يكون حالنا غداً وهذه الركام المخيفة تغطى وجه الأرض من حطام الحرب . أقد انتهت الحرب الكبرى التى ثارت من أجل الحرية كما قيل كى نصبح نحن فنجد أنه قد حيل بيننا وبين الحرية التى ما زلنا ننشدها ؟ كانت الأحداث والأحوال كلها تنم عن نية مستورة فى شد القيود والأغلال فى أيدينا وأعناقنا . فهل كانت الحياة تستحق أن نحياها إذا

كان المقدور لنا أن نصبح للأجنبى عبيداً ؟ وبدت لنا الحياة المقبلة طويلة هزيلة شاحبة شوهاء ، حتى إن الموت نفسه كان فى أعيننا أهون من تأملها . وكان ولسن رئيس الولايات المتحدة قد أعلن شروطه الأربعة عشر. فتنفسنا ارتياحاً وحسبناه نبيًّا ، وحسبنا أن تلك الشروط تصبح الأساس المتين لعالم جديد نستطيع أن نحيا فيه مع أمانينا . وكنا نحفظ ألفاظها حرفاً حرفاً ونردد عباراتها بقلوب واجفة مترددة بين الأمل والخوف . وسألنا أنفسنا مرة بعد مرة: أحقًّا يقوم عالم جديد على مثل هذه المعانى العليا ؟ كان كل حرف منها يفتح أمامنا باباً من الأمل كأنه قد أنزل على الرئيس وحياً من السماء يقصدنا . ولكن الواقع الذى شهدناه بعد ذلك ولمحنا اتجاهه كان فى كل يوم يكذب آمالنا ويزيد مخاوفنا وضوحاً . فما السبيل إلى الخلاص من المخاطر البشعة التى تهدد حياتنا ونحن من أمة تحس وجودها ؟ كنا نحس وجودنا فى الحاضر كما نحس وجودنا القديم . ولكننا كنا لا نرى المخاوف تزداد فى كل يوم إلا تجسما .

فتساءلنا : ماذا نستطيع أن نصنع إذا أردنا الجهاد وهذه الجيوش المنتصرة تملأ رحاب القاهرة والإسكندرية وسائر العواصم ، تباهى بقوتها وتزهى بنصرها . كانت تروح وتغدو فى كل مكان بسلاحها الضخم وكتائبها الكثيفة تعلن للملأ أنها هناك . فماذا نلقى منها إذا اصطدمنا يوماً بها ؟ أهو الموت ؟ إذن فلتكن هبة هوجاء لا نبالى فيها ما يكون إذ لم يبق أمامنا إلا الاختيار بين العبودية وبين الموت . وتأملنا ذلك

الاصطدام الرهيب الذى كان لابد لنا منه ، وثبت فى روعنا أن الموت قد أصبح أمنية نحلم بها ونتطلع إليها ونبتسم إذا بلغناها . وهل أحب من الموت إذا كانت الحياة لا تدخر لنا إلا أن نعيش فيها عبيداً نطعم ونكسى ونكد تحت أقدام سادتنا ؟ إذن فهو الحنق وهو الغضب وهو الثورة التى لا تفكر فى عاقبة ، وإن بطن الأرض خير من ظهرها إذا كان ظل الحرية لا يرف عليها .

هذا ما كان يضطرب فى نفوسنا وهذا ما جعلنا فى سن الخامسة والعشرين نقفز عبر الشباب ولا نتنسم شيئاً من أنسامه .

وكانت ليلة الربيع الأول الساحرة وشعاع القمر الذى ينفذ من خلال الغصون الممتدة فى أرجاء المنزه والسكون الشامل ومنظر الأزواج السعيدة المتهامسة ، كان كل ذلك يزيد نفوسنا ثورة وعنفاً فهل كانت الحياة الذليلة التى نستقبلها جديرة بأن تبتسم لها الطبيعة مثل هذه الابتسامة أو تخفق فيها القلوب مثل هذه الخفقات العاطفة ؟ بل هى حياة لا يليق بها إلا أن تتجهم لها السماء وتمطر الأرض حمماً وأن تتحجر لها القلوب فلا تمتلىء إلا بالحقد والبغض والقسوة . وتنبهنا بعد حين إلى ما حولنا يدفعنا شىء يشبه الغيرة أن نرى السعداء على خطوات منا لا يبالون شيئاً مما يضطرم فى قلوبنا . ولكنا لم نجد حولنا إلا مقاعد خالية وقد أطفأ الخدم أكثر المصابيح التى تتدلى من الأغصان ، وجاء صاحب المنزه يحوم حولنا كأنه يذكرنا بأن هذه الجلسة قد امتدت بنا إلى أكثر من حقها . وكان وجهه ينم عن شعور غامض

ولكنه واضح ناطق ، شعور الذى يرى صقراً يحوم فوق سرب من الحمائم الوديعة .

ونظر بعضنا إلى بعض فى صمت ، ثم هم واحد منا قائماً فقمنا وراءه على تفاهم صامت ، ونحن نحس شيئاً من الخيبة . إن المجلس لم يمتد بنا حتى نبلغ ما نشاء من أحاديثنا ولم يبلغ بعد ما يشفى غليل صدورنا . وسرنا فى الطريق الساكنة المتعرجة التى كانت عند ذلك تصل بين منزه الحدائق وبين العمران فى « غمرة » . ومضينا فى حديثنا ونحن نسير على مهل فى ظلال أشجار اللبخ ، وأغصانها تتعانق من جانبى الطريق فوقنا كأنها نفق يخترق الفضاء المضىء .

وبلغنا ميدان الحسينية قبل منتصف الليل ، وكان النسيم ما يزال يهب وديعاً والبدر الباهر يتوسط السماء الصافية والأنوار الساطعة تنبعث من الحوانيت والمنتديات الشعبية التى تحف بالميدان . ولاحت لنا حلقة حافلة فى منتدى كان قائماً عند مدخل الطريق الضيق المؤدى إلى المدينة . وكان فى وسط الحلقة شاعر ينشد على ربابته ويقص على الجمع الخاشع قصته . وكان فى رنين إنشاده من بعيد ما يوائم نبضات قلوبنا المضطربة . فقال واحد منا : « ما ترون فى مشاركة هؤلاء ؟ » فما هو إلا أن قال ذلك حتى اتجهنا إلى المنتدى فى موافقة صامتة .

وكان الشاعر شيخاً لا أذكر أن عينى وقعت على مثل صورته . كان أشبه بخيال أو بصورة فى إحدى اللوحات الفنية التى يخلد بها مبدعوها . كان نحيفاً معروق الوجه له لحية خفيفة وخطها الشيب ،

ولكن عينيه كانتا تبصان بنور لامع يخالطه سيال وديع يشعر بشجن دفين . وكان يلبس عمامة بيضاء ذات عذبة تضطرب على كتفه إذا تحمس فى إنشاده . ومضى فى إنشاده بصوت متهدج تنم نبراته عن حركة نفسه وحرارة وجدانه . وكانت ربابته تصاحب إنشاده بلحن عميق يملأ جو المنتدى بأصدائه وهو يعلو حيناً ويخفت حيناً ويرق فى مواضع ويعنف فى أخرى مسرعاً أو مبطئاً مبتهجاً أو حزيناً والجمع من حوله ينصت فى لهفة . كان ينشد كأنه يحدث نفسه بحلم يراه خلال سنة من النوم ، أو يناجى أطيافاً تظهر له من عالم مستور يهتف له بأسرار الإنسانية التى ما زالت منذ القدم تملأ قلوب البشر أملا وتجعل لحياتهم مقصداً . ولمحت عليه عند أول مقدمنا شيئاً من التردد يكاد يكون ضيقاً وكراهة . فمن هؤلاء الأغراب الذين يأتون إلى مجلسه فى مثل تلك الساعة من الليلة يقتحمون الجمع الخاشع الذى حوله فى شىء من الزهو كأنهم يتنازلون بالذهاب إلى هناك للاستماع إليه ؟ وهل تقع قصته فى نفوسهم موقعها فى نفوس الجمع الساذج الذى اعتاد الاستماع إليه ؟ أجاءوا للمتعة أم جاءوا للسخرية ؟ ولكن الجمع تحرك فى دهشة وفسح لنا مجالسه عندما رآنا نقبل عليه . ولاحت على الوجوه بسمات عاطفة كأنها اغتبطت أن ترانا نقبل على المتعة التى تتمتع بها . كانت تلك الوجوه تشعرنا نحن كذلك بشىء جديد يشبه أن يكون وحياً . أليس هؤلاء قومنا الذين نستند إليهم إذا عصفت العاصفة يوماً ؟ فتبسمنا فى بساطة وجهرنا بالتحية ، وكان الرد عالياً بنبرات مؤنسة . أليس هؤلاء هم إخواننا

الذين يطلع عليهم الغد كما يطلع علينا ؟ أهى العبودية معاً أم هى الحرية معاً ؟ ولم يخل قلبى من الألم عندما نظرت إلى وجوههم الباسمة . ألسنا مقصرين نحن الذين يدعون أنفسهم بالمثقفين فى أن نتقرب إلى هؤلاء وأن نتعرف إلى هؤلاء ؟ كانوا ينظرون إلينا نظرة المضيف إلى الضيف ، لأننا لم نكن منهم وإن أدخل مقدمنا الأنس إلى قلوبهم . ولعل ذهابنا إلى منتداهم قد زاد فيهم الرضى عن أنفسهم وعن المتعة التى يختصون بها وحدهم . فنحن « الأفندية » نذهب للجلوس بين الجمع الحاشد الذى يزحم الطريق ونسعى لمشاركتهم فى شرب القهوة والخشاف وتدخين النارجيل المكركرة .

وبعد أن هدأت حركة اللقاء الأولى مضى الشاعر فى إنشاده مرة أخرى وقد لانت نظرته وذهب أكثر تردده وإن كان بين حين وحين يرفع بصره إلينا فى نظرة سريعة ليلمح ما كان يبدو على وجوهنا من الرضى أو السخرية .

منذ تلك الليلة صرنا من قصاد ذلك المنتدى البلدى ، نذهب إليه معاً إذا اجتمعنا ، أو وحداناً إذا لم ندبر اجتماعاً ، حتى أصبح لنا بعد قليل ملتقى مختاراً . ولم نلبث أن صرنا أصدقاء الجميع وعرفنا الأفراد شخصاً شخصاً . وعرفنا من هناك بأسمائنا وكانوا يحتفظون لنا بمجالسنا ، فإن غبنا ليلة أو ليالى أو تأخر حضورنا سألونا أين كنا . وكان لهذه الصداقة الجديدة أثرها العظيم عندما شبت الثورة الكبرى فى مارس من ذلك العام . كنا نجتمع هناك كل ليلة فى المنتدى ندبر مع أصحابنا

خطط الجهاد فى سبيل الحرية . وكان لهذه الصداقة أثرها فى تهدئة الخواطر عندما كادت الفتنة تقع بين أهل الحى وبين النزلاء من طوائف اليهود والأرمن . ألا ما أجلها من ذكرى ! إن هذا الشعب جدير بأن يكون أكرم مما هو وأقوى مما هو وأسعد مما هو .

وهذه القصة التى أكتبها اليوم بعد مضى أكثر من ثلاثين عاماً على تلك الأيام البعيدة ما هى سوى تحية أؤديها لذكرى اللحظات المجيدة التى كنا نجاهد فيها بأنفسنا ونسخو فيها بأرواحنا لا نسأل أحداً عليها أجراً ولا شكراً ، وهى بعد ذلك تحية لهؤلاء الأصدقاء الذين كنا نجلس إليهم فى ليالى النشوة الثائرة ثم فرقت الأيام بيننا . ثم هى تحية للشاعر الذى ما زالت صورته ماثلة فى الذكرى وإن كان اليوم يثوى فى مضجعه الأبدى ، لا يذكر أحد أن أناشيده القوية الوثابة كانت تحرك قلوب طلاب الحرية نحو عزمات الغد الطالع من ضمير الغيب . وهذه القصة هى بعض الأصداء الباقية فى القلب من تلك الأناشيد البارعة التى كانت القلوب تتجاوب لها ، عندما كانت تضطرب وتأمل وتخلص وتصادق فى غير تحفظ ، عندما كان الأفق البعيد يبدو جميلا صريحاً تفيض عليه أنوار ساحرة ، عندما كانت الأيدى تسخو بقليلها والقلب يجود بكثيره ؛ عندما كانت الصور والمعانى أثمن وأكثر قوة من الحقائق والمادة .

وبدأ الشاعر ليلة من الليالى ينشد قصة سيف بن ذي يزن عندما طلبنا ذلك إليه ، لنملأ نفوسنا بصورة من ذكرى المجاهد العربى القديم .

فأودع الشيخ النحيل إنشاده كل حرارة قلبه المشتعل وكان يترجم فى أنغامه وألفاظه ما فى قلوبنا من نبضات حية . كان يعرض الصور علينا ويسوق الحوادث فى بيانه كأنها قطع من الحياة التى تضطرب فينا . وكان يتحدث على ألسنة الأشخاص كأنها نفوس جاءت معنا لتشاركنا . وكان يلقى علينا أسجاعه فى أمواج من النغم تتلاحق وتتداخل مطربة مشجية ، فيها تقاذف الحياة بالأحياء وفيها طعوم الآلام المرة والآمال العذبة ، وفيها نشوة الحب وجراح المعارك . وقال فى أول إنشاده :

« هل الحياة إلا صور متجددة تتجسد فى جيل بعد جيل فى شخوص شتى وإن كانت حقيقتها واحدة ؟ »

وكان فى إنشاده يشخص ببصره فوق رؤوس الجمع كأنه لا يري أمامه شيئاً سوى الصور التى يراها وحده سابحة فى عالم غير منظور . وكنا نستمع إليه فى صمت ونكاد نعلق أنفاسنا فى صدورنا . ولو استطعت أن أعيد كلماته ولفتاته وأن أثبت قصته كما قالها حرفاً حرفاً وإشارة إشارة لما استطعت أن أبين أصداء إيقاعه ولا حركات الأفئدة التى كانت تصغى إليه . وأنى للألفاظ أن تحمل فوق طاقتها أو أن تبعث من المشاعر ما لا تستطيعه بطبيعتها ؟ وهل الألفاظ سوى أداة صنعتها الإنسانية من مادتها وأبدعتها من فطرتها ؟ ما كان لألفاظنا المحدودة أن تسمو إلى غير أفقها ولا أن تصور ما يدق عن بيانها . ليست هذه الألفاظ سوي أستار نسجها الإنسان بيديه لكى يسدلها على مكنون ضميره لترمز إلى ما وراءها إذا عجز اللسان عن الإفضاء بمعناه ، وما كان لها أن تصور رؤى

شاعر يسبح وحده فى عالمه إلا كما تدل الرموز الغامضة على الأقداس الخفية . فحسبي إذن أن أردد هنا ما وعته ذاكرتى من تلك الأناشيد التى كانت دماؤنا تتدفق مع أصدائها ، وأن أقنع بما يتهيأ لى من لفظى وبيانى مع الاعتراف بالقصور ، وشتان بين الصادح والحاكى وبين الأصيل والدخيل .

وكان أول نشيده يشبه أن يكون اعتذاراً وإن كان يخفى فى ثناياه أقوى معانى الاعتداد بكبرياء نفس طليقة . قال :

« أيها السادة الكرام إليكم قصة صاغها الزمان من أحداثه وأنشدتها الليالى فى نغمها الصامت . قد طالما صاحب الزمان الأحياء كما يصاحبنا اليوم ، وطالما عابث الناس كما يعابثنا فى الإصباح والأماسى .

وهو يدور بالبشر فى حركته الأبدية لا يفرق بين قديم وحديث ، ولا يميز بين قوم وقوم . له حكمته الصارمة لا يحابى ولا يعادى فيها ، ولا يعرف الأشخاص ولا الأمم ولا العقائد ولا ألوان الشعب . وهو لا يعبأ بما كانت الحياة تكسو به البشر من مظاهر تعارف الناس عليها فيما بينهم ، من ملوك وسوقة وعظماء وصغار وعلية أو سفلة ، بل يناديهم جميعاً بأسمائهم مجردة ويعرفهم بحقائقهم مكشوفة . يصف الجميع بأوصافهم الصادقة ولكنه لا يتهم ولا يمدح . هو هادئ هدوء الأبدية عادل عدل الأزلية صارم نافذ ولكنه لا يعرف رحمة ولا قسوة . وهو يضم الذين عاشرهم بالأمس إلى أولئك الذين مضى بهم من قرون . يودعهم جميعاً فى رحبة واحدة لأنهم أخذوا فرصتهم فى الحياة ومضوا عنها ولا سبيل لأحد منهم

إلى معاودة الكرة فيما كان .

هو يعاشر هذه البشرية ويشهد حركتها ويعرف دخائلها وكوامن أسرارها ، ويرى كل جيل وهو يستقبل الحياة ، ثم يراه وهو يودعها ، ولا يقيل أن يستعيد المنظر مرة بعد أخرى . كل فرد يستقبل حياته جديدة ويحس حرارتها ويذوق منها سعادتها أو شقاوتها . يحمله الشباب حيناً فى فلكه المذهب وينساق به حيناً مع تياره الدافق ، ويحسب أنه يجرب ما لم يجرب أحد من قبله ، ويدرك ما لم يدركه أحد غيره . يذوق الحب فيحسب أن أحلامه الساحرة لم تخطر قط على قلب ، وأن الأودية الغامضة ذات الألوان الزرقاء الرفيقة لم تكشف أستارها لأحد قبل أن تنكشف تحت عينيه المسحورتين . وهو يقارف حالات الحياة من سلام واضطراب وسعد وشقاء وخوف وأمن فيظن أنه أول من ذاق حلو الحياة ومرها . ولكن الزمان يرمقه باسماً وينادي بصوت خفى قائلا : هكذا كانوا دائماً .

وما نحن أيها السادة فى حياتنا سوى بعض مشاهد هذا الزمان القديم الجديد ، نحس ما أحس من كانوا قبلنا ، ونجرب على الأرض فى مغامرتنا مثل ما جربوا . فلسنا سوى قصص معادة فيما نشهد من مباهج الحياة أو مآسيها . فإذا سمعتم أيها السادة قصتى فطربتم أو جزعتم ، ووثبت هممكم أو خشعت ، فإنما هى هزات قلوب بشرية ترى صورتها فى مرآة . فاستمعوا أيها السادة إلى أنشودتى فهى قصة كل منكم ، لأنها لمحة من المغامرة الإنسانية الكبرى . مغامرتها القديمة الجديدة فى

حياتها على الأرض منذ خلق الله الإنسان . والبشر يتلاقون ويتفرقون ، وقد ينقطع ما بينهم أبد الدهر فلا يذكر أحدهم الآخر إلا أن تسنح ذكرى عابرة عقيم فى لحظة من اللحظات ، ثم تمضى كما يومض البرق ويخلف وراءه الظلام ، وقد تتعقد الأمور وتتلاقى خطوط مير البشر فتصبح للناس قصص يتناقلها بعضهم من بعض ويستوحون منها الحكمة .

وهذه القصص التى تخلفها الأجيال وراءها هى أثمن ما فيها — لأنها تراث الإنسانية الأكبر ، فيها صور خالدة من حالات النفس التى أبدع الله نشأتها . وهذه الصور قد تختلف فى ملامحها وفى ألوانها ، وقد تتعدد بيئاتها ، وتتباين أزياؤها وطرائق تفكيرها ، قد تكون فى الجبل أو السهل وفى الغابة أو الصحراء أو فى المدينة المزدحمة ، وقد تتجلى فى معابد الأوثان أو مساجد الوحدانية ، ولكنها فى جوهرها واحدة خالدة .

استمعوا أيها السادة إلى قصتى وإلى أنغام ربابتى ، لا بل إننى وأنا أنشد لكم أستمع إليها معكم . ولقد سرت فى أنحاء المدينة كل حياتى وعرفت أركانها وغشيت نواديها وسمعت منشديها فأنا أعلم أين تقع قصتى وأيان يبلغ إنشادى . أعرف أن الآخرين قد يكونون أعلى صوتاً وقد تكون حلقاتهم أكثر من حلقتى عدداً ، ولكنى لست أبالى ما يقولون عن أنفسهم ولا ما يقول الناس عنهم . فإنى أعرف أنهم محجوبون عن عالمى الذى أستمد منه صورى وأستوحيه ألحانى . ولست أكذبكم فى قولى . إننى أكثركم طرباً وأشدكم نشوة فى هذه الساعات التى أنشد لكم فيها .

ففيها أحس وجودى وأتمتع بحريتى وأبلغ حقيقة إنسانيتى . وكلما أخذتنى النشوة وجدت أننى أسمو إلى آفاق علُيا يحيط بى فيها السلام وترف من حولى السعادة . وعند ذلك يتضاءل فى قلبى كل ما يحسبه الناس فى الحياة عظيما ، ويضعف عندى كل ما كنت أظنه قويًّا من إغرائها ومن فتنتها ، فلا المجد يستهوينى ولا الغنى يغرينى ولا شىء من مادة الأرض يثقل وجودي . فأنا هناك فى عالم ليس فيه إلا صور شفافة تسبح سبح الأرواح فى دعة واطمئنان ورضى وسعادة ، وقد تجردت من أستارها وجهرت بحقيقتها . فأنا أعرفها وهى تعرفنى وآنس إليها وتأنس إلى، لا تخفى عنى خافية من ضمائرها ولا أسر عنها سرًّا من ضميرى . نتعبد جميعاً فى محرابنا العلوى بعيدين عن الغرور والرياء . فما دمت هناك مع تلك الأرواح أجدنى سامياً فوق صغائر الأمانى وتوافه الشجون التى تلعب بألباب البشر وتسخر من عقولهم ، كما يسخر السراب من عقل السارب الظمآن إذ يهيم على وجهه فى الصحراء .

هنالك أستطيع أن ألمح معنى الجمال الصادق والحب الصافى وأن أخلو إلى الحقيقة خاشعاً عابداً مخلصاً ، لا ترهبنى عنها خشية ولا تطمعنى عنها مثوبة ، لأنها هى الأفق الأجدر بأن يكون غاية الغايات قد أجد الجمال فى الزهرة الضئيلة بين رمال الصحراء كما أجده فى الوادى اليانع ذى الطيور الساجعة المتواثبة على الأغصان . وقد أجده فى الراعية الفقيرة فى أسمالها البالية كما أجده فى العذراء الطاهرة التى تمد يدها إلى جريح تواسيه . وإذا كانت جنة عدن هى جزاء

الصالحين على ما قدموا من الصالحات ، فإن أعلى طبقاتها تنتظر الذين كانوا يقدمون الحسنة ولا يطمعون فى الثواب ، فالحسنة فى ذاتها جمال وفى جمالها وحده جزاؤها . الحب جميل والرحمة جميلة والإيثار والصدق والجود كلها جميلة ، تذوق النفوس الصادقة جمالها وتتملى بلذتها ولا تبتغى من ورائها ثواباً .

هناك أيها السادة فى هذا العالم المستور أجد جزائى وثوابى . لا أبالى شيئاً مما يتطاحن عليه الأدعياء من الناس . فأنا حر سعيد ما دمت أنشد وأستمع إلى نغم ربابتى ، فإذا أمسكت صحوت من أحلامى ، وهربت منى صورى وعدت إلى عالم الأحياء أعيش منهم قريباً وإن كنت بينهم غريباً . سأنشد لكم وأنشد ليلة بعد ليلة ولكم أن ترضوا إذا أرضاكم ما يصدر عنى ، ولكم أن تنكروا كما شئتم إن بدا لكم من ذلك مالا يروقكم . لكم أن تصفقوا استحساناً أو تظهروا استهجانكم بغير مداراة ، فهذا حق لكم . أما أنا فما أقصد إلا أن أظهر ما عندى مما يهتز له فؤادى وما أودعته ثمرة حياتى وأسلت فيه عصارة روحى . فإذا وقع عندكم موقعه عندى زادت بذلك سعادتى ، وإلا فلست أسألكم شيئاً إلا أن تشعروا فى قلوبكم الرحمة . فالرحمة أعظم ما يعطى إنسان وأثمن ما ينال إنسان » .

١

قال الراوى :

أطلت خيلاء من نافذة مخدعها فى أول الصباح ، وكانت الشمس ترسل أشعتها تتدسس بها بين جذوع الأشجار وخلال أوراق الغصون وعلى رؤوس الربى الخضر المحيطة بقصر غمدان . وكانت رؤوس جبلى نقم وعيبان ما تزال مستترة وراء غلالة رقيقة من الضباب ، ترمق الشمس من وراء نقابها الشفاف كأنها حسناء منعمة تطل من ثنايا أستار قصرها الشامخ لتجتلى طلعة ملك فى موكبه . وكان فى الجو عطر لطيف لا تشبهه عطور الزهر يسرى فى الكون خفيًّا لا يدركه الحس ولكنه يملأ النفس بهجة ويشيع فيها شجواً هادئاً .

وكانت الآفاق تبدو فى النور الخافت وسنى ساكنة . وإن كانت تنبض بمثل نبضات الأمواج الهادئة فى البحيرة الصافية ، وتتردد منها أغنية صامتة لا تقع فى الأسماع ولكنها تبلغ أبعد أغوار القلب . أو هكذا أحست خيلاء وهى تفتح نافذتها المرمرية فى مخدعها وتطل على مروج صنعاء الفسيحة الباسمة . وأخذت تملأ صدرها من النسيم الفاتر الذى يحمل رسالة الخريف الوديع من البساتين المزدهرة الممتدة حول القصر . أهو الخريف ؟ أهو الخريف الذى تذبل فيه أوراق الأشجار وتصفر

وترف متساقطة مع هبات الهواء ؟ أم هو الربيع قد عاد أدراجه متردداً متشبثاً بحقل صناء اليانع لا يريد أن يتخلى عن بساتينه ومروجه ؟ وأجالت خيلاء بصرها فى المنظر الممتد تحت عينيها ، وكانت الأحاديث الصامتة تتردد فى سرها منسابة فى رفق كما ينساب ماء الجدول الصافى فى ظلال الخمائل . ورأت هنالك تلك الشجرة الضخمة التى تبسط أغصانها على ممشى البستان ، وذلك الطريق المتلوي الذى يخرج من بين الشجيرات كأنه يتفلت منها مداعباً . ما كان أبهج الألوان فى ذلك الصباح كأنها هى باقية على ما كانت عليه فى أصائل الربيع عند ما كانت الأزهار تتفتح ضاحكة متبرجة لا تدارى مرحها ولا تتواضع فى المباهاة بحسنها . وهنالك الركن الظليل الذى تعرش فوقه أعواد الياسمين وتلك الربوة التى تتسلق عليها الأعواد المدادة وتلف خيوطها الدقيقة على ما يعترض سبيلها من فروع النبات حتى تتوكأ إلى القمة وتدلى بعناقيد زهرها الأحمر كالعروس إذا جليت ليلة الزفاف . لقد مضى حين طويل منذ تلك الأماسى السعيدة التى كانت خيلاء تمرح فيها هناك مع سيف . ولقد شهدت هذه الأركان الظليلة كل مشاهد السعادة التى مرت بها فى حياتها . هناك كانت تلعب مع سيف فى أيام الصبا وهما يسابقان ظلهما ويتفننان فى صياغة العقود من الأزهار ، ويتسلقان الربوة ليطلعا من فوقها على أعشاش العصافير فى أعالى الشجر ، ويرقبا يوماً بعد يوم هل خرجت أفراخها من بيضها وهل كسى الزغب أجسادها الحمراء المرتعشة ، وهل استطاعت أن تهز أجنحتها وتطير جافلة وراء أبويها إلى أعالى الغصون ،

ثم تقف هناك تنظر إليهما وهى لاهثة كأنها تعابثهما . وسألت خيلاء نفسها أما زال سيف فى صنعاء ولم تره منذ أسبوع ؟ أيكون فى غمدان وهى تترقب كل يوم أن تلمحه فى بعض مماشى البستان أو فى جانب من البهو فلا يلوح لها ولا يسعى إلى لقائها ؟ لشد ما تغير سيف فى تلك الأسابيع الأخيرة . كانت كلما رأته توقعت أن يقبل عليها باسمًا فى خجل يعتذر إليها من انقطاعه عنها ويحدثها عما عاقه عن لقائها من صيد أو نزهة ، ولكنه كان ينظر إليها مضطرباً ثم يستأذن فيمضى سريعاً كأنه يهرب من لقائها . أهو سيف الذى نشأ معها وأنس إليها وكان لا يستطيع أن يذوق طعاماً ولا أن يطيب له سمر إلا معها ؟ أهو سيف الذى جعلها ترى فى الربيع ما لم تره عين وتسمع من أناشيد الحياة ما لم تسمعه أذن ؟ أهو سيف ؟

أكان يحيى فيها تلك السعادة لكى يذيقها من بعد مرارة الوحشة وقلق الخوف والشك ؟ وما الذى اعتراه فجعله يغيب عن القصر أياماً قد تمتد إلى أسابيع ، فإذا ما عاد من غيبته الطويلة لم يسرع إلى تلك المسارح التى كانا يمرحان فيها معاً ولم يسع إليها معتذراً يدارى ذنبه فى ابتساماته الوديعة ؟ وما ذلك الذى ينزوى به فى مخدعه فلا يكاد يبرحه ، حتى إذا لقيها عفواً فى ساعة لم يزد على تحية قصيرة يعقبها صمت ، ثم يمضى عنها كأنه يجمجم فى نفسه حديثاً خفيًّا ؟ كانت خيلاء إذا رأته وتلاقت نظراتهما بعثت إليه فى نظراتها عتاباً لا يخفى عليه . كانت نظراتها تكاد تصيح به حانقة ومع ذلك فقد كان يغضى مسرعاً ثم يغلق نفسه

دونها . وسألت نفسها أيكون فى موكب اليوم ؟ أيذهب إلى الكنيسة فى موكب أبيه الملك أم يتخلف عنه كما تخلف عنه من قبل مراراً ؟ وذكرت يوم ذهبت فى أول موكب إلى الكنيسة العظمى يوم افتتحها الملك أبرهة مع رسول قيصر . كان يوماً لا تنساه كأنه علم فى حياتها .

وكان سيف فى ذلك اليوم يركب مهره الأبيض الذى أهداه إليه أبوه ، ويسير وراء هودجها فتراه كلما نظرت من ثنايا الستور الحريرية وهو ينظر إليها باسما . ثم جلس فى الكنيسة إلى جنبها وكان يرتل معها بألفاظ رومية ، وكلما أخطأ فى لفظ وقف حتى يتبع صوتها ، وكاد يضحكها إذ كان يبدل كلمات الترتيل بأخرى من عنده عربية لا تتسق مع الصلاة . أيذهب سيف فى موكب اليوم ؟

وارتدت خيلاء من النافذة وعلى قلبها سحابة ، فذهبت إلى ركن مخدعها نحو تمثال فضى بارع الصناعة ليسوع الطفل فى مهده ، وأمه العذراء إلى جنبه تمد كفيها نحوه فى عطف وترنو إليه فى حنان وخشوع . وكان ذلك التمثال هدية أهداها إليها الملك الطيب أبرهة إظهاراً لإعجابه بتقواها وحماستها لديانة المسيح . وكانت العذراء حاميتها تلجأ إليها فى سعادتها كما تلجأ إليها فى قلقها واضطرابها ، وكان المسيح سيدها وملاذها تتجه إليه ليزيد قلبها حبًّا وسلاماً ، ونظرت إلى الصورة بقلب متلهف وهى تكاد تسمع منها أصداء المحبة والرحمة التى كانت تنبعث من الأم الطاهرة البتول إذ تناغى وليدها .

وجثت خيلاء فى صمت وضمت كفيها وأمالت رأسها تصلى وقلبها يسبح

شجيًّا يمتزج فيه القلق والأمل . وكانت صلاتها الصامتة حارة تتجه فيها إلى منبع الحب الفياض ليزيد قلبها حبًّا . وأحست بعد قليل أن السلام يغمرها فقامت كأنها ألقت عن صدرها ما فيه من هم وملأته أملا . وذهبت خفيفة إلى خزانة الملابس لتختار الثوب الذى تلبسه لموكب اليوم . فسوف تذهب مرة أخرى إلى الكنيسة العظمى التى جعلها أبرهة آية من آيات الإبداع ليظهر فيها ديانة المسيح على الوثنية البلهاء . وحانت منها نظرة إلى المرآة المعلقة على جدار المخدع ، فتعلقت بالصورة التى بدت لعينيها ، ولمست بأطراف بنانها جانب شعرها الأسود الغزير ، وتبسمت عند ما تذكرت سؤال سيف لها عن ذلك الخال الأسود الذى يتوسط خدها . أحقًّا سميت خيلاء من أجل تلك النقطة السوداء التى كان سيف يحدثها عنها كلما لقيها ؟ كان يقول لها إن ذلك الخال الأسود بقية من جلدها القديم أيام كانت من قوم أبرهة . وكانت هى تفاخره بأنها عربية مثل الملكة ريحانة . وصرفت بصرها عن المرآة فى شىء من التردد وقد أحست بما يشبه الخجل من شعور الغرور الذى خامرها .

واختارت ثوباً حريريًّا أبيض تزينه خيوط من الذهب والفضة وقطع من الجواهر المؤتلقة فى مواضع أزراره . وكان الثوب من صنع القسطنطينية العظمى وهو من هدايا قيصر إلى صديقه أبرهة اعترافاً بفضله فى خدمة المسيح . ولطالما حدثها سيف عن أمنيته فى زيارة عاصمة قيصر ، تلك العاصمة الكبرى التى تبعث مثل هذا الثوب الرائع ، وما يكون أروعها من رحلة لو تحققت ، فذهبت مع سيف يريان معاً من عجائب الأرض

مالا يخطر على قلبها . وحملت الثوب إلى النافذة فرفعته بين يديها ليستقبل من ورائها نور الصباح متلألئاً ، ولكن الشمس لم تشرق بعد . ألا ما أبطأ الشمس فى طلوعها من وراء الأفق ! ألا يكون سيف قد خرج إلى البستان ليملأ صدره من نسيم هذا الصباح ؟ وعادت تسأل نفسها : أيذهب اليوم إلى الكنيسة ويجلس بجانبها ؟ وعادت إليها صورته يوم ذهبا إلى هناك معاً وجلس إلى جانبها وكانت أصوات الترتيل ترن بين الجدران جليلة عميقة كأنها تسبيح الملائكة . أيجلس إلى يسارها كما جلس من قبل ويهمس فى أذنها همسات خافتة فى أثناء الصلاة ؟ كان يحدثها مرحاً عما سمع عن القسطنطينية وعن قصر خليفة المسيح فيها ، وكان متدفق الهمسات ظريف الفكاهة حتى إنه لم يصمت فى أثناء الصلاة ، كان الكهنة يرتلون صلوات لا يفهم منها حرفاً والناس من ورائهم ينشدون جماعة . وكانت هى تحفظ ذلك الترتيل كما تحفظ أغنية عذبة . وهمس سيف عند ما تعثر فى ترتيله الرومى قائلا ألا يفهم الله الصلاة إلا بالرومية ؟ عفا الله عنه فإنها سوف توصيه إذا رأته ألا يعود إلى مثلها . ولكن أيحضر موكب اليوم ؟ أم يتسلل من مخدعه كما تسلل فى أيام أخرى فيغيب أياماً يقضيها حيث لا تدرى ؟

وأتمت زينتها فى احتفال وعناية وتلك الأحاديث تتردد فى ضميرها ، ثم عادت إلى النافذة تقلب بصرها فى الأفق ، وكانت الشمس قد زحفت بطيئة فى طرف القبة اللازوردية . وأخذت تمسح بأشعتها على خصل الأغصان الخضر ، ودبت الحركة فى جوانب القصر فاترة كأنها تتمطى فى أول يقظتها .

ولكن الموكب لن يبدأ حتى يستقبل الملك وفود القبائل والمدائن الذين أتوا إليه من أودية اليمن البعيدة ليؤدوا له تحيتهم قبل أن يخرج من صنعاء إلى الحرب التى عقد النية عليها . سيذهب أبرهة كما قال إلى مكة بعد يوم واحد وسيهدم كعبتها حتى يزيل من الأرض رجس الوثنية ، ويجعل العرب جميعاً يحجون إلى كنيسته البديعة . وودت لو كان أبرهة عربياً كان رجلا رحيما طيب القلب لا يدع فرصة إلا انتهزها ليبدى لها جانباً من رحمته . ولو كان عربياً لما أحست شيئاً يشوب إعجابها به ورضاءها عنه . فما تلك الكعبة التى لا تزيد على ركام من الحجارة تحيط بها تماثيل شوهاء لآلهة زائفة ؟ أين تلك الكعبة من القليس التى بناها أمهر صناع القسطنطينية ومهندسوها لكى يمجد فيها اسم المسيح ؟ ولكن متى يبدأ الموكب والشمس ما تزال تدب بطيئة فى السماء .

ونزلت إلى البستان لتجول فيه جولة حتى تحين ساعة الموكب . وتمنت لو لقيها سيف هناك . كانت خطاها مترددة كأنها كانت تخشى أن يراها أحد فى مثل هذه الساعة من الصباح خارجة من مخدعها ، فيفطن إلى أنها ذاهبة إلى هناك باحثة عن سيف . وذهبت إلى المجلس الساكن تحت ظلال أشجار الجوز ، وكانت المقاعد المرمرية تبارى أشعة الشمس الوردية التى كانت تطل بين الأغصان والجذوع

هناك كانت آخر مرة لقيها سيف وحدثها . وعاد صدى صوته إلى سمعها وهو يصف لها مهره الأبيض الذي أهداه إليه أبوه ، وكيف كان يسبق الوحش

فى غير مشقة . ألم يكن عجيباً أن يكون سيف من ولد أبرهة ؟ كان يشبه ريحانة الملكة العربية فى نظرة عينيه وفى دقة حاجبيه وفى صورة شفتيه . كانت تتأمل هاتين الشفتين المملوءتين بالحياة كأنهما هما اللتان تتحدثان . وكان فى صوته غنة تشبه . . . ماذا تشبه ؟ ولم تجد كذلك وصفاً يصدق على نبرات صوته عند ما كان يتحدث إليها . ولكنه كان على كل حال لا يحمل شيئاً من شبه أبرهة . فأين هو وأين مسروق أخوه الذى ولدته ريحانة ؟ كأن الملكة الحسناء أودعت فى ولدها الأول كل حياتها وكل فنون طبيعتها الصافية . كان مسروق يشبه أباه فى لونه وفى قصر قامته ، وهو مستدير الملامح والأعضاء له نظرة تشبه نظرة البقرة . فأين هو من سيف الذى يطلع مثل غصن السرو فى دقة عوده وطول قامته ؟ وأين هو من سماحة وجهه ومن نظرته التى تذكرها بلمعة النجم فى الليلة الصافية ؟ وأما بكسوم بن أبرهة الأكبر فما أشبهه بأبيه فى وجهه وهامته ، وإن كان فى ضخامة قامته يتطوح كالنخلة الباسقة . وكان شعاع عينيه العابستين أشبه بلمعان السيف الصقيل ، فيهما بريق يبعث البرد إلى فقرات الظهر . وأما صوته فكان مثل رنين النحاس جافاً كأنه كتلة من مادة . لا شك أن أمه الحبشية كانت تستطيع أن تروض الفهود التى تحوم فى الغابات فى طلب فريستها . ثم بسباسة ابنة أبرهة . أتكون ابنة ريحانة حقاً ؟ كانت لا تحمل منها شبهاً إلا أن يكون شعرها الطويل الفاحم . ووقع فى نفس خيلاء ما يشبه أن يكون غيرة . وتنفست نفساً عميقاً فيه شىء من الحسرة ، وخطر لها عند ذلك سؤال كان يخطر

لها بين حين وحين فيضيق به صدرها ويشرد منها النوم حتى تقوم إلى جانب تمثال العذراء . فتجثو عنده تصلى وتدعو حتى تنقشع عنها وساوسها . من هى؟ وما علاقتها بكل هؤلاء الذين تعيش بينهم فى غمدان ؟ بل ماذا أتى بها إلى ذلك القصر وهى لا تعرف صلتها بأحد ممن فيه ؟ وماذا عسى تقول بسباسة عنها إذا خلت إلى نفسها ؟ أما تقول فى سرها « من هذه الفتاة العربية التى تعيش معنا ؟ »

وماذا تقول ريحانة الوديعة عنها فيما بينها وبين ضميرها ؟ بل ماذا يقول سيف عنها ؟ وأرادت أن تصرف عن ذهنها ذلك السؤال الذى أوشك أن يملأ قلبها قلقاً ويفسد عليها بهجة منظر الصباح . وكبحت نفسها فى شىء من العنف كأنها تؤنبها على الاسترسال مع هذا الوسواس الذي يخطر لها آناً بعد آخر . فما الذى يعنيها من كل تلك الأسئلة وهى ترى مكانها فى غمدان عزيزاً كريماً ؟ لقد نشأت فيه منذ طفولتها لا تعرف شيئاً عن هذه الصلة ولا تسأل عن شىء . بل إنها كانت تعرف دائماً أن هذا القصر هو موطنها الذى لم تعرف غيره . لم يسألها أحد ممن فيه عن نفسها ولم تسأل هى أحداً عن شىء من نفسها . لم تعرف شيئاً سوى أنها عربية مثل ريحانة . فهكذا قالت الملكة النبيلة وهى تفخر بعروبتها . وماذا ينفعها أن تعرف أمراً لا يزيدها شيئاً ولا ينقصها . ماذا يجديها لو عرفت اسمًا قيل لها إنه اسم أبيها واسمًا آخر قيل لها إنه اسم أمها ؟ بل ماذا يجديها لو عرفت كل نسبتها وأنها تتصل بملوك حمير القدامى ؟ بل مالها تذهب إلى كل هذا وقد تكون معرفة ذلك النسب باعثة لها على البؤس والشعور

بالمذلة ؟ ماذا يكون لو عرفت أن أباها كان أحد المساكين من الأعراب العراة الذين يظهرون لها فى طريق المواكب أحياناً ؟ بل ماذا لو عرفت أنها لم تكن سوى طفلة بائسة وجدوها ذات يوم ملقاة عند باب القصر فتحركت شفقة الملكة عليها فضمتها إلى جناحها ؟ وكانت فى أثناء سبحها فى الخيال تنظر إلى الأغصان تتأملها كيف تتداخل وكيف تتعانق وتتأمل أشكال أوراقها وصور ثمارها . كان بعضها منسرحاً ليناً غضاً وبعضها معقداً جافاً ، وبعضها يمتد بظله الوارف وبعضها يسمو بجذعه الفارع . حتى الأشجار لا يشبه بعضها بعضاً وحتى الغصون لا تتساوى فى هيئتها ، وإن كانت فروع شجرة واحدة . فهل تزيد الشجرة أو تنقص شيئاً إذا هى لم تعرف من غرسها ؟ أين كانت ثمرتها الأولى التى خلقت بذرتها ؟ ألم يكن لها أصل ونسب كسائر الخلق ؟ لاشك أنها انحدرت من بذرة شجرة أو من فرع غصن كما انحدرت بسباسة وكما انحدرت ريحانة نفسها . فلماذا تفسد الصباح بالاسترسال فى هذا الوسواس العقيم الذى لا يستطيع أن يعقب شيئاً سوى الاضطراب ؟ ولمع لها شخص يقبل من بعيد يلوح شبحه خفياً من خلال جذوع الشجر ، فانتفضت وصرفت وجهها عنه حتى لا يحسب أنها كانت تترقب حضوره . إنه هو ! ومرت لحظات طويلة ثم اقترب الشخص حتى ظهر لها من خلال جذوع الشجر ، ولكنه لم يكن سوى أحد خدم البستان يبكر إلى عمله ليجمع ما تساقط من الأوراق الصفراء فى ساعات الليل ويقطع الأعواد الجافة الناشزة من الفروع المتدلية . وسبحت فى حديث مع نفسها مرة أخرى :

« إنه عربى من هؤلاء التعساء الذين يعملون فى قصر غمدان منذ الصباح الباكر إلى المساء فى جمع الأقذار أو مسح الأوضار وخدمة الدواب ، فإذا ما فرطوا فى شىء أو استراحوا لحظة أهوى الحراس الأحباش على ظهورهم بالسياط . وإذا كانت سياط الأحباش تلهب ظهورهم بين حين وآخر ، فإن هناك سياطاً أخرى تلهب أرواحهم فى كل لحظة لا تدع لهم سلاماً فى ليل ولا نهار ولا تعفيهم من العذاب حتى فى خلواتهم — سياط الجوع والخوف . هى سياط لا نراها بأعيننا ولكن الأشقياء يحسونها إحساساً أقوى من الرؤية وأشد من اللمس ، ويتضاعف عليهم العذاب أن يحسوا به فى أنفسهم ويروه فيمن يحبون، إذ ينظرون إلى أبنائهم وبناتهم وهم أطفال أو صبية يتضورون من الجوع ويسيرون عراة وينامون على صفعات حانقة يوقعونها هم أنفسهم عندما تضيق صدورهم من اليأس » .

وانتفضت خيلاء تريد أن تبعد عن ذهنها تلك الأفكار المزعجة ؛ وقلبت بصرها لعلها تقع على سيف ، كأنها تلتمس النجاة . إنها عند ما تحدثه تحس أن الحياة أقل تعاسة ، وأن الأمل أقرب مما يخيل إليها فى وحدتها . ولكن السؤال عاد إليها فى لجاجة وعنت « من كان أبى ؟ ومن كانت أمى ؟ أم ولدت هكذا بغير أبوين كما تنبت حشائش البر ؟ » وتذكرت يوم كان سيف معها تحت هذه الشجرة نفسها فرأى أحد الحراس الأحباش يلهب بسوطه ذى الأطراف الرصاصية ظهر رجل مثل هذا المسكين الذى كان يترنح بين الأشجار ليلتقط الأوراق الذاوية ، وأسرع سيف إلى الحبشى فنزع منه السوط وأهوى به عليه .

ولم يكن عجيباً أن يغضب سيف لمثل هذه القسوة ، ولكن غضبته ملأت قلبها إعجاباً وشكراً . . . وحبًّا أيضاً إن كان هناك ما يمكن أن يزيد قلبها حبًّا له . ماذا يكون لو كانت هى ابنة لأحد هؤلاء الأشقياء ؟ أتكون هكذا ذليلة هزيلة كالكلاب الضالة ؟

أهما الجوع والخوف اللذان يولدان الذل فى نفوسهم ؟ أم هى نفوسهم الذليلة التى تجعلهم يسقطون فى مهاوى الجوع والخوف ؟ أما يستطيعون أن يهبوا للدفاع عن أنفسهم إذا ألهبت ظهورهم السياط ؟ أيخشون الموت ؟ وأى موت أشد مما هم فيه من البلاء ؟

ورفعت يدها إلى عينيها عند ما أحست عليها غشاوة من الدمع ، فمسحتها وقامت تسير فى ظل الممشى لعل الحركة تذهب عنها هذه الهواجس المفزعة .

ولما اقتربت من العربى النحيل مدت إليه يدها بقطعة من الذهب ، وعجبت عند ما فزع كأنه يهرب منها . فدعته فى رفق حتى أنس وعاد إليها متردداً وأخذ الدينار ينظر إليه نظرة غريبة ، ثم أسرع عنها بغير أن ينطق بحرف . يالمسكين ! إنه يشبه كلباً طالما تعود أن يضرب بالعصا فلا يأمن اليد التى تمتد إليه بقطعة من الطعام .

وسارت بين أحواض الزهر اليانعة وفى نفسها شىء من التوزع وكان الندى ما يزال يخضل الأوراق ويزيد ألوان الزهر نضرة وبهاء ، ولكن أسمال العربى البائس كانت ترف دونها ، « إنها إهانة للإنسانية أن تهب الطبيعة هذه المباهج إلى جنب المقاذر التى يهوى الإنسان إليها ! »

هكذا كانت خيلاء تحدث نفسها فى حنق ، وكانت السحب البيضاء تتسابق فى السماء مقبلة من الجنوب ، وترددت أصوات الطير وهى تتواثب وتتداعى فوق الغصون ، واستمرت خيلاء فى تفكيرها « هذه الطيور لا تعرف سادة وليس فيها أغنياء وفقراء ، وقد تتطاحن فيما بينها وقد يقتل الصقر عصفوراً ولكنها لا تتخذ عبيداً » . وعادت إلى القصر مسرعة إلى مخدعها وقلبها يخفق خوف أن تقع عليها عين أحد ، أو أن يراها سيف عائدة من البستان فى تلك الساعة. فيعرف أنها كانت هناك تنتظره ؟ وكان شعورها بالخيبة يزداد مع كل خطوة حتى إذا ما صارت وحدها استندت بذراعها على جانب النافذة وتقاطرت دموعها . وكانت الشمس قد علت فى السماء وأخذت الحركة تدب فى فناء القصر ولكنها لم تلمح صورة سيف هناك .

٢

قال الراوى :

قضى سيف ليلته ساهداً وهو مستلق على أريكته فى المخدع والنوم لا يواتيه مع أفكاره المضطربة التى كان يسبح فيها . كان يحس كأن عقله رحى تدور فارغة يعلو ضجيجها ويأخذ منها الدوار حتى يكاد

يذهل ، ومع ذلك كان ينتبه أحياناً فيسأل نفسه فيم يفكر فلا يجد فى فكره شيئاً . ولم تكن تلك الليلة أول عهده بتلك الرحى الفارغة ، فقد كان منذ شهور يتحدث إلى نفسه مثل تلك الأحاديث الغامضة الجوفاء لا تفارقه ضجتها إذا سار وإذا جلس وإذا أكل وإذا خرج إلى نزهة . كان لا يعبأ بشيء مما يرى ولا بشيء مما يسمع ، كأن العالم كله قد انطوى فى داخله فى تلافيف ضبابة . ولكنه إذا وجد نفسه فى صحبة إنسان هربت تلك الأحاديث فلم تنطلق من لسانه ، لأنها لم تكن أحاديث ناطقة مؤنسة بل هى أقرب إلى أخيلة متصادمة تشبه الرياح فى زوبعة . حتى خيلاء حتى خيلاء كان لا يجد معها حديثاً إذا لقيها ، حتى إذا ما خلا إلى نفسه بعد ذلك تدفقت أقواله إلى خيالها . وهمّ مراراً أن يشكو ما به إلى أمه ريحانة ، ولكنه لا يجرؤ على ذلك لأن تلك الأحاديث كانت فى تلافيفها الغامضة تتصل بها . وماذا يقول لها ؟ أيسألها عن خواطره المبهمة الشوهاء التى تكاد تبهمها ؟ أم يسألها عن معنى تلك الأحلام التى كانت تعتاده بين ليلة وأخرى وهى تكشف عن ضعفه أو سخفه ؟ وهمّ مراراً كذلك أن يشكو إلى صديقه الشيخ الطيب أبى عاصم ولكنه لم يجرؤ . فما كان أحراه إذا سمع شكواه أن يظن به الخبل أو يحسب به مسًّا من الجن . ومع ذلك فإنه صار لا يكاد يرى ذلك الشيخ بعد أن كانت دروسه أشهى ساعات حياته يقضيها فى صحبة خيلاء فيستمعان إلى ما عنده من علم وحكمة ويهيمان معاً فى عالمهما . فمنذ اعتراه ذلك التغير الذى طرأ عليه منذ أشهر انقطع عن ساعات الدرس لكى يشقى وحده مع هواجسه .

ومع ذلك فقد غادر أبو عاصم القصر كله وذهب إلى داره البعيدة فى حقل صنعاء، وصار لايلم بالقصر إلا فى فترات متباعدة . وبدت له الحياة خالية موحشة كأنها لعنة منبوذ خلى الناس جميعاً بينه وبين نفسه . حتى هؤلاء الرفاق الذين كان يخرج معهم إلى الصيد أو النزهة فى الأودية اليانعة ، ضاق صدره بهم وبأحاديثهم وكبريائهم . كانوا من أبناء القواد الأحباش ولا يترددون أن يتحدثوا تحت سمعه فى سخرية عن سادة اليمن من القدامى كأنهم لا يعبأون بأن أمه عربية – ريحانة ابنة ذى جدن . وكانت كبرياؤهم تبعث الحنق إلى صدره كلما أهانوا العرب المساكين الذين يجاهدون فى الحقول أو فى مراعى السفوح المعشبة . فكان يباعدهم ويتملص من صحبتهم بمعاذير مختلفة ويؤثر تلك العزلة التى يصاحب فيها وساوسه . وأراد مراراً أن يجادل نفسه ليحملها على أن تنظر كما ينظر هؤلاء الرفاق وتلهو كما يلهون وتعبث كما يعبثون ، ولكنه كان لا يلبث أن يمتلئ منهم حنقاً ، بل كان أحياناً يثور بهم ويعنف عليهم . كان دائماً يحس أنه موزع غير متماسك ، كأنه خلق من طينتين لا يدرى أينبغى له أن يكون حبشيًّا مثل أبيه أبرهة أم عربيًّا مثل أمه ريحانة . ولكنه كان لا يغضب لشىء حبشى ، ولو كان له الاختيار لما اختار سوى جده ذى جدن .

وتنبه إلى نفسه بين خواطره تلك وكان الليل قد مضى نصفه والقمر يغمر الفضاء ويطل شعاعه من نافذته المرمرية . فقام ينظر إلى البستان وكان الفضاء الساكن لا يشوبه حديث حانق . والقمر يسبح فى السماء

وأحواض الزهر تحلم فى أشعته . وتثاءب سيف وأحس فى جفونه ثقلا ولكنه استمر فى أحاديثه الصامتة . وخيل إليه أن ينزل إلى البستان وفى نفسه أمل غامض أن يرى هناك أحداً يذهب عنه الوحشة . أو لعله يرى خيلاء فى ظل إحدى الخمائل وحدها ، فيذهب إليها معتذراً عن طول احتباسه عنها ، ويقول لها بعض ما يقول فى خلوته لها . وتمنى لو تجرأ يوماً أن يفضى إليها بما فى سره فهى بغير شك أحرى أن تستجيب له ولا تظن به السخف أو الخبل .

وتثاءب مرة أخرى وكانت جفونه تفيض نعاساً ، فذهب إلى فراشه وأغمض عينيه . وكان نومه ثقيلا مضطرباً يهب منه مستيقظاً بين حين وحين فيجد رأسه غائماً وصدره منقبضاً ويحاول أن يجمع الصور التى أزعجت نومه فلا يجد إلا أثراً غامضاً لا معالم فيه ، كأنه كان يبحث عن شىء ينفلت منه فلا يدركه أو يسعى نحو غاية فلا تلبث أن تختفى عنه ، ويسأل نفسه عنها فلا يعرف ماذا كان يبغى .

وهبّ آخر الأمر من فراشه على أثر صيحة فى أعقاب منظر لم يستطع النوم بعده ، وإن كان منظراً مألوفاً عاوده مرة بعد مرة ، وكان النوم فى كل مرة يشرد عنه فيعصيه من بعد ولا يعود إليه . رأى كأنه عاد طفلا فى سن الخامسة يلعب فى بستان القصر مع رفاق صغار ، وكان المنظر واضحاً بكل دقائقه حتى لقد تذكر فيه أشياء لا تسترعى نظره وهو كبير . كانت هناك شجرة ضخمة من شجر الجوز فيها فجوة تتسع لطفل أن يختبىء فيها ، فكان هو ورفاقه يتخذونها مخبأ فى لعبهم ايفاجىء بعضهم

بعضاً إذا مر قريباً، وكان هناك بيت مظلم فى آخر البستان له نوافذ قريبة من الأرض تعترضها قضبان من الحديد . فكانوا يتسلقون قضبانها لكى يطلوا منها إلى الظلام الذى وراءها ، ثم يقفزون سراعاً ويصرخون ضاحكين ، وكانت هنا دقائق أخرى كثيرة غابت عن ذاكرته فأعادها إليه الحلم واضحة المعالم كأنه يراها فى ساعته . وكانت خيلاء إحدى رفاقه تجرى وراءه حيناً ويجرى وراءها حيناً آخر فإذا أدركها أو أدركته ضجت منهما ضحكة عالية . وهكذا مضى الحلم :

كان أخوه الأصغر مسروق يتبعهما مترجرجاً فى جريه كما يحاول طفل فى الثالثة أن يلحق بإخوته . وكانت معهم خادم سوداء تضاحكهم بأفانين من ألعابها ، فتارة تقلد لهم أصوات الدواجن فتصيح كالديكة أو تقأقئ كالدجاجة أو تعوى كالكلب وتموء كالهر ، وتارة تقلد أصوات السباع فتصيح مثل الذئب أو ابن آوى أو تزأر كالأسد وهم يتضاحكون فى زياط أو يتماسكون فى رعب ثم ينفجرون فى ضحكة واحدة ويصفقون مرحين . فإذا ما أرادوا تقليد صيحاتها اختار كل منهم ما يحلو له فكانت خيلاء تقلد الحمامة أو اليمامة وسيف يزأر كالأسد أو يعوى كالذئب ويحاول أن يخيف رفاقه كما تخيفهم الجارية . فإذا ما شاركتهم الخادم فى الصياح والضحك ورأتهم بلغوا الغاية من ألاعيبهم اختارت من فنونها صنفاً آخر تطرفهم بجدته ليعود نشاطهم كما كان . فكانت تقلب لهم جفونها وتغير صوتها كأنها تحولت إلى جنية . فيهرعون هاربين منها وهى تعدو فى أثرهم صائحة « إمسك » وهم يحاولون الانفلات منها . وكان سيف

الطفل يحس قدميه ثقيلتين عند ذلك ويخيل إليه أن الجارية قد انقلبت حقـًا إلى جنية تريد أن تجره إلى بطن الأرض معها . ثم تعدل الجارية إلى حيلة أخرى فتكشر عن أنيابها قائلة إنها قد انقلبت ساحرة غولة تأكل الأطفال ، وتحملق بعينيها الحمراوين وتقول فى صوت مخيف « همهم » ، فيصرخون ويبكون حتى تعيد جفنيها ثم تضحك مقهقهة فيضحكون وراءها من بين دموعهم . وتأخذ الجارية تعدو بهم وتمسك بيد سيف فى أثناء ذلك وتندفع مسرعة وهو لا يستطيع أن يجاريها فيتعثر ويده معلقة بيدها ، وجرته على الأرض حتى خدشت ركبتيه ثم وقفت ضاحكة . وكاد يبكى ولكنه تماسك على مضض ولم يبك وقال فى نفسه : « ألست رجلا ؟ » وذهب إلى أخيه مسروق فأخذ يده وجرى به كما جرت به الجارية حتى تعثر مسروق ووقع وخدشت ركبته وصاح يبكى . فجاءت الجارية تصرخ وجعلت تمسح الرمال عن ركبة الطفل الدامية وهى تصيح بسيف مؤنبة . ثم تبدل المنظر فجأة كما يحدث فى الأحلام فإذا هو فى براح من أرض خالية كالصحراء وإذا شبح ضخم يهجم عليه عابساً فيقف فى مكانه مسمراً لا يستطيع حراكاً . وأحس رجليه ثقيلتين فى الرمال وجعلت عيناه تطوفان فى خوف ، ثم أخذ الشبح الأسود بكتفيه وهزهما هزًّا عنيفاً . وقال فى نفسه : «لن أبكى فإنى رجل» ، وأخذ الشبح يبرطم بألفاظ سريعة حانقة بلسان غير مبين . ثم رأى نفسه مرفوعاً فى الهواء ينظر فى عينين واسعتين عابستين لهما جفنان ثقيلان متورمان . وبدا الوجه مثل الفحمة وفى جانبيه عينان كالجمرتين .

وسمع صوتاً أجش يصيح به : « من أنت ؟ وابن من أنت ؟ أتضرب ابن أبرهة أيها العربى ؟ » وأراد سيف الطفل أن يقول : « لم أضربه » ولكن لسانه احتبس وقال فى نفسه : « ألست أنا ابن أبرهة ؟ من أبى إذن ؟ » وتحول المنظر فجأة مرة أخرى فإذا هو فى البراح وحده وقلبه يخفق رعباً ولكنه لم يبك وقال فى نفسه : « ألست رجلا ؟ » ونظر حوله يبحث عن رفاقه وعن الجارية فرآهم من بعيد يختفون عن عينيه وراء شىء أسود مظلم . فصرخ ينادى ويبكى ولم يستطع أن يمسك نفسه مع أنه كان يقول فى سره : « كيف أبكى وأنا رجل ؟ » ولم يسمع جواباً لصراخه وخيل إليه أن الشبح الأسود يطل له من بعيد يسد الأفق وكأنه يتربص به ليمسك به مرة أخرى . وحاول أن يجرى إلى الجانب الآخر هرباً منه ولكن رجليه لم تسعفاه كأنهما مسمرتان فى الرمال . وأحس وقع أقدام ثقيلة تتبعه فدق قلبه دقًّا عنيفاً وصرخ فى ذعر فهب من نومه يلهث والعرق يقطر من جسمه .

كان حلماً فظيعاً ولكنه لم يكن جديداً . كان ذلك الحلم يعاوده بين حين وآخر فى أعقاب لياليه المسهدة . وقضى ساعة يحاول أن يهدئ نفسه بالسخرية والتماس العلل لاضطرابه . فلعل الطعام هو الذى ثقل على قلبه ، أو لعلها الوساوس التى شغل بها ذهنه هى التى خلقت له تلك المناظر المزعجة ، أو لعله عارض من برد أو تعب أو هى زيارة روح خبيثة ألمت به فى سبحها بالليل . وانطلقت أفكاره هائجة فذهبت تهيم فى البعيد والقريب فى سرعة مجهدة حتى ضاق بحجرته ولم يجد بدًّا من

أن يخرج إلى الفضاء لعله يجد فى الحركة وانطلاق الجو ما يذهب الضيق الذى اعتراه . وخرج يتسلل من الحجرة إلى الممر الذى وراءها ثم إلى البهو وكانت الشموع ما تزال ترقص فيه عند حوافى حواملها .

ومر بحجرة أمه الملكة ريحانة . إنها بغير شك ما تزال فى سريرها لا تدرى شيئاً عن ضيقه ولا عن وساوسه . ولو علمت بأنه يتسلل من حجرته لقامت إليه ملهوفة وأخذته بين ذراعيها . هكذا قال فى نفسه وهو يسير على أطراف أصابعه عند بابها . لماذا تتلهف عليه هذه الأم هكذا كما لا تتلهف على أحد من إخوته ؟ كان أحياناً يكاد ينفر من رحمتها التى تخيل إليه أنها تحسبه ما زال طفلا . ومع هذا فما أشد ما يحسه من الحب نحوها ! هى عنده تعدل الحياة أو تكاد تعدلها . ولكن خيلاء هناك كذلك فى حجرتها المقابلة لحجرة الملكة ريحانة . وهى بلا شك راقدة فى فراشها ولعلها تحلم أحلاماً أخرى . إنه لم يرها منذ أيام طويلة وقد كان يود لو رآها. أما ينفتح بابها فجأة فتطل منه هامسة له: «إلى أين يا سيف ؟ » هكذا همست له مرة وهو يخرج فى الصباح الباكر منذ أسبوع فذهب إليها وأخذ يدها الممدودة ووقف صامتاً . وحاول أن يتكلم فلم يجد إلا أن قال لها: «عمت صباحاً يا خيلاء . لم تبكرين هكذا ؟» وكانت نظرتها عجيبة عند ما قال لها : « سأنزل إلى البستان فإنى أحس صداعاً » ثم سار عنها مسرعاً . فماذا يقول لها لو رآها تطل فى تلك الساعة من باب مخدعها ؟ أيقول لها: «سأنزل إلى البستان فإنى أحس ضيقاً ؟ » ومضى يسير على أطراف أصابعه وكان البهو صامتاً ساكناً فيه رهبة . كم

شهد هذا القصر من قصص عجيبة، ولا عجب أن تلم به بعض الأرواح الخبيثة . وكم حدثه عنه الشيخ أبو عاصم فى أثناء الدرس الذى كان يلقيه إليه مع خيلاء . كان يحدثهما عن الملوك الذين أقاموا فى غمدان وعن الأحداث التى اضطربت بها هذه الأبهاء الفسيحة ، أهكذا كان الناس أبداً لا يعرفون سلاما ؟ كانوا دائماً يتنازعون ويتصارعون ، كأن الحياة لا تحتمل الرضى أبداً، أما كانوا يعرفون حبًّا ؟ وأحس حيرة شديدة عندما تمثلت له صورة أمه وصورة خيلاء جنباً إلى جنب . أيهما كان أقرب إلى قلبه ؟ كان فى هذه الأيام الأخيرة يحس شيئاً يشبه الرغبة فى التهرب من أمه ، أيتهرب منها وهو يحبها ذلك الحب العميق ؟ ولكنها هى كذلك كانت مع شدة لهفتها عليه يعتريها شىء يشبه الاضطراب، وتطرق مرتبكة كأنها تود لو هربت منه ، كانت عيناها دائماً تبعثان فيه الطمأنينة وكان كلما ذهب إليها بحث عنهما يلتمس منهما نظرة ، ولكنها كانت تدير عنه عينيها . فإذا ملأه الشعور بالخيبة استأذن منصرفاً فكأنها كانت ترتاح لذلك وتقوم إليه لتضمه إلى صدرها فى شفقة ثم تدعه يذهب بغير أن تتلاقى عيناهما . أليست القلوب تتحدث كما قال أبو عاصم يوماً فى درسه؟ لا شك فى أنها تتحدث فإنه يسمع أمه تتحدث صامتة ؛ كما أنه كان بغير شك يسمع خيلاء تتحدث صامتة .

وبلغ سيف فى سيره جناح أبيه وهجم عليه شعور عجيب يشبه الحسرة أو الندم أو هو شىء آخر أقرب إلى اتهام النفس . أكان يحب ذلك الأب ؟ وإلا فما ذلك الحاجز الذى كان يجده قائماً بينهما ؟ لا يذكر

يوماً أنه اندفع إلى ذراعيه كما كان يفعل أخوه مسروق وأخته بسباسة ، وكان يقول لنفسه وهو طفل : «كيف أندفع بين ذراعيه كأننى طفل ؟» وكان يسخر فى سره منهما عندما كانا يتنافسان على حضن أبيه ويتنازعان قبلته ويسأل نفسه أهو طفل مثلهما ؟

كان دائماً يذهب إليه متردداً يمسك نفسه كأن شيئاً خفيًّا يقف دونه . وأحس سيف هواء صباح الخريف يملأ صدره عندما خرج إلى البستان ، وكان القمر ما يزال يغمر الفضاء بضوئه الحائل . كان منذ ساعة قصيرة يرى نفسه فى الحلم طفلا فى هذا البستان والجارية السمراء تجره من ذراعه ، ثم هاتان العينان ، كانتا تظهران له من وراء الضوء الخافت كأنهما قطعتان من الجمر . واعتراه خجل من أن ما زال يتذكر هذه المخاوف الصغيرة كأنها حقائق . وبلغ مربط الخيل ورأى مهره الأبيض يرهف أذنيه لمقدمه. أهى حاسة أخرى غير حواس البشر يستطيع المهر أن يدرك بها قدوم صاحبه قبل أن يراه ؟ كان الفرس يتنفس فى هزة كأنه طفل يتهاتف نحو ظئره ويهز رأسه فى فرحة ظاهرة . وخرج به سيف من باب البستان الخلفى الذى يفضى إلى خارج المدينة ،وكان الليل ما يزال ساكناً لا تقطعه إلا تحية حارس الباب إذ قال له : « لم يطلع الفجر بعد يا سيدى » . وكان شيخاً عربيًّا عرفه سيف فى القصر منذ كان طفلا ، وكان يؤثر أن يخرج من عنده كلما أراد الخروج . وقد طالما رآه الشيخ يذهب مبكراً إلى الصيد ولكن صوته فى تلك المرة كان لا يخلو من دهشة . وأضاف ضاحكاً: « لم تتحرك الطيور بعد »؛ فقال سيف وقد داخله شىء من

الارتياح : « وماذا يزعجها قبل الصباح يا أبا بردة ؟ » وكان ذلك هو الاسم الذى اعتاد سيف أن يناديه به منذ صباه ، لأنه كان يضع على كتفيه بردة من وبر الإبل لا تفارقه ليلا ولا نهاراً ولا فى صيف أو شتاء . وهز الرجل رأسه فى عطف وهو ينظر فى أثره ويغلق الباب خلفه . وسار المهر خفيفاً نشيطاً فوجد سيف فى حركته بعض الأنس ،وكان النسيم يرف من قبل الشمال فيمسح على وجهه رفيقاً . تذكر يوم أهدى أبوه هذا المهر إليه وكان ذلك عندما أتم بناء الكنيسة وذهب فى موكبه ليصلى بها أول صلاة مع رسول قيصر . وتذكر فى تلك اللحظة أمراً غاب عنه فى مضطرب أفكاره . فإن أبرهة سيخرج فى ذلك اليوم فى موكبه إلى الكنيسة العظمى ليؤدى بها الصلاة قبل خروجه إلى حرب قريش . وقد كان سيف يود لو ذهب معه إلى تلك الحرب ، بل لقد طلب ذلك إليه كما ينبغى لشاب فارس مثله يريد أن يجول جولة فى ميدان القتال كما يجول الرجال . ولكن أبرهة تبسم له قائلا : « لن ترضى أمك ياسيف » ، وكانت نظرته غريبة وابتسامته جوفاء . فلم أجابه بأن أمه هى التى لا ترضى ؟ أكان يسخر منه ؟ وهل كان يقول ذلك لمسروق لو سأله الخروج معه ؟ وعجب سيف من نفسه كيف لم يذكر ذلك الموكب إلا فى تلك اللحظة بعد أن بعد عن القصر وانفرد فى الليلة المقمرة . حقًّا إن القلوب لا تتحدث فحسب بل تسيطر . لم يكن فى قرارة نفسه راضياً عن الخروج فى الموكب مع أبيه وكان يتمنى لو وجد سبباً يمنعه منه ، ولكن لم يخطر بباله أن يخرج عامداً من القصر لكى يمتنع عن الذهاب

مع أبيه قصداً . أيكون قلبه قد أنساه الموكب وجعله يخرج من القصر قبل الصباح كأنها خطة مدبرة؟ واتجه المهر فى الطريق الذاهب نحو وادى ضهر ، فقد كان سيف كلما ركبه يذهب به إلى هناك . وقال سيف وهو يمسح عرف الفرس : « إنك خير من كثير من البشر » . كان يعرفه كما يعرف الصديق صديقه ، فهو يأنف أن يأكل فى مذوده إذا لم يكن نظيفاً ويأبى أن يشرب الماء إذا لم يكن صافياً ولا يرتاح فى مربطه إذا لم يتعهده سائسه بالخدمة . وهو لا يحتاج إلى مهماز ولا تلويح بسوط ، وينفر ثائراً إذا أساء أحد إليه . لم يكن ليرضى أن يعامله أحد كما يعامل خدم القصر من العرب الذين كانوا يضربون بالسياط ويوجه إليهم أقذع السباب ، ولا يرضى أن يعيش كما يعيش هؤلاء المساكين الذين يضربون خيامهم فى شعاب الجبال يقنعون بأتفه الطعام وأرذل الملبس . ومر فى طريقه بخيمة رثة فى ظل صخرة ،وكان الفجر ينبثق من أفق الشرق كأن الكون يفتح عينيه من سنة نوم . وإلى ناحية من الخيمة رأى أشباحاً سوداء مقبلة فتأملها حين اقترب منها فإذا هى امرأة عجفاء تحمل حزمة من الحطب ومن ورائها أربعة أطفال لا يزيد أكبرهم على سن العاشرة . يحمل كل منهم حزمة ولا يكاد صغارهم يستقلون بحملهم . هؤلاء كذلك يخرجون فى الصباح الباكر كأن الأحلام المفزعة تزعجهم من مراقدهم . وكانوا جميعاً فى أسمال بالية لا تغطى من أجسامهم النحيلة إلا قطعاً . ووقف الأطفال يتطلعون إليه فى فضول بوجوههم السمراء التى يعلوها الصدأ . ولكن المرأة لم تلتفت إليه وصاحت بهم فى حنق، فأسرعوا وراءها

وهم يتلفتون إليه من وراء . ومدت المرأة يدها إلى كبرى الصبية عندما أدركتها فخبطتها فى عنف وصاحت بها تنطق بألفاظ لم يفهم سيف منها سوى أنها حانقة ، وصاحت الصبية تبكى . هؤلاء كذلك قد خرجوا قبل أن يتحرك الطير . ولكنهم لا يغنون ولا يمرحون . كان سيف يرى فى كل مكان أمثال هذه المرأة وأطفالها ولم يسمع منهم جميعاً سوى الحنق ، ولم يشهد سوى العرى والعنف . وعادت إليه ذكرى يوم خرج إلى النزهة مع بعض أصحابه من أبناء القواد الأحباش وأعيان صنعاء وكانوا يحملون طعاماً خفيفاً فنزلوا فى شعب أشجر معشب يستظلون عند الظهيرة ، وكان على مقربة منهم نجع فيه خيام رثة مثل خيمة تلك المرأة ، وجاء إليهم سرب من أطفال يشبهون أطفالها فى عظامهم الناتئة وثيابهم المخرقة التى لا لون لها إلا أن يكون التراب لوناً . ووقف الأطفال يرقبون الجمع كما تقف الكلاب الجائعة ترقب فضلة من العظام على مقربة من وليمة تفوح رائحة طعامها . وأخذ أصحاب سيف يعبثون بالأطفال فيلقون إليهم قطعاً من فتات الخبز ويتضاحكون كلما رأوهم يتزاحمون عليها . كانوا فى تزاحمهم عليها يعفرونها فى الرمال فمن استطاع منهم أن يفوز بقطعة منها أسرع بها ودسها فى فمه ولا يبالى أن ينفض التراب عنها . وتذكر سيف كيف أحس عند ذلك بما يشبه الحنق . وكانت ضحكات أصحابه ترن فى سمعه قاسية مزعجة . إنها فكاهة للمترفين ومعركة حياة للمعذبين . وقام يحمل ما استطاع حمله من الطعام فمد به يديه إلى الأطفال وأمرهم أن يذهبوا به ليأكلوه بعيداً فى هدوء . ولم يدر لم كان

فى قوله غليظاً جافياً مع أنه كان يرحمهم فى قلبه . وضج أصحابه بضحكات عالية عند ما رأوا الأطفال يصيحون به صياحاً يشبه السخرية وهم يخطفون الطعام ويسرعون به كأنهم يخشون أن يستعيده من أيديهم . وجعل الفتيان يتبادلون فكاهات قارصة وهو يمسك نفسه من الغضب . ووقع فى قلبه فى ذلك اليوم أن هؤلاء المساكين الذين ذهب الفقر بإنسانيتهم أقرب إليه من رفقائه أصحاب الكبرياء . وتمثلت له أمه ريحانة العربية تبتسم له شاكرة . وخطر له فى تلك اللحظة خاطر جديد وعجب لنفسه كيف لم يخطر له من قبل ، أن هؤلاء المساكين قوم أمه الحبيبة ريحانة .
وكان سيف قد بلغ فى سيره منتصف الطريق حيث كان جبل ينور الذى ينطوى على كهف يسكنه الجن ، وظهرت أشعة الشمس الأولى تضرب فى السماء بمثل حراب دامية . فأحس رهبة شديدة وهمز مهره فانطلق يعدو به، وأحس شيئاً من الارتياح للحركة السريعة ، ولكن هواجسه لم تفارقه فسأل نفسه: «ماذا كان يفعل لو كانت ريحانة ولدته لأحد أبناء قومها من حمير ، أو لرجل من بنى خثعم أو الأزد أو السكاسك؟ كيف كان ينظر إليه هؤلاء الشبان الساخرون أبناء قواد الحبشة ؟ وذهب بفكره إلى أحاديث الشيخ أبى عاصم إذ كان يقص عليه وعلى خيلاء أخبار جده ذى جدن ، وأطرافاً من سير ملوك حمير وآدابهم وعقائدهم . أكان الأطفال يسيرون عند ذلك عراة هكذا جياعاً ينتظرون أن تلقى إليهم فضلات الطعام ؟ وهل كان فى حمير أمثال أولئك الرفاق من أبناء القادة الذين يتضاحكون سخرية من بؤس المساكين ؟

وصعدت الشمس بموكبها فى السماء وألقت أشعتها على حواشى السحب فصبغتها بالعصفر والقرمز ، وعادت إليه صورة أبيه أبرهة الذى سيخرج فى موكبه إلى الكنيسة العظمى ليصلى ويدعو المسيح لينصره . أيسأل عنه إذا افتقده ولم يجده ، أم هو لا يفتقده ولا يحس غيبته كما فعل من قبل مراراً ؟ كان أبوه أبرهة إذا اتجه إليه فى حضرته يبسم له عاطفاً ويكرمه رحيماً ولكنه لم يتجه إليه يوماً بعتاب على غيابه عن مشهد من المشاهد ، ولم يقل له يوماً: «ما كان ينبغى لك أن تغيب اليوم يا ولدى» لم يذهب إلى الكنيسة فى يوم عيد الميلاد السابق لأن خيلاء كانت مريضة ببرد ، فآثر أن يبقى إلى جانب سريرها ، وفى يوم الفصح لم يذهب لتهنئة أبيه لأن حلمه المزعج زاره فى تلك الليلة فأفسدها عليه ولم ينم إلا قبيل الصباح ففاتته ساعة التهنئة بالعيد .. ولكن أبرهة لم يغضب فى إحدى المرتين ولم يتجه إليه بلوم . بل بعث إليه يوم الفصح بهديته مع أمه . وعادت إليه كلمات الشبح الأسود إذ قال له فى الحلم: « من أنت وابن من أنت ؟ أتضرب ابن أبرهة ؟ » . ألم يكن أبرهة أباه ؟ وتمنى لو تجرأ أن يذهب إلى أمه ليلقى عليها السؤال الذى صار ينمو فى طى نفسه كما تنمو الشياطين إذا تصورت فى صور الحيوان ، وكاد الشك الذى أثاره الحلم المتكرر يصير يقيناً . وهاجمه السؤال مرة أخرى فى لجاجة « أأنا ابن أبرهة ؟ ألا يكون ذلك الحلم من وحى الغيب جاء ليطلعنى على حقيقة خفية ؟ » بل لقد بعدت به الدفعة عن مداها وسأل فى ثورة قائلا: « أأنا ابن ريحانة ؟ » ولكنه ما كاد يفطن إلى سؤاله حتى ارتد فى فزع

كأن هوة عميقة تفغر له فاها فى الطريق على حين فجأة ، أو كأنه رأى عدواً يتربص له لينتزع منه كنزاً ثميناً . وقال فى غيظ : « بل هى أمى ولا يمكن إلا أن تكون أمى . إننى أعرف ذلك كلما نظرت إليها أو سمعت صوتها وكلما نظرت إلى صورتى فى المرآة أو تأملت أعماق نفسى . إنها بلا شك أمى ولن يداخلنى فى أمرها شك أبداً » . وبلغ به السير إلى قصر جده ذى جدن على قمة التل المشرف على وادى ضهر ، ولم يحس مرور الزمن ، كأن لم تمض ساعتان ، وكانت الشمس تعلو فى السماء مقدار رمحين .

وكان القصر العابس مقفراً ليس فيه إلا صبيح الحارس وبعض الخدم من الأعراب ، وحجراته الواسعة الحجرية الباردة . ولكنه كان أرفق به من غمدان لأنه لا يضطره إلى التسلل والتخفى . كان هناك يستطيع أن يخلو إلى نفسه ويمضى مع أحاديثه بغير أن يتعمد الاعتزال أو يضطر إلى الاعتذار باختلاق الأكاذيب . ولكنه عندما أقبل الليل كاد يختنق من الوحشة ، فخرج إلى الوادى وكان القمر يغمره بضوئه الرفيق ، ويجعل مناظره أشبه بمناظر الخيال . وكانت تمر به أوقات يفيق فيها إلى حسه فيفزع ويتمنى لو كان إلى جانبه أحد يحدثه ويسمعه صوته ، خيلاء أو أبو عاصم أو ريحانة ، فإن هذه الحياة التى يحياها فى الخيال توشك أن تقطع صلته بالأشياء والأحياء جميعاً ، وتجعل كل حركته لا تزيد على سلسلة من الهذيان المحموم . ومع ذلك فقد أمضى أكثر وقته فى ذلك الوادى مدة إقامته فى قصر جده ، يهيم فيه مع خياله

فلا يعود إلا قبيل الصباح عند ما تثقل جفونه ، ولكنه إذا عاد إليه استأنف فى نومه سلسلة الهذيان فى الأحلام .

٣

قال الراوى :

كان غمدان قد استعاد رونقه بعد أن أصلحه أبرهة من آثار الحرب الطاحنة التى كانت بينه وبين أعدائه ، وأصبحت أبهاؤه كما كانت على عهد ملوك تُبع أعجوبة من أعاجيب الفن البديع .

كان البصر يمتد فى إيوانه بين صفين من العمد المرمرية الرشيقة، تحف بهما من الجانبين عقود أنيقة مدت من بينها الطنافس الوثيرة من نسيج فارس والهند وأرمينية ، وتتخللها تماثيل بارعة الصنع من نحاس أو مرمر ،وآنية من فضة أو حجر شفاف عليها نقوش افتن فى تصويرها صناع القسطنطينية والإسكندرية . وكانت فى أركان الإيوان أربعة أسود نحاسية سمراء،إذا دخل الهواء فى أجوافها سمع لها صوت يشبه الزئير كأنها عائدة عند الفجر إلى دحالها بعد أن امتلأت من صيدها فى الليل .

ولما تقدم النهار توافدت على الأبواب جموع من الذين جاءوا فوجاً بعد فوج يسرعون من فجاج اليمن ليظهروا الولاء لأبرهة الملك المنصور قبل أن يخرج فى جيشه العظيم إلى حرب قريش .

ووقفت الجموع فى حلقات يتهامس بعضها مع بعض، وعيونهم تلوح بين حين وحين إلى ردهة الإيوان ترقب قدوم الملك . وكانوا جميعاً فى زينة مختارة وملابس زاهية وسلاح محلى بالذهب والفضة ، فكأن ألوان الزهر اجتمعت هناك من أحمرها وأصفرها وأزرقها وما بين ذلك من ظلال شتى . كان فيهم زعماء القبائل من حمير أصحاب الملك القديم؛ومن أشراف خثعم سادة فرسان الصحراء،وشيوخ همدان شجعان العرب ، وفيهم من مهرة والسكاسك وكندة الذين عادوا إلى بلادهم بعد أن خلعتهم قبائل الشمال عن عروش نجد . وكان بينهم عدد كبير من وجوه المدائن الكبرى صنعاء ونجران وزبيد وصعدة وعدن وغيرها ، قد احتشدوا جميعاً بدعوة من الملك ليستوثق من ولائهم قبل خروجه إلى مغامرته الجديدة التى ستمد ملكه على أرض العرب جميعاً .

ودخل شيخ بدوى يتوكأ على عصاه ويطأ بنعليه الغليظتين طنافس البهو فى بطء ، ناظراً إلى الجمع الكثيف فى هدوء كأنه جاء يسوق إبله العطشى إلى مورد الماء . وكانت ملابسه الخشنة ووجهه المجعد تبدو مثل صرخة فى وجه الجمع الحافل الأنيق فكان أينما خطا تتجه إليه الأعين فى اهتمام ودهشة . كان فى هيئته محارباً قديماً من بقيه عهد منقرض . وحيا الشيخ أقرب الناس إليه تحيةخافتة تضمر لوناً من الاعتداد بالنفس. وكان يقف بين خطواته البطيئة يقلب بصره فى الوجوه كأنه يبحث عن وجه يعرفه . وكان يرى ما أمامه كأنه يلوح من وراء ضباب ويستمع إلى الهمهمة الغامضة التى تتردد فى البهو كأنها منبعثة من عالم بعيد .

وكانت الأعمدة المرمرية تبرق جديدة والأروقة المزخرفة تطل هادئة جليلة والمصابيح تتدلى من عناقيدها النحاسية الفخمة كما كان يراها منذ عهد بعيد عندما كان يدخل على ذى نواس آخر الملوك . ومع ذلك فقد كان البهو يبدو فى نظره الكليل أجنبيًّا . وعادت إليه صورة ذى نواس يوم جمع شيوخ القبائل ليستنجد بهم على الأحباش الذين جاءوا لغزو بلادهم ، وكان يبسط لهم يديه راجياً أن يتناسوا أحقادهم وعداواتهم ويقفوا وراءه صفًّا واحداً ليحاربوا عدوهم ويدفعوه عن أرضهم . وتذكر ضجة الشيوخ وهم يتبادلون التهم ويتقاذفون بالصيحات الحانقة ثم ينصرفون فرادى لكى يلقاهم الأحباش أشتاتاً ويقهروهم واحداً بعد واحد .

وعادت إلى الشيخ صورة المعركة الطاحنة التى شهدها ، وصورة ذى نواس وهو يولى منهزماً عند شاطئ البحر ويخوض الماء بفرسه حتى يغرق فيه لكيلا يقع أسيراً فى يد عدوه المنتصر . أهؤلاء الذين يجتمعون فى البهو الكبير من قومه ؟ كان لا يعرف فيهم وجهاً واحداً . وهل جاء من واديه البعيد ليقف فى هذه الصفوف حتى يحضر أبرهة ؟ وأحس فى صدره قبضة من الحزن ووخزة من الذلة . هذا ما تنبأ به ذو نواس عند ما كان يتضرع إلى شيوخ القبائل ويسألهم أن يقفوا من ورائه ، كأنه كان ينطق بلسان الغيب . قال لهم عند ذلك واليأس يغالب الحنق فى صوته : « سوف تقفون أنتم أو من يبقى منكم بين يدى العدو تحنون له رؤوسكم خشوعاً كما يحنى العبد رأسه لسيده » . وهذا هو ذو نفر شيخ حمير وبقية ذلك الجيل المنقرض تحكم عليه الأقدار أن يبقى حتى يحقق

نبوءة الملك اليائس . هذا هو يقبل من أرضه البعيدة لكى يحنى رأسه إلى أبرهة . وهؤلاء الذين لا يعرف منهم أحداً قد جاءوا جميعاً لكى يجتمعوا وراء أبرهة ويحاربوا من أجله كما لم يجتمعوا وراء ذى نواس وكما لم يحاربوا من أجل أنفسهم . وحجبت بصره الكليل غلالة من دمعة مترددة فلم ير أمامه إلا أشباحاً مختلطة مضطربة وسمع منها صوتاً يناديه :

— مرحباً يا أبا الهيثم .

وعجب أن يعرفه أحد فى ذلك الجمع ، وكان يحسب أن الذين عرفوه قد ذهبوا ولم يبق منهم أحد يشاركه أسفه ؛ ومد بصره القاتم فرأى رجلا طوالا يمد إليه يده . وكان كهلا متين البناء أنيق الملبس وخط الشيب لحيته ولكن لمعات عينيه ونضرة وجهه أكسبته مظهر الشباب ، وكان فى منطقته خنجر له مقبض فضى يلمع بقطع من الجوهر ، وكان صوته عميقاً فى شىء من الغلظ عندما قال للشيخ .

— أما تعرف نفيل بن حبيب ؟

فقال الرجل فى صوت خافت : لا تعتب على بصرى يا أبا حبيب فما حسبت أن ألقاك هنا . ما حسبت أن ألقى هنا أحداً يعرفنى .

وأخذه نفيل فابتعد به إلى ناحية بين عمودين متقاربين من أعمدة البهو الأنيق . وقال وهو ينظر حوله :

— طال عهدك بالناس منذ فارقتهم يا أبا الهيثم .

فقال الشيخ : لم تطأ قدماى صنعاء منذ فارقتها .

وسكت حيناً ثم أضاف :

– كنت أظن أبا عاصم هنا .

فقال نفيل : الشيخ صفوان بن قيس ؟

وقلب بصره الحديد فى الجمع لحظة ثم قال :

– لا أظنه هنا .

فقال أبو الهيثم :

– كأننى أرى الناس من خلال ضبابة . وجوه لا أميز منها أحداً . هكذا نجتمع مرة أخرى يا نفيل .

وكان بعض الوافدين قد جاء فوقف قريباً منهما .

فقال نفيل : تعال يا أبا الهيثم إلى هناك . تعال يا ذا نفر .

وأخذ الشيخ من ذراعه إلى ركن أبعد من الزحمة وأضاف قائلا :

– أعرف أنك ما تزال تذكر أيامك الأولى ولا آمن أن يسمعك أحد هؤلاء .

فقال الشيخ فى حزن يتردد فيه الغضب :

– لم يبق لى ما أخشى عليه يا نفيل ؟ أما تعرف أين أبو عاصم ؟

فأجاب نفيل :

– ما هى إلا كلمات سمعتها . يقولون هو غاضب من أبرهة ، أو أبرهة غاضب عليه . ولكن من هذا ؟

والتفت فجأة إلى باب الإيوان وقال فى دمعة :

– هذا أبو عاصم .

وذهب نحوه مسرعاً حتى أتى به إلى الشيخ ، فتلقاه فاتحاً ذراعيه

قائلا : كاد نفيل يوئسنى من لقائك .

ومضت بعد التحية لحظة طويلة قبل أن يقول الشيخ أبو عاصم :

– وماذا أتى بك إلى هنا ياذا نفر ؟

فقال الشيخ باسما : أتت بى راحلتى .

ونظر فى وجهه لحظة أخرى ثم قال :

– وحق مناة لولا نفيل ما عرفتك يا أبا عاصم . أكنت تحسب أن نتلاقى يوماً ها هنا ؟ كيف حالك منذ تفارقنا ؟

وسمع نفيل صوتاً يناديه من بين جماعة أقبلت جديدة ، فذهب إليها وترك الشيخين وحدهما .

وقال أبو عاصم فى هدوء :

– الشمس تشرق فلا أكاد أراها وتغرب فلا أكاد أفتقد نورها . وآكل إذا حضر الطعام ولا أحس عطشاً عند ما أرفع الماء إلى فمى . لا أذكر شيئاً من أيام حياتى كأننى أعيش فى هباء . لا أذكر إلا الماضى البعيد كأنه لم يمض إلا منذ ساعة . ألا تذكر آخر يوم تلاقينا ؟

فقال ذو نفر :

– أكانت حقًّا عشرين عاماً ؟ ما أسرع ما تمضى السنوات يا أبا عاصم ونحن لا نكاد نحس مرورها .

فقال أبو عاصم : ألسنا نحس مرورها حقًّا ؟

فقال ذو نفر : بلى ؛ إنها على الأقل تذكرنا بمرورها إذا رأى أحدنا وجه صاحبه .

فقال الشيخ : نعم ، نحس التغير الذى نراه على وجوهنا . ونحسه فى ضعف حواسنا وأبداننا . كل شىء يزول حتى الجبال الراسية ، والبشر يذبلون كما تذبل النخيل المعمرة . وجوههم تتجعد كما تتجعد الثمرة الجافة ، ويتحول سوادهم إلى بياض وبياضهم إلى سواد . كل ذلك لا يزيد على حقيقة صغيرة وهى أننا من الفانين .

فقال ذو نفر : أهناك حقيقة أكبر ؟

فقال صفوان: نعم يا أبا الهيثم ، فإننا نتغير فى أعماقنا تغيراً آخر يدق عن إدراكنا حتى نقف عمداً لكى نتبينه بعقولنا لا بحواسنا . وقد نألفه وهو يدب فينا دبيب الفناء فى أعضائنا فلا نعرفه حتى يبدو لنا فجأة أو نطلع عليه فجأة كما أفعل اليوم .

وتلفت ذو نفر حوله قائلا : لا يبدو القصر كما عهدته ، ولا الناس كما عرفتهم . أو هكذا هم فى عينى .

فقال صفوان : لا يملك أحدنا إلا أن ينظر بعينيه . ولكن ليس هذا ما أقصد . هناك تغير آخر لا يتصل بما ترى . هناك تغير آخر يشمل العالم كله مستقلا عن أشخاصنا ، وهو يجرفنا معه رضينا أو كرهنا . أنحن اليوم نفكر كما كنا نفكر ونحكم على الأمور كما كنا نحكم ؟ هل يزن الناس شئون الحياة بالمعايير التى كنا نزنها بها ؟ أما زالت مثلنا باقية كما عرفناها نقيس بها الفضائل والرذائل ونميز بها الخير من الشر ؟

فقال ذو نفر : أنا رجل قضيت حياتى فى البادية ولا أستطيع أن أعرف من الأمور إلا ما يقع فى خاطرى . عرفتك يا أبا عاصم تطلب

العلم وتقرأ الكتاب ولست أعرف سوى إبلى وخيلى . ولكنى مع ذلك أعرف أننا نتغير . نتغير فى داخلنا كما نتغير فى خارجنا . فإذا عركنا الدهر وامتحنتنا تجاربه تعلمنا منه أن نكون أكثر حكمة .

فقال صفوان : أو أكثر تفاهة . قد تعلمنا التجارب أن نكون أكثر تهوراً أو أكثر جبناً . وقد تزيدنا بذلا أو تحملنا على مزيد من الحرص ، وقد تجعلنا نقدس الحق كما قد تجعلنا نخذله ابتغاء الراحة . قد تجعلنا الأيام أكثر حكمة كما قد تميل بنا إلى الإسفاف والتعسف .

فقال ذو نفر : إنها طبائعنا . الحنظل يزداد مرارة إذا نضج والشوك يزداد حدة وشدة ، ولكن الثمرة الطيبة تحلو .

فقال صفوان : لست أدرى كيف أبين لك ما أعنيه بقولى ، فإنى أحسه فى نفسى غامضاً لا أستطيع أن أجد له لفظاً . أو لعلى أكون أصدق إذا قلت إن هذا الذى أحسه وأحاول أن أصفه لم يثر فى نفسى إلا منذ لحظات عند ما وقع نظرى على هذا الجمع يا ذا نفر . هؤلاء جميعاً جاءوا لتحية أبرهة . مررت من باب القصر إلى هنا بين جموع لم أر مثلها يجتمع للملك من بيت تبع . فوا أسفا على ما سمعت فى هذه الخطوات ؛ لقد دفعنى الفضول إلى أن أبطئ فى سيرى لأتسمع ما يقولون — فوا أسفا ! لقد طرأ على الناس تبدل شامل جرفهم جميعاً حتى لقد سألت نفسى ألم أنجرف معهم ؟ كل ما سمعت منهم ثقيل على أذنى كريه إلى قلبى ، وسرت أتسلل من بينهم مثل غريب فى مدينة لا يعرف لسانها . كنت فى شبابى أكره أشياء كثيرة فى أهل جيلى ولكنى لا أستطيع أن أصف لك

ما وقع فى نفسى عند ما سمعت هذه الأحاديث . وأحسست فى قلبى وحشة الطريد الذى يجد نفسه وحده فى فلاة . هو تبدل جرف الجيل كله إلى حيث لا ندرى .

فقال ذو نفر : أصداء بعيدة يا صديقى . ما عرفت أنك رضيت عن الناس قط .

فقال صفوان : لست أراجعك فى قولك يا أبا الهيثم . عرفت نفسى ولم تخف عنى عيوبى . كنت كما تقول لا أرضى عن كثير مما أرى ، ولا يرضى كثير من الناس عنى . كنت أرى قومى يتطاحنون على الصغائر ويتنافسون على التوافه ولا ينظرون إلا إلى ما تحت أقدامهم . ولكنى كنت أعرف الذين لا أرضى عنهم وأعرف ماذا أنكر منهم . كنت أخالفهم أو يخالفوننى ولكنا كنا نختلف ومقاييسنا واحدة نقيس بها الأمور . وأما اليوم فقد رأيت الناس ينظرون إلى الأمور نظرة أخرى ولهم مقاييس مبتدعة يقيسون بها قيم الأشياء . بل لقد وقع فى روعى أنهم أصبحوا يخفون ما فى قرارة نفوسهم ويتبعون طريقاً رسمت لهم ، لا يجرؤون أن يتحولوا عنها . إنهم لا ينطقون بما فى نفوسهم بل يتحاورون فى أقوال لقنت لهم . أظننى لم أزدك بإيضاحى إلا غموضاً وإبهاماً .

فتبسم ذو نفر قائلا :

ألا نكون نحن الذين وقف الزمان بهم وهو يعدو بهؤلاء جامحاً .

فقال صفوان هادئاً :

قد يكون ذلك يا أبا الهيثم ، إنك ما زلت أنفذ منى بصيرة وأفسح

صدراً . أنت تستلهم الحقائق من كون أوسع من عالمى وأكثر صراحة .
وقال وكأنه يحدث نفسه :

« وقف الزمان بنا وهو يعدو بهؤلاء » .

فقال ذو نفر : عفواً يا أبا الهيثم فإنى لم أقف يوماً لأفكر فى مثل هذا الذى تقوله لى . وكأننى أحياناً أدرك طرفاً مما تصفه لى . حقًّا إن الناس يستحسنون اليوم غير ما كنا نستحسن وينكرون غير ما كنا ننكر . هم يرضون ويسخطون أو يقبلون وينصرفون ويحرمون أو يبيحون غير ما كانوا يفعلون من قبل . وقد صدقت فى قولك إن ذلك التغير يجرفنا جميعاً . وإلا فلم جئنا إلى هنا .

وكان فى صوته رنين الحزن . ثم مضى قائلا :

— سمعت أنك غاضب يا أبا عاصم .

فقال صفوان : لم أغضب على أحد بمقدار غضبى على نفسى . لم أغضب من أبرهة لأننى عرفته هكذا منذ رأيته . يبذل كل شىء ويلين فى القول حتى يطمئن ثم لا يبالى بعد ذلك شيئاً . فإذا احتاج إليك مرة أخرى تملق كبرياءك حتى ينال منك ما يريد . أما نحن . أما أنا . فإنى أذللت نفسى ورضيت أن أحضر مجالسه وأن أسمع من حوله يتحدثون عمن أعرفهم وأحمل لهم أطيب الذكرى ، ويصفونهم بما أنكر ويقلبون الحقائق فإذا النبل على لسانهم دناءة . وإذا الكرم لؤم . ثم رضيت آخر الأمر أن أجىء اليوم من دارى البعيدة لأنحنى لأبرهة مع الذين جاءوا للانحناء . . .

فقال ذو نفر فى مرارة : ونذهب إلى القليس ؟

فقال أبو عاصم : نعم سنذهب لنصلى من أجل انتصاره على قريش كما لم نصل من أجل انتصار ذى نواس ، سنذهب إلى القليس .

وأقبل نفيل فقال فى مرح نعم إلى القليس لنرى بدعة الفن الخالص ، قطعة من المرمر والذهب يكاد من يراها يقول ما هو بناء البشر .

فقال ذو نفر : لن أذهب يا أبا عاصم .

فقال نفيل هامساً : لا تعل صوتك هكذا يا أبا الهيثم .

فالتفت الشيخ إلى نفيل فى شىء من الغضب وقال :

— أعرفت المسيح يا نفيل ؟

فقال نفيل : لست أبالى أين أذهب ، فإنى أنظر إلى من أصلى معه . وكان فى صوته سخرية . ثم مضى قائلا :

— لست أبالى أن أذهب إلى القليس أو إلى بيت مناة ما دمت فى صحبة ملك .

ثم همس ضاحكاً :

— إنها تجارة يا أبا الهيثم ، هم يتجرون مع من يشترى منهم وأنا أتجر مع من يشترى منى . هذا هو أبرهة يقبل والجموع تتحرك .

واهتزت الصفوف المتراصة تتدافع عند ما ظهر أبرهة فى حلقة حراسه ، وكان يسير بجسمه الضخم القصير كأنه يتدحرج . وجلس على العرش فى صدر الإيوان فخشعت الأصوات وشخصت إليه الأبصار .

وهمس نفيل قائلا : لقد تعلم أن يكون ملكاً .

وبدأ الناس يتقدمون إليه ودبت الحركة فى البهو وتعالت همهمة الأصوات فقال ذو نفر ساخراً :

ـ إنها تجارة حقًّا .

فقال نفيل : لست أبالى يا أبا الهيثم سخريتك ، فقد طالما تجادلنا فى أيام الشباب وكنت تضيق بى وتشتد فى اومى . كنت لا تحب سخريتى ممن يعبدون الصنم الأصم ويمسحون جباههم بأقدامه، ولكننى اليوم لا أسخر من شىء بل أقول ما تعلمت من الأيام صريحاً ، كل يعبد إلهه . كل يخلقُ إلهه .

فقال ذو نفر فى حنق : إله تخلقه أنت ؟

فقال نفيل باسماً : لا تغضب يا صديقى فلست أقصد أن أثيرك . كل منا يصور لنفسه إلهه كما يشتهى . كل منا يقصد من إلهه شيئاً ويتعبد له من أجله . فإذا لم يجد عنده ما أراد خلق له إلهاً سواه . انظر إلى أعماق نفسك وقل لى صادقاً ، هل ترانى أقول غير الحقيقة .

فقال ذو نفر فى حنق : أتسمع يا أبا عاصم ؟

فنظر نفيل إليه باسماً وقال :

ـ سيروا فالصفوف تتقدم .

ولم ينتظر جواباً بل سار حتى دخل بين الناس يرفع رأسه فوقهم متطلعاً نحو صدر الإيوان ولا ينظر من يدفع فى سبيله .

ووقف ذو نفر إلى جنب صاحبه فى سكون واضعاً كفيه فوق عصاه الطويلة، متكئاً عليهما بذقنه حيناً، ثم رفع رأسه وتنفس نفساً طويلا وقال :

— هلم نسر وراء الجمع يا أبا عاصم .

وتقدما حتى بلغا أطراف الجمع وبلغت آذانهما أصوات الوفود وهى تلقى تحيتها ، وكان صوت أبرهة يجيب عليها بكلمات قصيرة ، وضحكته العالية ، ترن بين الجدران كأنها صيحة أحد السباع فى ليلة ساكنة .

وأخذت الصفوف تمر بين يدى أبرهة والحراس وقوف من حوله ، نحاف الأجسام ، طوال القامة ، حفاة الأقدام ، عراة الرؤوس ، لهم شعور شعثاء تزينها حلى من ريش الطيور الملونة ، وكانت نظراتهم تلمع عابسة مثل أسنة الحراب الطويلة التى فى أيديهم . وكان القواد يلبسون جلود فهود تتدلى من أكتافهم إلى ركبهم ، ونعالا من جلود الوعول وأساور من الفضة فى معاصمهم وسواعدهم . وكان أبرهة فى حلة حمراء موشاة بالذهب ، وعلى رأسه تاج تزينه الجواهر وفى وسط جبهته ياقوته حمراء تأتلق ، ووجهه الضخم يتردد بين السماحة إذا تبسم وبين القسوة الصارمة إذا تهجم . فإذا انبسط وجهه وانفرجت أساريره ظهر عليه أثر جرح غائر يعترضه من أعلى عينه اليسرى إلى جانب خده الأيمن ، يعلن للأبصار أنه أبرهة المقاتل الذى يقف فى وجوه المعارك ويتلقى ضربات السيوف .

وسارت بقية الصفوف بين يديه لا يكاد يستوقف منها أحداً إلا ريثما يرد على تحيته بكلمة قد تكون ضاحكة راضية وقد تكون عابثة ساخرة ، ولكن وجهه كان فى كل أحواله ينطق قائلا : « إننى أجيب على ألفاظ بمثلها » . وكان دونفر لا يخفى تململه كلما سمع أقوال الوفود ، ويميل على صاحبه هامساً : « لشد ما تغير الناس حقا » . وتقدم شيخ من أهل صنعاء

يأتى أمام الملك قصيدة من الشعر يظهر فيها مودة أهل المدينة وعرفانهم لما شملهم به أبرهة من العدل بعد طول عهد المظالم ، ومن الرحمة بعد أن كادت القسوة تقضى عليهم .

فقال ذو نفر فى دفعة : أتسمع ما يقول هذا ؟

فأخذ الشيخ بذراعه وتقدم إلى الأمام صامتاً ، وكان الإيوان قد خلا إلا منهما ، فأقبلا على أبرهة فصاح قائلا :

ــ كنت أفحص الوجوه عنك يا أبا الهيثم . جئت تقدم رجلا وتؤخر أخرى .

فقال ذو نفر مبادراً :

ــ أبيت اللعن أيها الملك .

فضحك أبرهة ضحكته المزغردة وقال :

ــ لم تنس بعد تحيتك القديمة يا أبا الهيثم ؟

وكانت عيناه تلمعان لمعة غريبة عند ما اتجه نحو أبى عاصم قائلا:

ــ أحسنت يا أبا عاصم إذ جئت مع الشيخ ، فقد بلغنى أنك غاضب علينا .

وكان ذلك اللقاء مفاجأة للرجلين ، وقال ذو نفر فى دفعة :

ــ لم أتعلم بعد تحية خيراً منها أيها الملك .

فقال أبرهة ساخراً :

ــ أبعث إليك من يعلمك غيرها ؟

وأحس أبو عاصم فى نفسه حرجاً شديداً ولكن الألفاظ غابت عنه

فلم يدر كيف يقول . واعتدل ذو نفر فى وقفته يتكئ بكفيه على عصاه مواجهاً لأبرهة وقال هادئاً :

ـ هيهات أيها الملك فإنى كما ترى شيخ كبير .

فقال أبرهة فى حدة :

ـ لا يستعصى أحد على التعلم أيها الشيخ . بل قل إنك ما زلت تتعلق بأذيال الماضى وتخيل إلى نفسك أوهاماً تملأ بها شدقيك إذا خلوت إلى من تسميهم قومك . أتحسب أن أقوالك لا تبلغ سمعى ؟ ألست تقول لقومك إنكم كنتم الملوك ؟

فقال ذو نفر : ما تعودت أن أنطق إلا لكى يسمع عنى . سلنى أيها الملك أجبك صريحاً فهذا أجدر أن تسمع ما أقول صحيحاً . وهل أملك أن أنزع نفسى من ذلك الماضى ؟ وهل بقى لى من الغد ما أعلل به نفسى ؟

فقال أبرهة فى غضب :

ـ ما ذلك الماضى الذى ما تزال به مفتوناً ؟ أتخشى على شبان حمير أن ينسوا أنهم كانوا من قبل ملوكاً ؟ أنا وحدى الذى أنزع نفسى من الماضى وأنسى عداوتى وحقدى وكراهتى . أنا وحدى الذى أتسامح وأغضى عينى على القذى . أتسمع ما يقول يا صفوان بن قيس ؟

فقال الشيخ صفوان : عفواً أيها الملك فقد عرفنا حلمك وحكمتك . وما جاء ذو نفر إلا مظهراً للولاء .

فقال أبرهة فى دفعة سريعة : أتنطق عن الشيخ ؟ أما تدعه يتحدث

عن نفسه وتقنع بأن تتحدث عن نفسك ؟ إنك أنت كذلك لا تستطيع أن تنزع نفسك من ذلك الماضى ، وتقول مثله إنك من حمير أصحاب الملك . أليس هذا ما تقوله صباح مساء فى دروس الصبية ؟

ووقعت الكلمة على الشيخ كأنها وخزة . دروس الصبية ؟ أما يزيد فى نظر أبرهة على هذا ؟ وسكت أبرهة لحظة قصيرة ثم استأنف قوله وكان صوته أهدأ وفيه رنين أسى :

– كنت أحسب أننى أكسب بالحلم أصدقاء وأمحو أثر العداوة الأولى . كنت أحسب أننى إذا قربت الذين حاربونى اقتربوا منى ، وإذا أسوت جراحهم وحقنت دماءهم قضوا سائر حياتهم يعرفون الدين الذى لى فى أعناقهم . ولكنى وجدت آخر الأمر أنى أنا وحدى الذى نسيت العداوة .

فرفع صفوان رأسه وقال :

– لست أنسى أيها الملك أنك أسوت جراحى عندما حملت من المعركة ؛ ولست أنكر أنك رحمتنى وحقنت دمى حين لم أنتظر منك العفو . كنت أعرف أننى عدو ولا أحزن لو لقيت مصير العدو المنهزم . ولكن هذا ما كان منك وقد مضى عليه حين طويل لقيت فى أثنائه من برك ما جعلنى أحس ثقل دينى . وقد حاولت أن أرد لك بعض دينى بأن أكون معلماً للصبية كما قلت . وحسبت أنك تقدر ذلك وتجد فيه دليلا على شكرى . فإذا كنت لا تحب إلا أن تتقاضى دينك دماً فهلم أيها الملك فلست به ضنيناً .

فقال أبرهة فى نغمة اعتذار : لم أقصد كل هذا يا أبا عاصم .

ولكنى أخشى الفتنة . لم أعبأ بهذه الأقوال التى كانت تبلغنى عنك فإنما هى علالات خيال لا تنال منى شيئاً . ولكنى اليوم مقبل على قتال .

والتفت إلى ذى نفر قائلا : سأذهب إلى حرب قريش فماذا أعددت للسير معى ؟

فأطرق ذو نفر حيناً ثم قال : سأجمع قومى أيها الملك كما ينبغى لى .

فقال أبرهة فى دفعة : كلمة داهية ؛ لم أنس بعد كلماتك التى تشبه سجع الكهان يا ذا نفر . ولكنا سنتحدث فى هذا إذا عدنا من الصلاة . لا تتخلفا عن مجلسى وكونا قريبين منى لنتم حديثنا .

ورفع يده فانصرف الشيخان وفى قلب كل منهما زوبعة حتى صارا فى الفناء فوقفا حيناً فى صمت وجهاً لوجه ، ثم قال ذو نفر :

ـ ماذا قلت يا أبا عاصم وماذا قال لى ؟

فقال صفوان فلنشرب الكأس حتى الثمالة . فلنشربها لأننا عصرناها بأيدينا .

فقال ذو نفر : وحق مناة ما حسبت الطريق تنتهى بى هنا . سأجمع قومى كما قلت حقاً . وسيعلم أنها كلمة داهية .

فقال صفوان : أما علمتك التجربة ؟

فقال ذو نفر قد تجعلنا التجربة أكثر تهوراً . أليس هذا ما قلت ؟

وسار يتوكأ على عصاه حتى غاب بين الجموع الزاخرة التى كانت تملأ الفناء ، ووقف أبو عاصم وحده متردداً يحس كأن قدميه لا تقويان

على الحركة . وأحس كأن العيون تشخص إليه ساخرة وتتساءل إلى أين يمضى . سيذهب ذو نفر إلى بنيه وحفدته وبنى أعمامه وبنى إخوته ليقفوا معاً . سيقول لأبرهة هؤلاء قومى . وأما هو فأين يتجه ؟ إلى داره المحطمة فى حقل صنعاء ؟ وغمره شعور من العجز والذلة مع العرق البارد الذى دب على أعضائه . وتمنى لو كانت جراحه التى أصابته فى المعركة القديمة قد نزفت دمه ولم يعش بعدها يوماً .

ليت أبرهة قضى على حياته كما قضى على إخوته وبنى عمومته الذين استماتوا فى الدفاع إلى جنبه . أهكذا جرفه التيار معه فلم يفطن إلى الغمرة التى قذفه التيار إليها إلا بعد أن أوغل فيها وصار لا يستطيع انفلاتاً ؟ أهكذا يقتلعُ أبرهة ريشه واحدة بعد واحدة حتى إذا اطمأن إلى أنه يعجز عن الطير يركله بقدمه مطمئنًّا ؟ أما من أمل؟ أما من غاية ؟ أما من نهاية ؟ وتنبه على صوت نفيل فنظر إلى وجهه وكأنه لم يره منذ ساعة كانت عيناه محمرتين تقدحان غضباً وكان وجهه المحتقن يشع ثورة . وقال الشيخ فى فتور : نفيل ؟

فقال نفيل فى صوت أجش نعم أنا ، فسمنى كما شئت تعال بنا نعتزل عن هؤلاء . أعرفت كيف لقينى أبرهة ؟ أسمعت ضحكته وهو يقول لى: « أما تعرف لك سيداً ؟ » ثم قال لى: « امسح لحيتك أمامى كما كنت تمسحها فى نادى قومك وأعد ما قلت على ملأ منهم » . نعم سوف أمسح لحيتى أمامه وأقول لست أعرف سيداً .

وسار يحدث الشيخ فى صوت مختنق يعيد عليه ما قاله أبرهة عند

ما تقدم إليه ليؤدى تحيته وكان الشيخ يستمع إليه وتزيد نفسه كآبة . فهذا الرجل يثب على بقايا المعركة ويأخذهم واحداً بعد واحد .
ومروا فى سيرهم بحلقة صاخبة يمتزج الجد فيها بالفكاهة وكان فيها جمع مختلط من الحبشة ومن وجوه صنعاء وأشراف القبائل يتحدثون ثلاثَ أو رباعَ

فقال نفيل فى مرارة : أليس هذا قيس بن خزاعى وهذا حناطة الحميرى ؟ كانا منذ قليل يلعقان قدميه وها هما ذان يأخذان أجرهما . أما عرفت أنه وعد ابن خزاعى بملك مكة ؟

فقال صفوان فى ضجر قصة معادة يا نفيل .

فقال نفيل فى حدة نعم قصة معادة . لست أحب أن أتستر ولا أن ألتمس العذر لنفسى . نعم قصة معادة تذكرنى بها يا أبا عاصم . تجارة يبيع فيها كل امرئ ما عنده . كانت لى عنده تجارة وقبضت ثمنها ثم انقطع ما بيننا . أتسمعنى ؟ ولكن قيس بن خزاعى لن يبلغ ملكاً . أقول لك لن يبلغ ملكاً . إنما هى أمنية كاذبة يخدعه الرجل بها ولن يلقى إلا مثل السهم الذى أصاب أخاه من قبله . لن يقبض سوى الثمن الذى قبضه أخوه محمد بن خزاعى .

وكان فى حنقه ينفلت من حرصه المعتاد فيعلو صوته بين حين وحين والشيخ مطرق إلى جنبه كأنه لا يسمع .

ومضت الحلقة الصاخبة فى حديثها فقال حناطة الحميرى يخاطب عدوة الحبشى : مالى أراك واجماً يا عدوة ؟

فقال الشيخ الحبشى أرأيت هذين ؟

وأشار إلى صفوان ونفيل وهما يتباعدان .

فقال أنيس كبير سواس الفيلة وما يعنيك منهما يا عدوة ؟

فقال الرجل وجهاهما ينطقان شرًّا . وهذا الشيخ الذى كان أبرهة يدخله إلى القصر . أما رأيت وجهه ؟

فقال أنيس ضاحكاً : لقد أصبحت كاهناً .

فقال عدوة : الحمقى لا يعرفون إلا السخرية .

فقال حناطة : صدق عدوة . أما سمعت أنفيهما ؟

فأجاب عدوة وسط ضحك الجماعة دع الحديث فى هذا يا حناطة فإنه عن الرجال .

فقال حناطة : أتغضب أن أقول لك صدقت ؟ كان أولى بك أن تكافئنى بحديث عن امرأة .

وعادت ضحكة أخرى عالية .

فقال أنيس : وما للكهنة والنساء ؟

فقال عدوة : وأنت يا سائس الفيلة ؟

فقال قيس بن خزاعى : لا تغضب من هؤلاء يا عدوة . سيعرفون حقك غداً إذا نشب القتال .

فقال حناطة : أراك تستعجل تاج الحجاز .

وقال أنيس عدنى أن تبنى لى عندك قصراً يا ملك قريش .

فقال عدوة قصراً عالياً فى الهواء .

فصاح قيس : كهانة أخرى ؟ متى تمطر السماء يا عدوة ؟

فقال عدوة متى سمعت رعدها ورأيت برقها .

وظهر أبرهة عند ذلك من باب الإيوان فقال حناطة يخاطب ابن خزاعى : أسرع أيها الملك إلى زميلك .

وعلت ضحكة أخرى فقال ابن خزاعى فى ضجر

ـ اسكتو أيها الحمقى ؟

وأقبل أبرهة فى حلقة حراسه وسارت من ورائه حاشيته وأمراء جنده، وكان وجهه يفيض بشراً عند ما وقع بصره على الجموع الزاخرة . وكان يسايره شيخ من قواد الحبشة يميل عليه أبرهة بين حين وحين كأنه يسر إليه حديثاً ، وهو بين حين وآخر يضحك ضحكته المزغردة التى تفيض سخرية . وخشعت ضجة الأصوات وثبت كل جمع فى مكانه . ولما اقترب الملك من حلقة عدوة التفت إليه قائلا :

ـ كيف أصبحت يا عدوة ؟

فقال عدوة كما كنت دائماً يا مولاى . وليًّا مخلصاً .

فقال أبرهة هذا عهدى بك دائماً . وما لهؤلاء الشبان يخفون ابتساماتهم ؟ أكانوا يعابثونك ؟ قل كلمة وسأوقع بهم العقوبة جميعاً .

ونظر إلى حناطة قائلا : وأنت يا حناطة . كم بلغ عدد نسائك ؟ ثم رنت ضحكته وسار بغير أن ينظر وراءه . والتفت إلى الشيخ الحبشى الذى كان يسايره وقال له فى صوت هامس :

ـ أتظن بى البله يابن مقصود ؟ تحسبنى كما يقول أصحابك الذين

تحلو لهم الثرثرة ؟ أتحسب أنى لا أعرف هؤلاء فرداً فرداً وأعلم ! ما تنطوى عليه نفوسهم ؟ قيس بن خزاعى ؟ ذلك الشاب المفتون ؟ أتحسب حقاً أننى أجعله ملك الحجاز ؟

فقال الأسود بن مقصود إنى أفضى إليك يا مولاى بما يتردد على الألسنة .

هؤلاء الذين تأمن إليهم من العرب لا يريدون إلا شيئاً واحداً .

فقاطعه أبرهة قائلا : قطعة من غنيمة . تجارة لها ثمن . خديعة يدارون بها الخوف . أعرف هذا كله قبل أن ينطق به غيرى . أعرف أنهم لا يبالون شيئاً سوى أن ينالوا مآربهم . ولو وجدوا فرصة لانقضوا على يضربون فى ظهرى . أليس هذا ما تريد أن تقول ؟

فقال الأسود : هذا ما أردت حقاً .

فقال أبرهة تقولون إننى نسيت عداوتى وأقفلت عينى وخدعنى هؤلاء العرب عن نفسى . ألا فاعلم أنت وغيرك ممن يظنون بى السخف والبله أنكم أنتم البلهاء . رأيت العرب يبيعون لى مكراً فاشتريته بمكر مثله ، ويبيعون لى عداوة فاشتريتها بقطعة صغيرة من الحلوى فهم يظنون أنهم يخدعوننى ، فأدعهم يخدعون أنفسهم . اذهب يابن مقصود فقل لأصحابك الذين يتحدثون عنى إننى أسمع أقوالهم وإن كانت همساً

وكان قد بلغ قريباً من الباب فالتفت إلى الوراء نحو باب القصر مما يلى جناح الملكة ، وكانت جماعة عدوة تسير من ورائه منذ مر بها

فوقع بصره على حناطة الحميرى فقال له

ـ أأعددت سلاحك ودروعك ؟ ستجد فى مكة حسناوات من قريش يا حناطة . ألست بهن مفتوناً أيها الخبيث ؟ سوف أهدى إليك أبرعهن حسناً .

ـ وكان عدوة واقفاً وراء حناطة يسمو بقامته فوق الرؤوس وشعره الجعد يكلل رأسه وقد امتزج سواده بالبياض .

فقال له أبرهة

ـ كبرنا يا عدوة . كأنى أرى نفسى على وجهك أيها الصديق . ولكنا سنحارب مرة أخرى .

فأغضى الرجل متأثراً، ولكنه أحس فى صدره قولا يريد أن ينطق به ولا يجرؤ .

وعلت أصوات الطبول وصاحت كتيبة الجنود المصطفة عند الباب بتحية تشبه صيحات الحرب فى جبال الحبشة وأقبل قائدها يكسوم بن أبرهة ، فانحنى بما يشبه السجود وتبسم له أبوه بسمة ضئيلة ، ثم أسرع فالتفت إلى ورائه مرة أخرى نحو باب القصر ، وتهلل وجهه قائلا :

ـ ها هى ذى الملكة .

وأقبلت ريحانة تسير بين الصفوف المنفرجة ، وكانت فى حلة زرقاء موشاة بالذهب وعليها حلية مجوهرة ، وسارت رافعة الرأس لا تلتفت إلى أحد . وكانت بسباسة إلى يسارها تزينها حلية ثقيلة من الذهب والجوهر ،

ولكن شعاع الحسن كان يتنفس عن يسارها من قبل خيلاء . وتقدم يكسوم فساق الفيل الذى يحمل هودج الملكة حتى اقترب منها فأسلم القياد للسائس وهو يخالس النظر إلى أبيه . وكان وجه أبرهة يشرق بابتسامة وهو يأخذ بيد ريحانة ليساعدها على الصعود فى السلم المغطى بالقطيفة الحمراء حتى اعتلت الهودج .

وهمس حناطة لأنيس قائلا :

ـ ما تزال العجوز حسناء .

فشد أنيس على ذراعه هامساً

ـ اصمت أيها الخبيث . أتقول إنها عجوز ؟

وتقدمت بسباسة وخيلاء نحو هودجهما فقال حناطة :

ـ ألا ترى الربيع إن كنت ترى ؟ هذه هى الظبية العربية .

فقال أنيس أيها الثرثار لا تقل عربية ولا حبشية .

فقال حناطة صدقت يا سائس الفيلة . لست أبالى من أى قوم تكون الحسناء .

وجاء يكسوم فاقترب من خيلاء يريد أن يساعدها وقال لها هامساً

ـ عمت صباحاً يا خيلاء .

فتمتمت ردًا وأسرعت تركب وراء بسباسة قبل أن تمتد إليها يده ، وانفلتت من يكسوم نظرة حانقة نحوها .

فغمز حناطة ذراع أنيس هامساً :

ـ هى ظبية عربية برغم أنفك .

فقال أنيس : دعنى لفيلتى .

وأسرع ليأخذ مكانه فى الموكب .

وتلفتت خيلاء من وراء أستار الهودج تقلب بصرها فى الوجوه ولكنه لم يكن هنا . لم يكن سيف هناك وراءها ـ كما تمنت ـ على فرسه الأبيض ينظر نحو هودجها .

وتزاحم أهل صنعاء على جانبى الطريق يحيون الملك الحبشى الذى أنساهم أنه الأجنبى المنتصر . وكان أبرهة يتلفت مبتسماً إلى الجموع المحتشدة ويرفع يمينه بالتحية رداً على دعائها كما كان قيصر يفعل إذا حيا جموع القسطنطينية ولما بلغ الموكب رحبة الكنيسة ووقع بصره على مدخلها الرائع وزخرفها البديع جذب عنان فرسه ووقف حيناً يتأمل بابها المرصع بالياقوت والذهب وقبابها التى تبرق بغشائها الذهبى فى ضوء الشمس .

ونظر إلى من حوله من قواده وجعل يحدثهم عن محاسن البناء الذى سيخلد اسمه على آباد الدهر .

ولم يفارقه مرحه عند ما استقبله الجاثليق والقسوس ورفعوا أصواتهم بالترتيل وهم يسيرون إلى صحن الكنيسة . فكان يداعب القس الأكبر بلغة رومية ينطق بها فى عسر وبطء، ويضحك بعد كل كلمة ينطق بها . وسار إلى جنب الملكة بين الجدران المرمرية وعطر المسك يفوح منها حتى بلغ باب المحراب وهو يتمايل بجسمه الضخم فى زهو . ونظر إليها قائلا :

ـ هذا يوم من أسعد أيامى يا مليكتى . أحس السلام يملأ قلبى ، وأكاد أحب أعدائى ليت قومك كانوا فى هذا اليوم معى .

فوجمت الملكة ونظرت إليه نظرة سريعة وقالت فى جفاء :

ـ ما أشد وحشتى إليهم ومن بعدهم .

وجلست عابسة صامتة فلم تجب أبرهة بعد ذلك على أحاديثه التى كان يتدفق فيها . ولما تمت الصلاة وتلقى أبرهة ومن معه بركة القس الأكبر عاد الموكب إلى القصر ، فما كادت ريحانة تبلغه حتى أسرعت إلى جناحها وانتبذت فى شرفتها تسند رأسها إلى يدها وتتأمل الأفق البعيد ساهمة .

وشغل أبرهة بضيوفه وكان قد أعد لهم سماطاً عظيماً لطعام الغداء، وكان يتفقد ذانفر ونفيل بن حبيب وصفوان بن قيس فلم يرهم بين الوفود ، وأحس لذلك قلقاً مبهماً . وكان فى أثناء طعامه يستعيد صورهم ويردد أصداء أحاديثهم فى شىء من الحنق .

٤

قال الراوى :

وكان الخريف يخلع على المروج الخضراء بقية روائه كأنه الشباب المدبر إذ يبالغ فى الزينة متعلقاً بالحياة . ولكن ريحانة لم تر شيئاً

من الجمال فى كل ما وقعت عليه عينها وهى جالسة فى شرفتها . كانت الوحشة الكامنة فى صدرها تصور لها القصر الفخم كأنه سجن مظلم ، تذكرها جدرانه بأنها ريحانة الأسيرة التى فقدت قومها وعزها يوم دخلته . وكانت البساتين اليانعة التى تمتد تحت بصرها تلوح فى رونقها كأنها عدوة حسناء تسخر من شقائها ، وكلما هبت نسمات الجنوب على أفنان الشجر أو لمعت أشعة الشمس على رؤوس جبلى نقم وعيبان أو امتدت الظلال توشى ساحة صنعاء المزدهرة ، زاد شعورها بوحدتها وقسوة الأمس واليوم والغد عليها كانت كل المحاسن التى حولها لا تحمل بهجة إلى قلبها وهو مغلق يسبح فى ذكريات قديمة حزينة مرت بها منذ عشرين عاماً . وتمنت لو كانت تعيش فى كوخ وضيع ينزوى فى ركن بعيد من شاطئ قفر أو فى خص مهلهل فى جانب واد من أودية سراة حمير تقضى فيه حياتها سعيدة مع من اختاره قلبها فى شبابها ، إذن لكانت الزهرة الخجول التى تنبت فى شق من الصخر أحلى منظراً وأعطر أريجاً من كل أزهار البساتين اليانعة فى غمدان ، ولكانت قطعة العشب الضئيلة المصوحة التى تحف بجوانب بئر عميقة من ماء أجاج فى بطن واد أجرد أحب من كل المروج الريا الفسيحة التى تكسو ربى الساحة .

وما صنعاء وما ساحتها وما البساتين والمروج ؟ لم تكن كلها سوى زخارف سجن سلبها حريتها وذهب بكرامتها ولم يعطها بدلا منها سوى تحف وآنية وأثاث ورياش وطعام مترف وفراش منعم . ماذا أعطاها

غمدان غير تلك العروض الرخيصة التى لم تهب لها السعادة فى يوم من الأيام ؟ وتذكرت حياتها الأولى البعيدة التى مضى عليها أكثر من عشرين عاماً .

ما كان أقصرها من الحياة ! ولكنها كانت ما تزال ماثلة فى ذهنها واضحة حية نابضة . مرت بها ولم تخلف لها سوى ما تبعثه الذكرى من قلق وألم وحسرة على حب مفقود . تذكرت زوجها الأول أبا مرة ذا يزن الذى لم تعرف الحب إلا منه وله ، وتذكرت الأشهر القليلة التى لم تزد على عامين وإن كانت عندها أثمن ما فى حياتها . لقد تمتعت فى تلك الأشهر القليلة بالحياة معه – مع أبى مرة الفارس النبيل – وكان منزلهما على ضفاف وادى ضهر قريباً من قصر أبيها ذى جدن . ما كان أقصرها من أشهر مرت كما تمضى ليلة الصيف المقمرة، وأثمرت ثمرتها الفريدة فولدت ولدها الأول والأحب . وكانت تحسب أن الحياة تبتسم وأن الدنيا تغنى أغنية السعادة ، وأن ذلك الوليد سوف ينمو ويحبو ويشب فى رحاب أبيه ليقر عينيهما فى شيخوختهما ويرث السيادة المنحدرة إليه من جديه . ولكن وا أسفا ! فإن أبا مرة خرج يوماً إلى حرب الأعداء ولم يعد إليها . خرج إلى حرب هؤلاء الأحباش يقودهم أبرهة وما كانت تحسب عند ذلك أنهم يصيرون سادة الأرض أو أنه سيأتى عليها يوم تكون فيه . . .

وأغمضت عينيها عند ما تمثلت لها صورة أبرهة .

كانت آخر كلمة سمعتها من أبى مرة أن قال لها : « قبلى طفلنا كل

ليلة وانظرى إلى نجم الشعري ، فإنى سأرقب طلوعه لأنظر إليه ، فتتلاقى نظراتنا هناك وأعلم أنك تقبلين ولدى . وأرجو أن يكون لقاؤنا قريباً » . ثم قبل الطفل الذى كانت تحمله بين ذراعيها ونظر إلى وجهها باسماً ولكنه لم يقبلها . لقد آلى ألا يشرب خمراً ولا يقرب امرأته حتى ينتصر على عدوه . وأسرع يبتعد عنها كأنه ينزع قدميه من موطئهما ، ووقفت تنظر إليه وصورته تسبح من وراء عينيها الدامعتين ثم غاب وراء ثنية الوادى وغاب آخر فارس من الذين كانوا يركبون وراءه .

كانت تقف فى الأصباح والأماسى فى شرفة قصر أبيها الذي انتقلت إليه لعلها تجد مع أهله أنساً . وكانت ترقب الأفق تنتظر عودة فارسها المنتصر . وكم خفق فؤادها كلما لاح لها شبح فارس من ثنية الوادى ولكنها كانت فى كل مرة ترد بصرها خائبة حزينة .

وطلع عليها آخر الأمر فارس ومن ورائه ركب، وجاءوا يقصدون نحو القصر ، ولكنه لم يكن أبا مرة . وتأملت أشخاصهم فى قلق ولهفة حتى نزلوا ثم صرخت فى يأس . كانوا ركباً من الأعداء الذين خرج أبو مرة إلى حربهم ، سود الوجوه شعث الشعور فى أيديهم حراب طويلة . وجاءوا إليها بعد حين يحملون إليها أمر أبرهة أن تسير إلى صنعاء . وتلفتت حولها ترجو أن ترى نصيراً ولكن لم يكن هناك قومها . لم يكن هناك سوى شيوخ من الأتباع وعجائز أو صبية من الأهل، لأن الرجال جميعاً خرجوا مع أبى مرة . وصاح الجنود فى

وحشية ينادونها باسمها . أما كان خيراً لها لو ألقت بنفسها من الشرفة فتدهدهت على حافة الوادى الصخرية ؟ ولكن الوليد كان بين ذراعيها وأمسك بها فى ذعر عند ما صرخت . ودفعتها الفطرة إليه فنظرت إليه تطمئنه من خلال لهفتها . فتبسم لها بعينيه الواسعتين البريئتين وهو لا يدرى ماذا ينتظره فى الغد الموحش .

وأغمضت ريحانة عينيها مرة أخرى فى يأس ، تريد أن تبعد الصورة عن ذهنها . ولكن الصورة تشبثت بها فى لجاجة وقسوة فلم تبعد عنها . ورنت فى أذنيها أصداء ضحكة مزغردة . كانت بلا شك ضحكة أبرهة عند ما رآها تدخل عليه فى بهو غمدان . ثم قوله لها :

ــ أنت ريحانة حقًا ! ما هذه السحابة التى تغشى وجهك يا ريحانة ؟

أهو حلم أم حقيقة ؟ أهى الرؤيا البعيدة أم هو أبرهة الحى الذى أمامها ؟ وقامت ريحانة جافلة نحو باب الشرفة وكان أبرهة هناك حقيقة يناديها فى ضحكته المزغردة :

ــ ما هذه السحابة التى تغشى وجهك يا مليكتى ؟ هكذا كنت عند ما وقعت عينى عليك أول مرة .

ونظرت إليه نظرة صامتة فيها كل مشاعرها فاستمر قائلا :

ــ إنها النظرة الحانقة الصامتة .

فعادت ريحانة إلى مقعدها صامتة . وقال أبرهة

ــ أهكذا تلقيننى ؟

فقالت فى دفعة :

ـ وماذا تريد منى ؟

فقال أبرهة هادئاً

ـ لقاء بديع فى مثل هذا اليوم السعيد .

فسكتت ريحانة وقالت فى سرها سعيد حقاً ؟

ولكنها لم تنطق .

ومضى أبرهة قائلا : أأنت غاضبة ؟ لقد رأيت ذلك منذ كنا فى القليس . أأغضبك شىء ؟ . . . أهكذا تغضبين كلما رأيت منى انشراحاً ؟

فقالت فى حنق : إنها القسوة التى أعرفها .

فقال فى دهشة : قسوتى أنا ؟

فقالت : قسوة من إذن ؟ هذه الضحكة التى تتعمد أن تسخر بها من آلامى . تقطع ضاحكاً ، وتطعن ضاحكاً ، وتسوق ضحاياك إلى الموت ضاحكاً .

فقال أبرهة فى نغمة عتاب : كل هذا ؟ كأنها أصداء قديمة .

فقالت : بل متجددة . تجددها دائماً .

فقال أهو الماضى مرة أخرى ؟ ألا يختفى ذلك الماضى ويندثر حيث مضى ؟

فقالت فى دفعة : إنك أنت تنبشه ليعود جديداً فى بشاعته وقسوته ، كأنك تجد متعة فى العبث بجراحى .

فقال حسبتها اندملت أما زالت بك بعد كل هذه السنين ؟

فقالت فيما يشبه الحقد : إذن فاعلم أنها لم تندمل ولن تبرأ أبداً . لن أنسى اليوم الذى جئت فيه إلى هذا القصر المظلم ، ولن أنسى الكوارث التى ساقتنى إليه لن أنسى يوم جئت إلى هنا يسوقنى عبيدك كأننى أمة .

فقال أبرهة : وهذه السنون العشرون . وهذه الفلذات التى نحيا فيها : مسروق وبسباسة أما ترقين من أجلهما ؟ أما تنسين من أجلهما ؟

فتحركت ريحانة فى ضجر وثارت فى قلبها عاصفة مكبوتة مسروق . بسباسة . أحقًّا هما ولداها ؟ إنها تكاد تنكرهما . ألم تجعل اسمه « مسروقاً » ؟

هكذا قالت فى نفسها . « إنها لسرقة شنيعة أن تغتصب منى ولداً » ولكنها جمجمت ما فى نفسها وبقيت صامتة .

فقال أبرهة أما تتغير هذه الجفوة على الدهر ؟ هبينى أجنبيًّا أمت إليك بأننى قريب لهذين . أما تتغير هذه الجفوة ؟

فقالت فى صوت مختنق : وهل تغيرت أنت ؟ أما زلت تذكرنى بأوجاعى وتسخر من شقائى ؟ أما زلت تذكرنى بوحدتى وبهلاك قومى ؟ ألم تكن اليوم كما كنت منذ هذه الأعوام العشرين ، تتمنى و لشفيت نفسك بأن ترى أهلى إلى جنبك يشهدون موكبك ويخضعون

لمجدك ؟ لقد كان القضاء بهم رحيماً إذ أعفاهم من شهود هذا اليوم . ألم تقل لى : « ليت قومك كانوا هنا » ؟ ووضعت رأسها على يديها باكية .

فمد يده إلى رأسها عاطفاً وقال

– كلمة واحدة تثير كل هذا ؟ من أجل كلمة واحدة تنسين كل حبي وكل مودتى ؟ ومع ذلك فما قصدت كل هذا .

فرفعت رأسها قائلة : إذن فماذا حملك على إقحام قومى فى حديثك ؟ أكنت تريد أن يكونوا اليوم معك أتباعاً ؟ إذا شئت فاعلم أنى لن أنسى أنهم كانوا أهل الملك وأصحاب الأمر ، ولن أنسى ما فقدت عند ما ذهبوا عنى نعم ليتهم كانوا إلى جانبى وحدهم سادة كراماً .

فقال ضاحكاً : فى القليس ؟

فقالت فى حدة حيث يكونون سادة . لا أبالى أيكونون فى القليس أم فى معبد مناة . لست أبالى أين يكونون لو كانوا إلى جنبى . ولكنها أمنية حمقاء .

فقال أبرهة لقد قلت حقًّا . إنها أمنية حمقاء . وما كانت أمنيتى إلا كذلك وماذا فقدت من السيادة والكرامة ؟ ألست اليوم ملكة ؟

فقالت فى حنق نعم ! فامض فى قولك وعد إلى قسوتك . قل ما تعودت سماعه منك غير مرة . فليست هذه أول مرة تمن على

فيها بأنك اتخذتنى زوجة . امض فى سخريتك وقل إنك لم تعاقبنى كما تعاقب الأمة ، ولم تتخذنى امرأة كما تتخذ الأمة . وقل إنك أكرمت ولدى الذى جئت أحمله بين ذراعى فجعلته مثل ولدك . قل ذلك وغيره فإنه غير جديد علىّ .

فقال أبرهة   وهل فى ذلك سخرية ؟ نعم أقول إننى اتخذتك زوجاً وجعلت ولدك فى مكان ولدى وسميته سيف ابن أبرهة . أقول ذلك لا أمن به عليك ولكن لأذكرك بمكانتك عندى .

فقالت فى جفاء   لم تزدنى مكانة يا أبا يكسوم . لن أنسى أننى ريحانة ابنة ذى جدن .

فقال   هذا حق وهو ما يزيدنى لك مودة   أعندك طعنة أخرى ؟ أما من طعنة أخرى ؟ لم لا تقولين إنك ريحانة زوج أبى مرة ؟

فانتفضت فى وثبة وقالت   بلى   أنا ريحانة زوج أبى مرة ابن ذى يزن . ألم تعرف ذلك عند ما بعثت إلىّ تحملنى إلى هنا ؟ ألم تعرف ذلك وأنت تنزعنى من بيت أبى ؟ نعم أنا زوجة أبى مرة الذى ما يزال حيًّا يهيم على وجهه فى الأرض شريداً يذكر امرأته وولده كل يوم إذا أصبح وإذا أمسى .

فقال أبرهة : أنت تثيرين غضبى .

فقالت فى حنق : ليزد قلبك ثورة   إذن فهلم إلى بطشك حتى لا تبقى على حياة أمقتها وأبقى فيها ولا أستطيع أن أنسى عارى .

ثم وضعت وجهها بين كفيها واستخرطت فى البكاء .

فهدأ أبرهة واقترب منها وجعل يمسح رأسها ويفرق بأصابعه خصل شعرها الغزير الأسود . ثم قال

ـ لا عليك يا ريحانة . قطعت يد امتدت إليك بسوء . وهل تمتد يدى إليك بغير الحب والإجلال ؟ إنك تزينين ملكى ، ولك على الفضل فى عشرين عاماً من حياتى   أنت تعلمين ما أضمره لك فى قلبى   أأغضبتك كلمة فهت بها عفواً ولم أقصد بها ما فهمت منها ؟

فقالت ريحانة وهى أهدأ   أكنت حقًّا تحب أن يشهد قومى موكبك ؟

فقال أبرهة   أما قلت إنها أمنية حمقاء ؟ هزنى طربى فقلت الكلمة كأننى ألقى بها تحية إليك   هبيها كلمة ذهبت فى الهواء لا تقدم ولا تؤخر شيئاً .

فقالت ريحانة   ولم أفعل سوى أن قلت كلمة . وهل كنت لأملك نفسى من لوعة الذكرى ؟ أغيرة من الموتى ؟ أغيرة من خيال ؟

فقال أبرهة فى رقة   ما بى من غيرة ولا غضب . إنك أعز الناس عندى وأقربهم إلى قلبى . بل إنك صاحبة الفضل على لأنك أدخلت إلى قلبى رقة لم أعرفها قبل أن أراك   منذ رأيتك تفتح قلبى كأنه كان فى ظلمة ثم دخله النور . لست أكذب إذا قلت

إننى كنت أقصد بكلمتى غير ما فهمت منها ، فلو رأيت قومك اليوم لفتحت لهم ذراعى مرحباً وقلت إنهم أهلى . بل لست أكذب إذا عدت إلى الماضى قليلا يوم رأيتك . فلقد وددت فى ذلك اليوم البعيد عند ما وقع بصرى عليك لو لم يكن بينى وبين قومك عداوة . وددت صادقاً لو رضى ذو يزن بالعودة إلى صنعاء فأردك إلى بيته زوجة له كما كنت ولا أمد إليك يداً . لست أدرى كيف أدخلت السلام إلى قلبى منذ رأيتك . لم أنظر إليك كامرأة أريد أن أتخذها لنفسى بل كنت فى نظرى ملاكاً يوحى إلى بالسلام . ولو رضى ذو يزن أن يعود إلى صنعاء لجعلته أقرب سادة اليمن إلى مجلسى ، ولكنه أبى وآثر أن يخرج هائماً فى الأرض يلتمس المعونة ليعاود قتالى . فهل فعلت أكثر مما كان ينبغى لى ؟ اتخذتك زوجة وجعلت ولدك ولدى وسميته باسمى ولم أعاتبك يوماً على ما سمعته منك وأنت ترددين على مسمع منى كل ما تدفعك إليه ثورتك . ولكنى لم أكره يوماً بعد أن أحببت . ترفقى بنفسك وكفى عن هذا البكاء ولا تعكرى على صفاء هذا اليوم . لا تذرفى هذه الدموع الحزينة فإنى ذاهب غداً إلى حرب لست أدرى ما يخبأ لى القضاء فيها .

فقالت ريحانة وهى تجفف دمعها لست أدرى أنا ما يخبأ لى القضاء .

فقال : لقد طالما ندمت على هذه الضحكات التى تنطلق منى وتلك الكلمات التى ينفجر بها لسانى أحياناً ولو استطعت أن

أزيل عنك آلامك بأن أحملها عنك لما أحسست منها ألماً . سأمضى إلى الحرب غداً ولا يداخلك هم فإنها رحلة خريف قصيرة . وسوف أعود منها منصوراً وأمد ملكى إلى حدود الشام وأصافح ملك صديقى قيصر . وسوف أقسم البلاد فأجعل لسيف ولدك شطراً منها . ولن يعرفه الناس أبداً إلا سيف بن أبرهة . أيكون هذا اعتذاراً من خطئى ؟ أيرد هذا حق ولدك إليه ويرضى قلبك عنى ؟

فقالت ريحانة متهانفة : أتفعل حقًّا ؟

ومرت صورة ولدها فى ذهنها كما يمر شعاع مضىء فى حجرة مظلمة.

ثم قالت فى صوت خافت ليست هذه أول مرة أسىء فيها وتعفو ، وتكرمنى وأجفو ، وتحسن إلى وألقى إحسانك بالنكران . ولكنى إذا خلوت إلى نفسى كدت أقطعها أسفاً اعف عنى لما فرط منى فى ساعة غلبنى فيها ضعفى . واذهب إلى حربك وعد منصوراً موفقاً وسأصلى لك لعل الله يستجيب لدعائى ويغفر لى زلل لسانى .

فنظر إليها أبرهة متأثراً ثم حول عينيه حيناً فشخص إلى الأفق ثم انفلت مسرعاً وهو يمد يده إلى عينيه يمسح منهما دمعة .

وبقيت ريحانة فى مكانها ساعة طويلة تتحدث إلى نفسها حديثاً صامتاً ، وكانت كلمة أبرهة ترن فى سمعها إذ قال لها « سأجعل لسيف ولدك شطراً منها » . وكانت تضطرب مثل ريشة فى مهب الهواء يضىء لها الأفق الذى تحت عينيها حيناً ثم يقتم حيناً ، وتسائل نفسها أحقًّا يصدق أبرهة أم هى إحدى دفعاته التى يتدفق

فيها القول على لسانه حلواً حتى إذا ما هدأت نفسه وذهبت عنه الدفعة نسي ما قال أو تناساه أو جحده فى جمود وهل يستطيع أن يبر بذلك الوعد الذى نطق به فى حرارة تشبه حرارة الصدق ؟ أو هى حماسة لحظة لا تلبث أن تنطفئ إذا أحاط به ولده يكسوم وقواده الأحباش الذين ما زالوا يلومونه على إفراطه فى تكريمها ؟ وهل كان يستطيع أن يصدق فى قولته تلك ويتحدى ولده يكسوم ؟ ومع ذلك كله فمن يدرى ؟ إنه لم يعدها بأكثر من أن يجعل لولدها شطراً من ملكه وأى ملك هو ؟ أهو الملك الذى انتزعه قسراً من قومها أم هو الملك الذى لم ينطق القضاء بعد بحكمه فيه ؟ من يدرى ؟ ماذا يكون حظه فى المغامرة التى يعتزم أن يقتحمها ؟ إنه يعدها بقطعة من حلمه ، بظل من خيال ، بأمل فى أمنية ما تزال وهماً فى خاطره أرضيت نفسها بعهد يقطعه على نفسه فى أمر ما يزال محجوباً وراء ستار الغيب ؟ وهل هى حقًّا رحلة خريف ؟ تلك الحرب التى يعتزم أن يخوضها مع قريش صقور عرب الشمال ؟

وعاد قلبها يثور ويرمى أبرهة بالسخرية والقسوة وقالت فى سرها : « إنه فى كل مرة يسحر قلبها بألفاظه المغسولة حتى إذا ما ذهب عنها وجدت أنها لم تقبض منه إلا على الريح . أين سيف ؟ إنه لم يكن اليوم فى الموكب ؟ » وهجم عليها فجأة شعور الأم التى تفتقد ولدها ، كأنها لم تفطن إلا فى تلك اللحظة إلى غيابه . أين سيف ؟ ولدى سيف ؟ وقامت فى لهفة تبحث عن ولدها .

٥

قال الراوى :

خرج أبرهة فى الصباح الباكر مع جيشه يتدفق مثل نهر يفيض تحت عاصفة ، وكانت الفيلة تسير فى الطليعة كأنها حصون تتحرك بطيئة ، ومن ورائها سارت الخيول العربية رشيقة ، من فوقها حراب تبرق فى سحابة من الغبار . وبقيت ريحانة فى شرفتها تنظر فى أعقاب الألوف المتدفقة بين جبلى نقم وعيبان حتى غابت آواخر صفوفها بين الربى الخضراء ، ثم استلقت على أريكتها وقد استولت عليها رهبة شديدة . كانت منذ ليلة تتحدث إلى نفسها حانقة على أبرهة حتى خيل إليها أنها لا تضيق بالحياة إلا من أجله ، وجرفتها الهواجس فى تيارها حتى اتهمت نفسها وودت لو كانت قضت على حياتها قبل أن تعرفه ، ولكنها مع ذلك أحست له وحشة عند ما فارقها .

ومهما يكن من الأمر فإن ريحانة استلقت على أريكتها فى الشرفة مستسلمة لهواجسها ، تتمثل أبرهة وقد بلغ مكة فخرجت إليه قريش خاضعة ذليلة تسأله العفو وتذعن له بالطاعة ، ثم تتمثل الفيلة الضخمة وقد شدت إلى الكعبة تنقض بناءها حجراً

حجراً حتى تدكها وتسويها بالرمال المحيطة بها ، ثم تتمثله عائداً بجيشه العظيم يشق جبلى صنعاء مرة أخرى ويسوق أمامه الغنائم والأسرى ، وقد خرجت تستقبله فى موكب ضخم مع شيوخ اليمن وأمرائها ، وتستنجزه وعده الذى قطعه على نفسه أن يجعل لولدها سيف شطراً من ملكه . أيفعل حقًّا ؟ أم يعود أدراجه وينسى وعده أو يجحد أنه نطق بحرف منه ؟ وما كادت ريحانه تخلص إلى تلك النهاية حتى ارتدت عليها الهواجس تصور لها فرسان قريش وهم يسارعون إلى القتال من رؤوس جبالهم الجرداء وشعاب أوديتهم الوعرة التى يتربصون فيها ، ثم يثبون على الحبشة فيشردونهم ويوقعون بهم القتل والأسر حتى لا يبقى لأبرهة جيش . وتمثلته يرتد كسيفاً يتعثر فى هزيمته الشنيعة هائماً على وجهه فى الصحراء . أهى نقمة القضاء عليه من أجل تشريده لأبى مرة ؟ وخيل إليها أنها حقائق لا هواجس يجسدها الوهم لها ، وكادت تصرخ قائلة : « أية مقادير تلك التى تتعقب آثارى ؟ » لم تحمل إليها تلك الخواطر الحزينة شيئاً مما تحمله أحلام اليقظة من الرضى ، بل إنها حملت إليها فزعاً وقلقاً لم تكن تتوقعه . فلو هزم أبرهة حقًّا وشرد عنه جيشه وارتد يتعثر فى الهزيمة هائماً على وجهه فى الصحراء كما فعل أبو مرة من قبل لكانت كارثة جديدة بعد كارثتها الأولى ، كأن الزمان موكل بها يختار لها أشد الكوارث وأقساها .

وأحست يداً تمسح على رأسها فى رفق فالتفتت إلى ورائها وهى

ما تزال ماضية فى سبحها ، ثم انطلقت منها صيحة مكبوتة

– سيف ؟

ومدت إليه يدها قائلة أين كنت يا ولدى ؟

وجذبته إلى مقعد بجوارها . وأشرق على وجهها شعاع من البشر وهى تتأمل قامته الفارعة ووجهه الذى ينطق بالرجولة وعينيه اللتين يأتلق فيهما نور حالم ، وكأنها لم تره منذ كان طفلا إلا فى تلك اللحظة . ألا ما أشد الشبه بينه وبين أبيه ذى يزن ؟ أو هو الشبه بينه وبين أبيها ذى جدن ؟ وأطرقت تفكر فيما تقوله له كما كانت تطرق كلما رأته يدخل عندها .

وخيل إليها أنه كان فى مظهره ومشيته غير ولدها الذى اعتادت أن تراه مقبلا عليها ، كأنها كانت غافلة عن مسايرة نموه حتى طلع عليها فجأة وهو رجل . أهكذا تبدل بين عشية وضحاها أو هى التى كانت تنظر إليه ولا تراه ؟ ولم يفتها أن ترى كذلك ما على وجهه من آثار تنطق بأنه يخفى فى قلبه أشياء تقلقه وتحركه ولا يستطيع أن يطلق بها لسانه كانت عيناه تضطربان ولا تستقر نظراتهما ، وقد أحاطت بهما دائرتان بين السواد والزرقة وكان وجهه ذابلا فيه خطوط تشبه تجاعيد الكبر ، وتتوسط خديه بقعتان ورديتان تشتعلان ثم تنطفئان . وهجم عليها ذلك الشعور القوى الذى تحسه الأم عند ما ترى ابنها مشرفاً على خطر ، وامتلأ قلبها لوماً لنفسها وإشفاقاً على ذلك الابن الذى لم يكن له فى الحياة سند غيرها منذ

طفولته الأولى لقد تركته الأقدار طفلا وليداً بين ذراعيها ، ثم ألقت به بين أعداء أبيه يمدون إليه أيديهم بالرحمة وهم يشعرون فى قرارة نفوسهم أنه ليس منهم . ولم يكن ذلك الشعور جديداً عندها بل كان يهجم عليها فى كل مرة يقع بصرها عليه ، وكانت كلما أحسته وجدت نفسها تضطرب وترتبك ويغمرها ضيق عجيب يطوى تحته أمواجاً من مشاعر مبهمة ، تشبه مشاعر الذى يتهم نفسه بجريمة لم يطلع عليها غيره . فكانت لا تكاد تطيق مجالسته إذا جاء يوماً ليجلس إليها ، ولا تقوى على مواجهته بعينيها خوف أن تنم عن خلجات ضميرها . فإذا انصرف تنفست نفس المكروب يؤذن كربه أن ينكشف عنه . وقد ازداد بها ذلك الشعور فى الأشهر الأخيرة لأنها كانت كلما لقيته أحست فى غموض أنه يريد أن يقول شيئاً ثم يرد نفسه عنه قسراً . فما ذلك الشيء الذى يريد أن يقوله ؟

وسمعت من أعماقها صوتاً يصيح بها : « خذى ولدك المسكين بين ذراعيك وبللى عنقه بالدموع وأفصحى له عن الحقيقة التى أخفيتها عنه هذه السنين الطويلة . إنك تدعينه ابن أبرهة ، وتأمرين الجميع أن يدعوه بذلك الاسم ، وستكون صدمته عنيفة إذا تكشفت له الحقيقة يوماً » . وكادت تطيع ذلك الصوت وتجهر له بالحقيقة السافرة . وأى عار عليها أن تكون قد أخفت عنه قصة مولده وهو طفل لا يطيق أن يتحمل وقع المأساة ولا يدرك معنى الحياة ؟ بل أى عار عليها

أن تتخذ أبرهة زوجاً بعد أن خرج أبوه من الأرض وتركها وحدها لا حامى لها ؟ ولكنها لم تقو على أن تخطو تلك الخطوة بل ارتدت عنها فى شىء يشبه الذعر . ألم تكن تستطيع أن تهلك نفسها قبل أن تصير زوجاً لغير صاحبها ؟ أكان أبرهة يجرؤ على أن يتخذها زوجة بغير أن يجد منها ما ينم عن الرضا ؟ أقالت لأبرهة عند ما لقيته : « أيها الرجل اقتلنى إذا شئت أو أطلق سراحى ؟ »

ورفعت رأسها بعد لحظات كأنها ساعات طويلة ونظرت إلى ولدها ورأت ما عليه من أمارات القلق والتعب ، ولكنها لم تلبث أن عادت إلى إطراقها فى اضطراب وارتباك كأنها تتوارى .

ولاحظ سيف ما بدا على وجه أمه من ظلال الحيرة ونظر إليها نظرة إشفاق مترددة . وهم أن ينطق بكلمات يسألها عما بها ، ولكنه أمسك . فكيف يسألها عما بها فى اليوم الذى يسير فيه أبوه إلى القتال ؟

وفطن إلى الفكرة التى خامرته وقال فى نفسه أأقول إنه أبى فيما بينى وبين نفسى ؟ فلم جئت إذن ؟

ومرت دقائق أخرى وهو لا يدرى أيذهب عنها معتذراً بعذر مصنوع كما فعل من قبل مراراً ، ثم يذهب إلى مخدعه ليناجى وساوسه حانقاً على نفسه كما فعل فى كل هذه الأشهر التى مضت عليه منذ أواخر الربيع ، أم يجمع نفسه ويقذف الكلمة التى يريد أن يقولها ؟ وذهب إلى جانب الشرفة يجول ببصره فى البساتين والربى وفى جبلى

نقم وعيبان ، ووجد فى اللحظات التى وقفها هناك متنفساً يستجمع فيه جنانه وأفكاره الشاردة . ولعل ريحانة كذلك قد وجدت فى تلك اللحظات متنفساً تماسك فيه وتحاول أن تجمع قوتها لمقابلته . وعاد سيف إليها قائلا :

ـ معذرة يا أماه أن أكون قد جئت إليك فى هذه الساعة التى ...

وتردد لا يدرى كيف يتم كلمته فقالت ريحانة مع ابتسامة ضئيلة :

ـ اجلس هنا يا سيف . اجلس إلى جنبى فإنى فى وحشة ؛ وأشعرنى بقربك منى

وبعثت كلماتها فيه هزة . أأمه ريحانه فى حاجة إلى أن يجلس قريباً منها ليشعرها بوجوده ؟ إذن فهذا هو إلى جنبها . وقال فى عطف وحماية

ـ هأنذا فى جنبك أيتها الأم النبيلة . لا غرو أنك تحسين الوحشة فى مثل هذا اليوم .

وكان صوته العميق يفيض رحمة . وأنست ريحانه إلى صوته وانقشع عنها كثير من وجومها . وقالت فى هدوء :

ـ أين كنت يا سيف ؟ لم تكن فى موكب الأمس ولا فى وداع أبيك اليوم .

وما كادت تنطق بكلمتها حتى عاد إليها جفوها وندمت عليها . أتعيد الكذبة فى مثل هذا الهدوء ؟ أتسأله عن وداع أبيه ؟ وفتحت

عينيها وأذنيها تنتظر الجواب فى لهفة .

وقال سيف فى هدوء كذلك :

ـ أبى ؟ أسألك العفو يا أماه ، فقد خرجت منذ يومين إلى وادى ضهر .

وغمرها شعور بالنجاة لأنها لم تتوقع جوابه ، وقالت كأنها فى حلم :

ـ وادى ضهر ؟

وأرادت أن تبعد عن موطن الخطر ، فصرفت الحديث إلى ذلك الوادى قائلة

ـ كانت ليالى قمراء .

فقال سيف : كان القمر فى أزهى مطالعه حقاً . لم أر الوادى فى مثل منظره تحت أشعته الرفيقة ، وكان يسبح بين السحب البيضاء كأنه ملاك يبحث فى الآفاق عن الأشقياء ليبعث إليهم رحمته كان يرسل أنواره إلى أركان الشطوط كأنه يبحث فيها عن وحيد يؤانسه أو حزين يواسيه .

وأحست الأم أنه يعود إلى الموطن الذى تهرب منه . وقالت فى نفسها

ـ « مسكين ولدى ! إنه يهيم فى الخيال كما أهيم . أهى جناية أخرى جنيتها عليه إذ أورثته لعنتى ؟ »

ثم قالت له عاطفة أكنت وحدك ؟

فقال فى صوت خافت ومن يكون رفيقى ؟

وكان فى نغمته شيء زادها قلقاً .

فقالت وهى تتكلف المرح

– ما أبدع وادى ضهر فى الليالى القمراء ! لقد طالما خرجت إليه فى صباى فى مثل هذه الليالى وكان البدر كما وصفت يخلع على جمال الوادى ما يشبه أن يكون سحراً .

ومضى سيف قائلا فى حماسة :

– كانت السحب تحيط بالربى الحالمة كأنها إطار من فضة حول نقش بارع . وكانت الأشجار تقطع صفحة السماء بين باسق منها وقصير فى منظر يقصر اللفظ عن وصفه . . كان السلام يلف الأرض الصامتة ، وكأن صوتاً عذباً من أنغام السماء يتردد فى طباق الجو قائلا للناس إن الجمال أسمى من المجد وأغنى من الغنى وأخلد من الحياة .

وتبسمت ريحانة مرتاحة فهذا خير من الحديث عن حرب قريش وعن جيوش أبرهة وعن التفكير فى الأمس والغد . وعجبت أن تسمع من سيف مثل هذا القول الذى يشبه قول الشعراء . ولم يكن عجباً منه أن يحس الشعر فقد كان جده ذو جدن شاعر اليمن الذى بكى عزها الذليل . وقالت :

– إذن قضيت لياليك ساهداً .

فضحك سيف وقال :

– سوف ننام طويلا .

ووثب قلبها وثبة شديدة . ماذا يقول سيف ؟

وقالت وهى تنظر إلى الدائرتين المظلمتين حول عينيه :

ــ لقد أجهدت نفسك يا ولدى . ألا تصيب بعض الراحة فى مضجعك ؟

فأغضى سيف وقال فى شىء من الارتباك أو السخرية :

ــ مضجعى ؟

فقالت ريحانة :

ــ ماذا بك يا سيف ؟

وما كادت تنطق بكلمتها حتى انكمشت .

فقال هادئاً :

ــ عفوك يا أماه فإنى لا أحس رغبة فى نوم . دعينى ساعة إلى جنبك فهذا أحب إلى .

وأحست ريحانة إحساساً غامضاً بأنها حيال عاصفة توشك أن تهب ، وقالت فى دفعة لم تفكر فيها

أرى كأنك تخفى عنى أشجاناً فى نفسك .

ثم انكمشت مرة أخرى وندمت على كلمتها .

وقال سيف :

ــ معذرة يا أمى إذ أجىء إليك فى مثل هذه الساعة التى تحتاجين فيها إلى السلام والمؤانسة فأزعجك أو أثير أشجانك .

فقالت والألفاظ تنفلت منها انفلاتاً :

ــ كنت منذ حين أراك على غير عهدى بك . كنت أراك قلقاً حزيناً

وأرى على وجهك حديثاً تطويه عنى . ولست أحب أن أتدسس إلى أسرارك فإنى أعرف الشباب وما يبعثه فى القلوب من شجون .

وتمنت لو أتاحت لها الكلمة الأخيرة منقذاً من موقفها .

فقال سيف : ليس بى شىء مما تظنين يا أماه .

فقالت باسمة : أعرف أن للشباب أسراراً يؤثر أن يخفيها لكى يناجيها وحده .

وعلقت بصرها فى وجهه تتمنى أن ترى عليه حمرة . ولكنها رأته هادئاً يذكرها بوجه أبى مرة وهو خارج إلى المعركة .

وأجاب : إنى أعلم ما فى نفسك اليوم من وحشة وقلق ، وما كان أجدرنى أن أجنبك فيه حديثى . ولكنى أتيت إليك بعد أن سألت خيلاء .

« إذاً فهى خيلاء ! »

وقالت ريحانة وهى تحس النجاة .

— خيلاء ! أسألتها ؟

فقال سيف مبادراً : نعم وأنا آت من عندها فى هذه الساعة . وهى التى أشارت علىّ أن أفضى إليك بكل ما فى نفسى . إن إيمانها بك يشبه إيمانها بالعذراء .

« أكان يسألها عنى ؟ ألم يحدثها هى ؟ ليته يطمئن إلى سلامتها ووداعتها ؟ »

هكذا قالت فى نفسها ، ثم قالت تتمسك بأمنية واهية :

— أكنت تنتظر مشورة خيلاء لكى تفضى إلى بما فى نفسك يا سيف ؟ قل ما عندك تجده ينطلق إلى قلبي قبل سمعى. لا تخف عنى نبضات فؤادك .

فقال سيف :

— كنت منذ أشهر أترقب مثل هذه اللحظة ، ولكنى لم أجرؤ ، وهى التى شجعتنى على أن أفضى إليك بوساوسى .

فقالت ريحانة فى نفسها : « وساوسه ؟ » واستعدت تستقبل العاصفة التى أحست ألا مفر منها .

ومد سيف يده إلى يد أمه فأمسك بها ومضى قائلا :

— لم أجرؤ أن أحرك لسانى بألفاظ لا تؤدى حقيقة ما فى ضميرى . وكثيراً ما خلوت فى مخدعى أو فى ركن من الأركان البعيدة فأعيد على سمعى ما أود أن أنطق به فكنت فى كل مرة أجد الألفاظ ناشزة لا تعبر عن مقصدى . ولهذا كنت أتحاشى أن أزورك ما استطعت ، ثم إذا غلبنى شوقى إليك لم أشأ أن أطيل زيارتى .

فقالت ريحانة فى صوت خافت

— رأيت ذلك يا سيف ، وكنت مثلك أود أن أتحدث ثم لا أجرؤ.

وما كادت تقول كلمتها حتى كادت تصيح قائلة : « لا . لا » .

وبادر سيف قائلا : عفوك يا أماه إذا سمعت منى ما يشبه أن يكون شكاًّ . فما هو سوى وسواس أحب أن أكشف الستر عنه لأطرده من قلبي . أكاد أخجل من نفسى وأنا أسألك عن حقيقتى أيتها الأم النبيلة .

وكان قلب ريحانة يخفق فى حنق ولكنها تعلقت بأمنية واهية أخرى . ألا يقول سيف إنه وسواس .

وقالت فى مرح متكلف :

— حقيقتك ؟ أنت سيف بغير شك .

فقال : نشدتك بحبى ألا تغلقى قلبى ، وقد جاهدت أن أفتحه . مرينى أن أمسك لسانى وأن أرد وساوسى إلى أعماق ضميرى ولن تسمعى منى حديثاً فى هذا أبداً .

وسرى حر فى جسم ريحانة وندى جسمها . إنها حيال ابن أبى مرة : وامتزج فى نفسها الإعجاب والضيق معاً عند ما قالت :

— عفوك يا ولدى ، فما أردت إلا فكاهة . كن أكثر بياناً فإنى لا أفهم . وخيل إليها أن الموقف أعنف من شجاعتها ، وكادت تقول له : «بل استمع أنت يا سيف ولا تقل شيئاً » ، ثم تجهر له بالحقيقة بغير مداورة .

بل لقد خيل إليها أنها حيال أبى مرة نفسه وقد عاد إليها يحاسبها على التحلل من عهده . أتجثو عند قدميه وتكشف عن نفسها صريحة ذليلة تسأله المغفرة ؟

وقال سيف وهو أشد منها ارتباكاً .

— بل اغفرى لى أنت جرأتى فإن لسانى يخذلنى كيف أضع لك سؤالى ؟ هل أنا ابن أبرهة ؟

وكأنه وهو يقول هذه الكلمة الأخيرة رجل مستيئس يرمى سهماً إلى صدر عزيز وهو يغمض عينيه حتى لا يراه يقع حيث رماه .

ولم تملك ريحانة صيحة انفلتت منها ثم تهالكت فى مقعدها فقام سيف فى لهفة وأمسك بيديها قائلا :

ــ أيتها الأم النبيلة عفواً . لا تظنىْ بى الظنون فإنى ما تزعزعت عن يقينى لحظة . كان خيراً لدى لو كان شكى فى انتسابى إليك أنت ولكن لم تطعنى طبيعتى كيف آتى إليك أسعى بنفسى يائساً سائلا « هل أنا ابنك حقا؟» حين روحى تصيح بى ودمائى تتداعى بالحق أنك أمى. غير أنى لو كان هذا سؤالى كان عندى أخف وقعاً وقسوة . بل لعلى أراه أشبه شىء باعتراف منى بحسن صنيعك . أنت أولى بالنبل لو لم تكونى لى أمًّا بما وهبت لى من حنان . فوق قدر الوفاء والشكران . ليت قلبى يشك فيك فآتى شاكراً ما لقيت من إحسانك .

وسكت سيف لحظة ونظر إلى وجهها الحزين وهى مطرقة صامتة . ثم استأنف قائلا فى رقة :

ــ لا تضيقى بما أقول يا أماه . نعم فإنى أحتمل كل شقاء فى الحياة ، بل إننى أحتمل الموت أو العار نفسه حتى لا أحرم من بنوتك أيتها الحبيبة . ومع ذلك فإنى أجد ألفاظ سؤالى تصدع سمعى كأنها قعقعة الصواعق ، وتجعلنى أتجرع ماأتجرع وأنا أسألك عن أبى . فرفقاً أيتها الأم لاتحزنى واحتملى قسوة سؤالى ، فإن الألفاظ عاجزة عن أن تذهب ببشاعته.

وتمالكت الأم حنانها بشىء من القسر وقالت :

ــ ماذا يدفعك إلى أن تستسلم إلى هذا الذى تسميه وسواساً ؟ وماذا أدخله فى نفسك ؟ وماذا حملك على الشك فى أبوة أبرهة؟ ألم تجده أباً بارًّا ؟

فأجاب سيف : بل عرفته يقربني ويكرمني ويفيض علىّ من رحمته ما لا يدع لى شكوى . ولكنى لم أحس منذ عقلت أنه أبى . كنت منذ طفولتى أشعر بشىء يقف حائلا بينه وبيني كنت أدخل عليه فأناديه « يا أبى » ثم أحس قلبي يخوننى وأجد برداً يتمشى فى مفاصلى . وأنظر إلى وجهه متأملا فأراه يبتسم لى مرحباً مداعباً ومع ذلك فإنى كنت أحس أنه يضحك منى . فأبادر خارجاً أتسلل والخجل يبلل جسمى .

وصمت حيناً وكانت ريحانة مطرقة تحاول أن تهدئ من ضربات قلبها . ومضى سيف قائلا :

— قولى كلمة واحدة تكفينى . قولى ولو إشارة فإن صمتك يشعرنى بأنى ارتكبت جرماً .

وأوشكت ريحانة أن تجهر بالحقيقة ، ولكنها نكصت تتعلق بأمل ضعيف أن تؤجل الصدمة حتى تتبصر فيما تقول ، فإنها كانت تحس أنها لا تقوى عليها فى تلك اللحظة .

ومضى سيف قائلا : وهذه الأحلام يا أماه ، أليست توحى بالحقيقة ؟ وإلا فما هذه الرؤى التى تعتادنى وما هذه الأشباح التى تسألنى عن أبى ؟

وقالت وهى تكاد تغص بريقها :

— أهذا هو كل ما تشقى به نفسك يا ولدى ؟ أوهام طفولة عابرة ، أحلام وأشباح لا تزيد على أخيلة . أما كان جديراً بك أن تكشف من قبل عن هذه الهواجس أو أن تلقاها وجهاً لوجه وقد كبرت وصرت رجلا ؟ إنما هى أرواح خبيثة أعرف أنها تدخل على الطفولة أوهاماً ومخاوف ،

وكنت دائماً حريصة على أن أقرأ عليك الرقى حتى لا تجد إليك سبيلا . فابحث فى أعماقك ثم حدثنى كيف تساورك ومتى تعتريك اليوم . فإنه لا يجدر بك الآن أن تقيم وزناً لمخاوف الطفولة الجوفاء .

فقال سيف فى حزن : ولكنها تتعلق بى برغمى ، وما تزال تطاردنى.

فقالت ريحانة وهى أملك لنفسها :

— ما هى يا ولدى ؟ ما تلك التى تتعلق بك ؟

فقال سيف أشباح غامضة تتحرك فى غبش الظلام وتنطق فى جلجلة خرساء فأهب من نومى وأنا أسأل : « أأنا ابن أبرهة ؟ »

ثم حدثها عن أحلامه التى كانت تعاوده على فترات .

فقالت ريحانة :

— أضغاث أحلام يا سيف . أضغاث أحلام . أمن أجل هذا تفسد على نفسك السعادة ؟ أتعطى زمامك لخيال لا يزيد على أن يكون نفثة شيطان يحقد عليك ؟ سوف أذبح للعذراء قرباناً وأجعل خيلاء تصلى لها من أجلك حتى لا تعود الأشباح إليك . واملأ قلبك يا ولدى بمباهج الشباب . ولا تعذب نفسك يا ولدى بهذه الأوهام التى تضرب فيها وتتطلع إليها . لقد صرفتك عن الحياة حتى ألفتها وجعلتها عالمك ، وأسلمت نفسك للخيال يشرد بك حتى إذا عدت إلى الحقائق وجدتها تصدمك وتهزمك وتجرفك . اعرف هذا يا ولدى لأننى عرفته فى نفسى ، ولعله ميراث منى . فحاول أن تتخلص منه وتعيش مع نفسك ومع الناس . أنت فى زهرة العمر التى لا تتفتح إلا مرة فى ساعة قصيرة ، فاخرج مع لداتك كما كنت

تفعل. أما تذهب إلى منازه الأودية النضيرة مع صحبك وخدمك ؟ وخيلاء . أين أنت منها ؟ وهذه الدروس التى كنت تحضر فيها إلى ابن عمى أبى عاصم لم هجرتها ؟ أين ذهب أبو عاصم ؟ لقد بلغنى أنه غضب وذهب إلى داره فى حقل صنعاء ، أفلا تذهب إليه تسأله باسمى أن يعود إلى غمدان ؟

وقامت فى دفعة وأخذت بكتفى سيف قائلة :

— دع هذه الوساوس واذهب الآن إلى مخدعك حتى تنال حاجتك من الراحة . قم إلى مخدعك معى فأغنى لك كما كنت أفعل وأنت طفل ، أتضحك يا سيف ؟ إنك ما تزال عندى صغيراً وهكذا تبقى حتى تصير شيخاً . نعم هذا أطيب لنفسى فقبلنى كما كنت تفعل كل ليلة إذا ذهبت إلى سريرك . هلم فاستشعر الأمان إلى جنبى .

وجذبته فسار معها حتى ذهبت به إلى حجرته واستطاع بعد قليل أن يغمض عينيه على أغنيتها وهى تمسح بكفيها على شعره الصقيل . وتبسمت فى حزن عند ما نظرت إلى وجهه الهادئ فى نومه كما كانت تبتسم كلما رأته ينام وهو طفل ،وسألت نفسها كما كانت تسألها : « ماذا يكون غداً ؟ » ثم عادت إلى مخدعها تجرر قدميها ، وهجمت عليها ذكرياتها تتدسس فى تلافيف سرها وكان رثاؤها لنفسها يصاحب رحمتها لولدها . كلاهما يعيش فى الخيال ويصطدم بالحقائق . كلاهما يهيم مع الصور ويفزع من الواقع . أية لعنة أورثت ولدها ! وأسفت أشد الأسف على أن ابن عمها الشيخ غادر القصر ، فهو وحده الذى يحب ولدها ويستطيع أن يعيد إليه الطمأنينة . ولكن أيرضى أن يعود ؟ أيرضى وهذه الذئاب تتربص به فى

بلاط غمدان ؟ وعزمت على أن تتوسل إليه ليرضى فإنه البقية الضئيلة من أهلها لعل ولدها يجد فى قربه أنساً وفى حكمته هادياً .

٦

قال الراوى :

كل شيء فى الحياة يتغير ، وهذا أمر لا شك فيه ولا موضع فيه للتأمل ، ولكن الذى يدعو إلى العجب هو أن الإنسان يتغير بين صباح ومساء أو بين ساعة وساعة فى نظرته إلى الأمور وفى تقديره لنفسه ولما يحيط به . فقد يرى الدنيا معتمة فى ساعة ثم يراها متلألئة فى أخرى . وقد يضيق بأمر فى موقف ثم يكاد يسخر من ضيقه فى موقف آخر . وقد يكون ذلك التغير نتيجة لسبب تافه مثل كلمة أو حادث صغير ، كما قد يكون لسبب غامض خفى لا يستطيع أن يتبينه . تعجب سيف من نفسه عند ما رأى الأمور تتبدل فى نظره بعد أن استيقظ فى عصر اليوم الذى لقى أمه فى صباحه . كان عند ما هب من نومه شخصاً آخر غير الذى كان فى الصباح . واستعاد حديثه مع أمه وجعل يردد أقوالها حرفاً حرفاً ويتمثل حركاتها حركة حركة وخيل إليه أنه إنما كان يلتمس أسباب الشقاء لنفسه بالاسترسال فى أوهامه والخضوع لوساوس أحلامه . وكاد يضحك من الحماقة التى جعلته يترجح فى هبات تطوح به كما شاءت بغير أن يتحكم

فى نفسه بعقله كما ينبغى لمثله بعد أن شب عن طوق الطفولة . ألم تكن أمه صادقة إذ قالت له إن أوهامه لم تكن إلا مخاوف الطفولة ؟ بل لعلها لم تكن سوى أثر من المتاعب التى أجهد فيها جسمه فى تلك الشهور الأخيرة بغير حكمة . فما الذى كان يريده من وراء كل تلك الحماقات ؟ أكان يحب أن يسمع أن أبرهة لم يكن أباه ؟

وكانت الشمس الغاربة تطل على الحجرة من وراء صفائحها المرمرية الشفافة وتشع بنور رفيق يخلع بهاء على الأثاث الثمين الذى كانت ريحانة تعنى بترتيبه وتنسيقه بنفسها ، كما كان يزيد فى بهجة الأزهار الزاهية التى كانت تبتسم فى آنيتها الفضية الأنيقة .

ومد يده إلى زنبقة بيضاء متفتحة وخيل إليه أنه يمد يده إلى خيلاء يحييها شاكراً ، فهى التى أشارت عليه بأن يذهب إلى أمه ويكشف لها عن وساوسه حتى لا تبقى فى ظلمة سره وتنمو ولا تدع له سلاماً . وتذكر يوم مد يده بمثل تلك الزنبقة إلى خيلاء يحييها بها بعد غيبة ، فرشقتها فى شعرها الغزير فكانت مثل غصن مزدهر . ماذا يقول لها إذا لقيها فإنه سيلقاها بعد قليل فى خميلة من خمائل البستان أو فى ردهة من ردهات القصر ، فإذا لم يجدها فإنه ذاهب إليها ليقص عليها ما سمع من أمه . وقد كان يجد فى نفسه حديثاً طويلا آخر لا يدرى ما هو ولكنه يعرف أنه يتدفق فى أعماقه . فكيف استطاع أن يمتنع عن لقاء خيلاء عمداً كل تلك الأسابيع الطويلة فكان لا يكاد يراها إلا فى لحظات مثل لمح البصر ثم ينصرف عنها كأنه يهرب منها ؟ أى شيطان ذلك الذى وسوس له ليحرمه من جنته ويقذف

به إلى الشقاء الذى عذبه كل تلك المدة ؟

وعاد إلى حديث أمه يردده حرفاً حرفاً ويتمثل حركاتها حركة حركة، وكاد قلبه يغوص فى جوفه عند ما لم يجد فى كل ما قالته له ما يدل على شىء قاطع . لم تقل له فى صراحة : « مالك تقول هذا القول يا سيف ؟ فإنك بلا شك ابن أبرهة » ، بل أخذت تسأله عن أسباب شكه وعن مبعث أوهامه ، ثم ذهبت به آخر الأمر إلى مخدعه فهدهدت أشجانه بأغنيتها الحلوة حتى نام .

وذهب إلى النافذة وكانت أشعة الأصيل تتخلل ظلال البستان رفيقة هادئة لم تقع عينه على منظر أبعث على السلام منها . ورفت فى صدره نشوة من الشعور الغامض الذى يجعل الشباب يغنى بحب الحياة . فما الذى يحمله على تعكير صفائه باللجاجة فى شكوك لا تؤدى إلا إلى الشقاء ؟ إن الذين يجاهدون فى سبيل أمنية عزيزة يحملون أنفسهم العناء حيناً من الدهر لكى يفوزوا فيما بعد بجزائهم الجزيل من السعادة عند ما تتحقق أمنيتهم ، فما الذى يدعوه إلى المجاهدة والمراجعة ومكابدة الأحزان مع أن الأمنية التى يتوق إليها ماثلة أمامه بغير مجاهدة ولا لجاجة . وماذا يجديه من هذه الوساوس التى تطارده كأنما هى حريصة على أن تبرئه من أبرهة ؟ ولو كان أنفذ بصيرة وأكثر حكمة لكان يتبين من أول الأمر أن خيلاء هى أمنيته الكبرى التى يتطلع إليها ويتمنى أن يحققها . أهى فى مخدعها فى مثل هذه الساعة فلا تخرج إلى البستان لتتمتع بساعة الأصيل الحالمة ؟

وكانت خيلاء فى تلك الساعة فى البهو الأكبر الذى يلى جناح الملكة ،

وتنتهى إليه الردهة المؤدية إلى حجرتها . لقد طالما جلست هناك فى انتظار درس الشيخ أبى عاصم فى تلك الأيام السعيدة الماضية قبل أن يطرأ على سيف ذلك التغير العجيب الذى اعتراه فى الأشهر الطويلة منذ الربيع المنصرم . وسارت حول البهو تقلب بصرها فى تحفه وتماثيله ونقوش أثاثه وستوره وهى شاردة لا تدرى ماذا تفعل هناك . كانت تعلم أن الشيخ انقطع عن دروسه منذ أيام وأنها لن تستقبله هناك كما كانت تفعل من قبل . فماذا كانت تبغى من بقائها هناك ؟ وتمثلت لها صورة سيف الذى رأته فى الصباح عند عودته من وادى ضهر ، وكان عند ذلك مضطرباً يلوح عليه الحزن على رغم ابتسامته الضئيلة . وتذكرت ما قاله وما أشارت به عليه من الذهاب إلى أمه الملكة ليفضى إليها بأحزانه .

أفما كان ينبغى له أن يعود إليها ليقص عليها ما قالت له الملكة ؟ أيكون قد خرج من عند أمه عائداً إلى وادى ضهر ليستأنف لياليه المسهدة ؟ لم تعرف منه سوى أنه فريسة لشكوك مضنية لا تدع له سلاماً فى ليل ولا فى نهار ، وأنه لا يستطيع الإفضاء بشىء من تلك الشكوك إلى أحد إلا إلى أمه فهى وحدها التى تستطيع أن تلقى الضوء عليها . وكان فى نفسها شىء من العتب لأنه لم يفض إليها بشىء من تلك الشكوك لعلها تشاركه برأيها أو تسرى عنه بمواساتها ، أهكذا لا يعود إليها بعد أن ذهب إلى أمه وأودعها أسرار حزنه ؟ ولم يخل قلبها من الغيرة لأنه لم يظهر لها من الثقة ما كانت تتوقعه منه . ألا يستطيع الإفضاء بما فى نفسه إلا إلى أمه وحدها ؟ وكانت ترهف سمعها لعلها

تسمع وقع خطواته فوق الطنافس الوثيرة ، ولكن ساعة طويلة مضت ولم يحضر بعد ، فلعله ذهب يستريح فإن عينيه كانتا تنطقان بالإعياء . أو لعله ذهب إلى الشيخ أبى عاصم قبل أن يفكر فى العودة إليها . ومن هى حتى يسرع إلى لقائها عقب لقائه لأمه ؟ بل لعله كان لا يعبأ بلقائها لو لم يتفق لها أن تكون فى البستان منذ الساعة الأولى من الصباح فى الممشى المؤدى إلى جناح الملكة . ومع ذلك فقد بقيت ترهف سمعها لسماع وقع خطواته والأمل ما يزال يساورها أنه سيبحث عنها حتى يلقاها . لا شك فى أنه لن يبطئ الليلة فى السعى إليها . وأخذت تدبر فى نفسها أحاديث كثيرة فيها عتب وفيها عطف وفيها رحمة ومواساة . كانت تردد فى سرها ألفاظاً تختارها وعبارات تتأمل جرسها وتقدر وقعها حتى إذا لقيته وحدثته لم يخنها لسانها بكلمة تنم عن شىء من خواطرها . بل إنها كانت فى عباراتها تحرص على أن تخفى قلقها ولهفتها على لقائه ، وتظهر له أنها ما وقفت هناك فى ذلك البهو إلا عفواً وجرياً على عادة تقودها إلى هناك بغير إرادة . وتذكرت آخر مرة لقيته فيها بذلك البهو وكان ذلك فى أواخر الصيف . كان عند ذلك شارداً صامتاً لا يكاد يهتز إلى شىء من قولها . وتذكرت كيف كانت نظراته خابية وانية وكيف كان لا يرفع بصره إليها ولا يكاد يلقى نظرتها حتى يحول عينيه سريعاً فى شىء يشبه الجفول . فما السر فى تلك الجفوة التى اعترته ؟ أهى الشكوك التى أدخلت إليه كل هذا التبدل أم هو الذى انصرف عن مودته الأولى ؟ وما تلك الحمرة التى كانت تصبغ وجهه ثم لا تلبث

أن تنطوىء وتخلف وراءها بقعة صغيرة وردية سقيمة ؟ أكان عند ذلك ينوى مفارقتها وقطيعتها التى مضى فيها سائر الصيف وصدراً فى الخريف ؟

وطال انتظارها منذ ذهبت إلى البهو فى عصر اليوم حتى اقترب الليل، وكادت تذهب إلى مخدعها يائسة فلا تفارقه ما دام سيف مقيماً فى غمدان حتى تجزيه على جفائه بمثله ، ولتبرهن له على أنها تستطيع مقابلة الصدود بالصدود والجمود بالجمود، وأنها تقدر على أن تحتفظ بكرامتها ولكن ألا يكون قد غادر غمدان ؟ ألا يكون قد ذهب إلى حجرته فلا يبارحها سائر اليوم ويبقى إلى الليل فى عزلته ثم يبكر فى الصباح خارجاً إلى بعض ما يخرج إليه ، فلا تراه بعد ذلك إلا اتفاقاً إذا لقيته مصادفة عند عوته ؟ وما يدريها أنه إذا لقيها بعد ذلك يوماً ألقى إليها تحية فاترة من بعيد ثم يمضى إلى حيث يريد فلا تصيب من وراء غضبتها إلا أقسى الآلام وأبشع الهوان .

على هذه الحال بقيت فى البهو كأنها فى رحلة مملة تقف عند كل صورة تتأملها حيناً ثم تنتقل إلى أخرى وأنفاسها المضطربة تساير دقات قلبها ، كلما سمعت صوتاً تحسبه حفيف ثيابه أو وقع أقدامه . وكيف تلقاه فاترة هادئة وهذه الخفقات تسرع بأنفاسها ولا تستطيع معها أن تتحدث إليه هادئة ؟ وعزمت على أن تلقاه إذا أقبل نحوها وهى عابسة كأنه لم يكن عندها شيئاً . ولكن ألا ينم ذلك العبوس عن مقدار اهتمامها أو يكشف عن لهفتها ؟ ألا يدله ذلك على أنها كانت تفكر فيه وأنها قد تعمدت أن تقف فى البهو لتلقاه ؟ ولكن ما الذى يحملها على كل

هذا ؟ وكانت قد بلغت فى سيرها الركن الذى فيه الوعاء المرمرى الوردى . هناك كانا يجلسان جنباً إلى جنب على الأريكة المجاورة للوعاء ويعلقان فيه بصرهما ويتحدثان فى حماسة عن بهاء لونه وبراعة صناعته . وكان سيف عند ذلك لا يخفى عنها نأمة من صدره ولا يطوى عنها شيئاً من أفكاره . كان يتدفق فى حديثه إليها مرحاً باسماً سعيداً ويجعل الدنيا تبتسم أمامها مرحة سعيدة . فما الذى غيره وجعله يتنكر لمودتها ؟ ألا يكون ما ذهبت إليه فى قلقها من تهويل الخيال وهو برىء من كل ما ذهبت إليه ؟ ألا يكون فى ضيق أو حزن أو يأس لسبب من الأسباب التى تعرض لمن كان مثله ؟ ليته لم يكن سيف بن أبرهة . ليته لم يكن سوى شاب تستطيع أن تلقاه عاطفة وتقول له هأنذا إلى جنبك أقدر على أن أخفف عنك وأن أواسيك بنفسى . وما الذى يمنعها أن تقف إلى جنب سيف بن أبرهة فتخفف عنه همه وتواسيه بنفسها وعطفها ؟ إن الرحمة والمودة والمواساة من هبة الله للقلوب الإنسانية ولا ينبغى أن يقف شىء فى سبيلها . فخير لها أن تقبل عليه باسمة مرحبة وتفتح له قلبها وتسأله عن نفسه وتعتب عليه لأنه لم يظهر لها الثقة التى كانت تنتظرها . خير لها أن تدسس إلى أعماق سره ولا تجعل شيئاً من الأوهام يقف حائلا بينهما . ولكن كيف ينظر هو إليها ؟ أليست فى نظره فتاة وحيدة لا تعرف عن نفسها شيئاً سوى أن ريحانة الكريمة تضمها إلى جناحها ؟ ألا يكون مثل يكسوم ؟ ألا يكون كل ما ظهر منه نحوها نوعاً من إعجاب السيد بجارية حسناء ؟ ألا يكون قد أحس شيئاً جديداً بعد أن تخطى حدود

الصبا وأصبح كما تراه رجلا ؟ إن تلك الشهور الأخيرة قد أضافت عشر سنوات إلى سنه وسلبته تلك السذاجة الطيبة التى كانت تجعله زميلا صديقاً . . . لم لا يكون . . .

ولم تقو خيلاء على المضى فى ذلك التفكير المظلم ، فليس من الوفاء لسيف أن تقرن صورته بصورة أخيه يكسوم القاسى الذى تنطق كل جارحة فيه أنه فظ طاغية . . .

لم لا يكون . . .

وسمعت عند ذلك حفيف أقدام على بسط البهو فدق قلبها سريعاً ، ولكنها لم تلتفت وبقيت حيث هى تنظر إلى الوعاء المرمرى ، وبدأت عند ذلك حقاً تلتفت إلى لون الوعاء ونقوشه البديعة التى تشبه الوشى فوق ثوب الحرير . وكانت الصورة التى عليه تمثل جانباً من بستان فيه شجر باسق يظلل رقعة خضراء تتخللها شجيرات تتدلى أغصانها محملة بعناقيد مرسلة من الزهر ، وكانت الطيور تبسط أجنحتها بعضها يسبح فى الهواء وبعضها يهبط نحو الأرض ، والقمر الكامل فى أعلى الصورة يبعث أشعته على شابين فتى وفتاة يسيران فى الممشى ، وقد تعاقدت يمناه بيسراها وهما يبسمان نحو القمر .

لقد طالما وقفت مع سيف يتحدثان فى إعجاب عن الصورة ونقشها قبل أن يأتى الشيخ أبو عاصم إلى الدرس .

واقتربت الخطا خفيفة فخفق قلب خيلاء ثائراً ولكنها لم تلتفت ؛ هى هى خطاه فهى تعرفها من بعيد . وسمعته يناديها باسمها فى نغمة عجبت

لها ، هى نغمته التى تعودت أن تسمعها من أمد بعيد كلما أقبل نحوها فى أصائل الربيع . ولم تدر هل التفتت إليه آخر الأمر أو بقيت جامدة فى مكانها فإنها وجدته ممسكاً بيدها يتدفق فى تحيته وعيناه معلقتان فى عينيها مخلصتان كعهدها بهما صريحتان تشعان مرحاً ، وقال مبادراً :

— أنت هنا ؟ لقد بحثت عنك فى كل مكان ، فى البستان وفى جناح الملكة وفى حجرتك وأنت هنا تخفين نفسك عنى وراء الآنية المرمرية ؟

فقالت فى نغمة عتاب :

— كما أخفيت نفسك عنى .

ونسيت كل العبارات المقدرة التى رددتها فى نفسها من قبل حتى حفظتها ، كما نسيت شكوكها التى كانت تتدافع فى صدرها منذ لحظات . وازدحمت المشاعر على لسانها تريد أن تتدفق ولكنها لم تنطلق ، فبقيت صامتة وقنعت بما نطقت به عيناها . ولكنه لم يقف ليقرأ ما على وجهها ولا ليستمع إلى ما تنطق به عيناها بل أسرع غير متحفظ يقص عليها ما كان بينه وبين أمه منذ فارقها فى الصباح ، نظر بعد أن قص عليها ما أراد إلى الوعاء المرمرى الذى كانت خيلاء واقفة عنده فقال لها :

— أتقفين وحدك عند الوعاء ؟ أليس هنا موقفنا معاً ؟ ماذا ترين فيه يا خيلاء ؟ حدثينى فإنى أخذت الوقت كله لنفسى ، وأحب أن أروى سمعى من صوتك . ماذا ترين فى هذا الوعاء ؟ كنت أسمع منك عنه أحاديث طلية ولكنك تعرفين أننى أعجز عن حفظ هذه الأقوال التى تحسنين صياغتها .

فقالت خيلاء باسمة :

ـ قطعة من المرمر الوردى الجميل .

فقال سيف : أهذا كل ما عندك ؟ إنك اليوم متحفظة ، كأنك تعرفين أننى أحب أن أتكلم . نعم قطعة من المرمر الوردى الجميل كانت يوماً فى جوف صخرة ، قد يتخذها حجار ليضعها فى جدار بيت ، أوَ تتخذها عجوز فقيرة لتصنع منها رحى أو تربط بها حبل عنزها .

ولكن انظرى يا خيلاء كيف حولها صانعها إلى تحفة حية ، بل هى أكثر حياة من كثير من الأحياء .

هكذا هى تمثل أمامنا دليلا على ما يستطيع الإنسان أن يصنع من الحجارة . وهكذا هى تنطق قائلة : « أيها الأشقياء الذين تفسدون الحياة على أنفسكم بالغباوة والحماقة ، إنكم تستطيعون أن تصنعوا حياتكم بأيديكم . تستطيعون أن تجعلوا منها وعاء مرمرياً بديعاً بدلا من تركها قطعة صماء من الحياة » .

وكانت خيلاء تستمع إليه فى نشوة ، وتعجب أن يكون هذا الذى يتكلم هو سيف الذى رأته فى الصباح . بل كأنها كانت تستمع إلى شخص آخر غير الشاب المرح الذى كان يجلس معها إلى الشيخ أبى عاصم ويكاد يضيق بما يفيض فيه الشيخ من المعانى . لم يسبق لها أن سمعت منه مثل هذا . لئن كان تبدل فما أسعد هذا التبدل . ومضى سيف يقول :

ـ كنت كلما وقفت هنا إلى جنبك يا خيلاء أحس شيئاً غامضاً

لم أكن أفهمه وإن كنت أحسه . انظرى إليه يا خيلاء من بعيد .

وجذبها من يدها خطوة إلى الوراء وضغط على كتفها وهو يجذبها . وأغضت خيلاء وعلت ابتسامتها حمرة .

وقال سيف :

ــ كأنها قصيدة . كأنها من تلك القصائد التى كان الشيخ يمليها علينا مترنماً فى إنشادها وأنا أدارى وجهى حتى لا أظهر ضحكى . لم أكن أفهم من قوله شيئاً وكنت أعجب لك كيف كنت تستمعين إليه فى استغراق . كأنها قصيدة . ألا ترين ذلك يا خيلاء !

فقالت خيلاء باسمة :

ــ هى كذلك إذا شئت ، أو هى كما أسميها أنا فيما بينى وبين نفسى . . .

فقال سيف مبادراً : ألها عندك اسم؟ لقد حسبت أننى أول من قرأها . وضحك معتذراً .

فقالت فى صوت خافت :

ــ أسميها لحظة مسحورة . لحظة من اللحظات التى تمر بالأحياء فتهزهم وتأخذ بمشاعرهم وتنقش على قلوبهم ثم يثبتها الفنان على قطعة جامدة من الحجر ، فإذا هى مثل هذه الصورة التى نسميها قصيدة أو تحفة حية .

فقال سيف فى حماسة وإعجاب :

ــ صدقت يا خيلاء وما أبرعها من تسمية حقًّا إنها لحظة

مسحورة ، جعلها الفنان تتحدى الزمان والتغير والفناء ، وتبقى خالدة ثابتة وإن تبدل كل ما حولها . ذهب الفنان الرومى الذى صنعها ، وذهب هذان الشابان اللذان كانا يقفان يوماً فى ظلال البستان المزدهر ، ودار القمر دورات لا يحصى عددها ، ولكن هذه الصوره بقيت خالدة على وعائها . البستان مزدهر أبداً والطير لا يهبط من سمائه والشابان يقفان باسمين ويشيران إلى البدر الذى لا يعتريه محاق . السعادة التى تغمرهما فى مأمن من صروف الدهر . ذهب الجزء الفانى من هؤلاء جميعاً وبقيت الصورة تتضمن الجانب الخالد الذى لا يفنى . هما هناك شابان لا يعتريهما كبر ولا ضعف ولا يداخلهما حزن ولا هم . هو لا يتغير وهى لا تشك . هما هناك دائماً سعيدين يشيران إلى البدر ويتمتعان بالشباب . بل إن الغصون هناك دائمة النضرة تجرى فيها مياه الحياة ، وذلك الطير لا يسف ولا تنقطع أغنيته .

وعلى فجأة منها رفع يدها إلى فمه فاختطف منها قبلة . وتمنعت خيلاء فى رفق فأرسلها وقال فى شيء يشبه الاعتذار :

– لو كنت فناناً لخلدت موقفنا هذا .

فقالت باسمه :

– أيستحق عندك الخلود ؟

فقال سيف :

– وهل تشكين يا خيلاء ؟ لو كنت فناناً لأبدعت صورة لا نكبر فيها ولا نفترق ، نكون فيها مثل هذين . لحظة مسحورة حقًّا . وأخذ يدها

فى شىء من القسر فرفعها مرة أخرى إلى فمه فلمسها بشفتيه . وسمعا من وراءهما صوتاً يقول فى رفق :

– لحظة مسحورة حقًّا .

والتفتا إلى الوجه الباسم الذى طلع عليهما وقالت خيلاء فى صيحة مكبوتة :

– مولاتى !

فقالت ريحانة فى مرح :

– أشركانى فى حديثكما ، فإنه يجلو قلبى . ماذا سمعت منك يا سيف ؟ لحظة مسحورة ؟

فقال سيف : نعم لحظة مسحورة يا أماه .

وكان ينظر إليها باسماً هادئاً وهو واقف . ومضى قائلا فى هدوء :

– كنا نتحدث عن هذا الوعاء المرمرى . انظرى إليه يا أماه .

ولمعت عينا الملكة فى رفق وقالت باسمة :

– صورة طالما استرعت نظرى .

وقالت فى سرها :

– صورة قديمة تتجدد ، وحديث يعيد نفسه دائماً .

ووقفت تتأمل الصورة وهى لا تكاد تلتقط لفظاً مما كان يقوله ولدها وهو يبين لها دقائق الصورة ويعيد عليها ما قاله لخيلاء .

وقالت فى سرها مرة أخرى :

– أهذه أول مرة يرفع سيف يد خيلاء إلى شفتيه ؟

ثم قالت لهما :

— ألا نقضى ساعة فى البستان ؟ هلما فإن الليلة مقمرة .

وقضوا ثلاثتهم ساعة طويلة حتى سطع القمر وراء الظلال ولف الليل بأشعته الهامسة ، وكانوا يتناجون بحديث ذى شجون .

ولما عادت خيلاء إلى وحدتها كانت تحس أن الهواء يتنفس عطراً وأن الحياة يغشاها جمال باهر وأن الفضاء يردد أنغاماً سعيدة . وبقيت صورة سيف ماثلة أمام عينيها مع صورة الوعاء المرمرى ، وكانت حرارة شفتيه ما تزال مطبوعة على أناملها . ورفعت يدها إلى شفتيها فى رفق كأنها تريد أن تستوثق من تلك الحرارة الرفيقة . وتمنت لو كانت مع سيف صورة كصورة الوعاء المرمرى لا تبلى ولا يدركها ما يدرك الأجساد من الفناء ، ولا يعتريها ما يعترى قلوب البشر من تقلب أو هموم أو شكوك .

٧

قال الراوى :

انصرف الزائران اللذان كانا مع الشيخ أبى عاصم فى الصباح ، وبقى هو فى مجلسه مائلا بظهره على الوسادة التى وراءه ، شاخصاً ببصره فى الفضاء الذى وراء باب الحجرة الفسيحة ، وكانت ضبابة خفيفة

تنعقد فى الجو تضل فيها أشعة الشمس القليلة التى تنفذ إلى الباب ، وتحجب عن النظر زرقة السماء . فكانت نظرته لا تستقر عند غاية كما كانت أفكاره لا تستقر عند غاية . وبدت له الحياة مثل الفراغ الأغبش الذى لا معالم فيه ، عماء من فوقه هواء ومن تحته هباء ، لا تلوح فيه بارقة تتطلع فيها العين إلى ما وراءها . ماذا كان بالأمس وماذا يكون غداً ؟ تذكر الأمس فوجد فيه كوارث تنبعث منها كوارث مثل أمواج البحر المضطرب كل منها يسوق ما أمامه ، وهى جميعاً تصدع الساحل فى عنف . ولو بقيت من بعد تلك الكوارث المتلاحقة بقية من الأمل لكانت الحياة تبدو أقل جهامة ، لأن الأمل يبعث فى الشقاء شيئاً من الرفاهة . ولكن أين يلوح وميض ذلك الأمل الخابى ؟ لم يجده الشيخ فى نفسه فإنه كان فى حياته وحيداً كأنه غصن اهتصر عن شجرته . فلماذا حرص على البقاء ولم يلحق بأصحابه الذين كانوا إلى جنبه وسقطوا فى المعركة ووجدوا الراحة فى النسيان ؟ ذهبوا جميعاً وخلفوه بين هؤلاء الذين لا يعبأون إلا بأنفسهم وبما يعود عليهم من النفع فى المال أو الجاه ، ولا يغضبون إلا بمقدار ما يصيبون أو ما يصيبهم . وهل فى مثل نفيل ابن حبيب بقية من خير ؟ ذلك الذى كان يحدثه منذ ساعة قصيرة ويدعوه إلى العودة معه إلى أودية الصحراء ليثيرا معا ثورة القبائل على أبرهة . أليس هو الرجل الذى خان قومه من قبل عندما وقفوا لأبرهة منذ عشرين عاماً ؟ كان أبرهة عند ذلك يستميله بالوعود ويبعث إليه الهدايا ، ويلوح له بالسيادة فى قومه إذا هو تخلى عن المعركة . لم يتردد عند ذلك فى

شيء وانقلب على أصحابه ففر من المعركة بلا خجل وأوقع الفشل فى أصحابه ، ولم يكن ذلك كله إلا من أجل السيادة والمال ، ومن أجل الحقد الذى كان يضمره لمنافسه الشاب ذى يزن أبى مرة . وذلك الشيخ ذو نفر الذى جاء مع نفيل ليذكره بمجد حمير الزائل ويقول له بصوته المتهدج المرتعش لقد ذللنا . أذللنا لأن أبرهة ذاهب إلى قريش ليهدم كعبتهم ؟ ألا يغضب إلا لأن أبرهة يصلى فى القليس ولا يعرف آلهة قريش ؟ ألا يعبأ بشيء سوى اللات والعزى ومناة ؟ أما ذلك الذل الذى استعبد فيه الأحرار وأهدرت فيه الكرامة ، والحرمان الذى يعيش فيه أهل المدن والقرى والبوادى لكى يوفروا للسادة السفلة ما يتنعمون فيه من ترف ، وذلك الظلم الذى يخبط الناس خبط عشواء ليمهد للطغاة أسباب السرقة ، أما هذا كله فلا يعبأ به ذو نفر . أين ذو جدن وأين ذو يزن وأين الآخرون الذين سقطوا وقوائم السيوف فى أيديهم ، أو هاموا على وجوههم فى الأرض ليستأنفوا الجهاد إذا ما سنحت الفرصة ؟ وتذكر صورة الشاب الفارس أبى مرة ذى يزن وهو يحارب إلى جنبه حتى أثخنته الجراح ، وتمثل صورته وهو يتسلل فى الظلام إلى ظهر فرسه ويناديه باسمه هامساً بصوته الضعيف قائلا : « إذا كتبت لك الحياة فانظر إلى زوجتى وولدى » . إنها لبقية ضئيلة تلك التى بقيت بعد هؤلاء . أما هو ، ففيم امتدت به الأيام ؟ وتمنى الشيخ لو كانت الجراح التى أصابته فى ذلك اليوم قد ذهبت به مع صديقه وابن عمه ذى جدن ؛ أو لو استطاع أن يقوم على قدميه مترنحاً من بين جثث القتلى كما فعل

ذو يزن، ثم يلتمس فرساً من بقايا المعركة فيتسلل فى الظلام ضارباً فى الأرض . ولكنه أفاق من غشيته فوجد نفسه فى خيمة ووجه أبرهة الأسود يطل من فوقه . وتذكر إذ صاح به : « نح وجهك الكريه عنى » ، ولكن أبرهة ضحك مقهقهاً وقال : « إنها فكاهة ظريفة » ثم التفت إلى أصحابه قائلا : « اعنوا بجراحه » . ثم تذكر اليوم الذى رأى فيه أبرهة مرة أخرى بعد ذلك وكان أول ما قال له : « أما زلت تكره النظر إلى وجهى » ؟

وكانت لحظة ضعف غلب عليه حب الحياة فيها فقال له :

— « بل أنت أكرم الناس نفساً أيها الملك » .

فما باله يلوم الناس على خضوعهم لأبرهة وقد كان من أولهم خضوعاً . وأحس الشيخ أن الجو يزداد ظلاماً . فقد مرت به هذه الأعوام العشرون وهو يحاول أن يصرف نفسه عن التفكير فى الحياة منقطعاً إلى الكتاب . وسافر فى أنحاء الأرض يلتمس ما يسميه الحكمة حتى أصبح الناس يقولون عنه حكيم اليمن وعالمها . فماذا أجدى عليه ذلك العلم أو تلك الحكمة ؟هل رعى أبرهة علمه وحكمته ؟ هل رعى أذناب حاشيته أنه حكيم اليمن ؟ لم يكن عندهم إلا رجلا تافهاً يتقرب إلى القصر بأن يكون معلماً للصبية ، ولو كان قد خرج ليفسد فى الأرض أو يقطع الطريق ويسلب الناس أو لو رضى أن يتذلل لأبرهة ويأخذ أجره على ذلك بسيادة مزيفة يستطيع بها أن يعسف ويملأ خزائنه من ضرائب العسف ، لو أنه فعل ذلك لكان أكرم عند الناس وأسمى

قدراً . وها هى ذى الأيام تتقاضى حقها منه إلى آخر ذرة ، ولم يبق له إلا أن يشرب الكأس حتى ثمالتها . لم يبق له إلا أن ينتظر انقضاء آخر أيامه وحيداً محروماً معدماً .

وسمع الشيخ فى وسط عاصفته كأن صوتاً يناديه باسمه ، ومن ذا الذى يأتى إليه فى تلك الساعة فى بيته المنعزل المهدم ؟ أهو نفيل يعود إليه ؟ أيجرؤ ؟

وقام فى شىء من الغضب إلى باب الحجرة فأطل من الطنف على البستان الأشعث ونظر من خلال أشجاره نحو الباب الواسع الخشبى الذى تراكمت الرمال تحت عقبيه ، وقال :

ــ من أنت ؟

فخرج سيف من وراء الفروع المتسلقة التى كانت تتوكأ صاعدة على جانب الطنف وأعلن عن نفسه .

فصاح الشيخ مرحباً وكان صوته يعبر عن دهشته ، وتحرك ليهبط على الدرج المحطم وهو يقول :

ــ لقد تكلفت مشقة فى سعيك إلى هنا .

فقال سيف وهو يسرع نحوه مادًّا يديه :

ــ عفواً يا سيدى الجليل فإنه لا يشق علينا إلا أن نحرم منك .

وعاد الشيخ والفتى يسنده من ذراعه إلى ما يشبه البهو ، لولا أنه كان عارياً من كل أثاث إلا أريكة خشبية خشنة تعلو شبرين عن الأرض وعليها فروة شاة تغطيها ، ومن ورائها وسادة . فقال الشيخ إلى

الأريكة ليصلحها وأومأ بيده كأنه ينفض عنها غبارها قائلا :

– لم تكن مثل هذه الأريكة بمجلس للأمير .

وتبسم سيف وهو يجلس قائلا :

– كل ما فى هذه الدار كريم يا سيدى الشيخ .

فتبسم الرجل ونظر إليه عاطفاً ، ثم التفت عنه ذاهباً إلى داخل الدار فغاب لحظة . وجلس سيف على الأريكة وهو يدير بصره فى البهو ، وداخله ما يشبه الحزن أو الرحمة . الشيخ يؤثر هذه الدار المهدمة على غمدان ! وعاد الشيخ ووجهه متهلل وأعاد كلمته قائلا :

– لقد جشمت نفسك مشقة يا سيدى .

فأجاب سيف : لو كان فى سيرى مشقة لكان جزائى مضاعفاً إذ أراك سليماً معافى .

وقال الشيخ وهو يجلس :

– أعائد من وادى ضهر ؟

وجاءت خادم تحمل طبقاً من الخوص فيه أصناف من الفاكهة ، ووضعته على الأرض بين يدى سيف ، ثم خرجت تتعثر فى أذيال ثوبها البالى . ومد سيف يده إلى الطبق وهو يقول :

– بل جئت من صنعاء . أهذه الفاكهة من بستانك ؟

فقال الرجل باسماً :

– إذا شئت أن تسميه بستاناً .

وقال سيف وهو يذوق تفاحة :

ـ ما أشبه بستانك هذا ببعض أركان وادى ضهر .

ونظر إلى إفريز الجدار من أعلى ، وكانت عليه زخرفة كبيرة الشبه بزخرف قصر ذى جدن . وكانت الجدران مطلية بجص أبيض لامع لم تبق منه إلا قطع قليلة ، وأما الأبواب والنوافذ فتحتفظ بأثر من روعتها ، وبقية ألواح النوافذ المحطمة كانت من المرمر الذى اعتاد سادة صنعاء أن يجعلوه فى نوافذهم وسقوفهم فلا يحجب لمعة الشمس وإن حجب حرارتها .

وقال سيف ماضياً فى الحديث :

ـ لم أذق مثل هذه الفاكهة فى غمدان ، بل هى صنف لم أر مثله من قبل .

فانبسطت أسارير الشيخ وقال فى بساطة : أأعجبتك حقًّا ؟ وأخذ يمد يده إلى الطبق فيأخذ من أصنافه قطعاً يضعها أمام سيف وهو يتحدث عنها وعن أشجارها ، كأنه يتحدث عن جمع من الأصدقاء لكل منهم عنده قصة .

فهذا عنقود من العنب الملاحى نقلت أولى أعواده منذ ثلاثين عاماً من وادى الخارد هدية من صديق كان شيخاً لخثعم . وأما العنب الأشهب فقد نقل من وادى ضهر من حدائق ذى جدن جد الأمير نفسه .

وتبسم الشيخ قائلا :

ـ كان جدك صديقاً كريماً يا سيف وما تزال شجرته كريمة عندى .

وأما شجر التفاح فإنه نقل من أعلى أودية السراة أهداه الملك ذو نواس، شكراً لى على خدمتى فى القضاء على ثورة أهل نجران . ألا تذكر قصة هذه الثورة ، ثورة أتباع المسيح على ذى نواس ؟

وكان سيف يستمع إليه فى شغف كأن كل قطعة من الفاكهة إنسان من بقية الماضى ، فلم يتنبه إلى سؤال الشيخ إلا بعد مضى لحظات، فقال فى شىء من الارتباك :

ـ لا شك يا سيدى الشيخ أنى أذكر تلك القصة ولكنى لم أعرف أنها وقعت فى هذه السنين القريبة .

فقال الشيخ باسماً :

ـ لم تكن فى هذه السنين القريبة يا ولدى ، فإنها وقعت منذ خمسين عاماً .

ومضى فى حديثه متدفقاً فى سرد الذكريات التى تثيرها فاكهة البستان ، وكان يتحدث كما لو تحدث إلى نفسه . وكان سيف ينظر حيناً إلى وجهه المجعد الذى خلعت عليه الحماسة شيئاً من الحمرة ، ثم إلى جدران البهو المتداعية وإلى نوافذه المحطمة وإلى الفضاء الأغبر الذى خلف بابه

ولما فرغ الشيخ من حديثه نظر إلى سيف عاطفاً كأن تلك الصور القديمة قد أشاعت فى نفسه أنساً بعد وحشة ، وتنفس نفساً عميقاً وهو يقول :

ـ لقد نسيت نفسى فأطلت الحديث عن هذه الأشياء التافهة

التى لا تمثل لك شيئاً . إنها أزمان مضت يا سيدى الأمير ولم يبق منها هنا إلا شيخ محطم تراه مثل النخلة التى جف ماؤها وذوى أعلاها ونخر أسفلها .

فقال سيف فى حماسة :

– بل هى أحاديث طلية وما أشد أسفى إذ حرمت من مثلها هذه المدة الطويلة ، ولعلها تتجدد يا سيدى الجليل .

فقال الشيخ هادئاً :

– وكيف حال سيدتى ؟

فقال سيف :

– هى فى وحشة من غيبتك .

فنظر إليه الشيخ متردداً وتحرك وجهه المجعد حركة خفيفة وقال سيف ماضياً فى الحديث :

– بل إن صنعاء كلها فى وحشة من غيبتك ، وما أكثر ما أسمع من سؤال أهلها عنك !

فقال الشيخ وبسمة ضئيلة تنطلق على وجهه :

– صنعاء فى وحشة من غيبتى ؟ ومن أنا فى صنعاء ؟ وهل أنا إلا بقية من ماض بعيد لا محل له اليوم فى مكان ؟

ونظر سيف إليه صامتاً ومضى الشيخ قائلا :

– إنه لمنظر حزين عندما يجف البستان وتيبس أشجاره وتتساقط الأوراق الصفراء عنها فتذروها الرياح ولا تبقى منه سوى نخلة وحيدة

يضطرب سعفها فى عنف أمام عاصفة هوجاء . ما أشد شقاء النخلة الوحيدة والرمال السافية الكالحة تغطى الأحواض التى حولها بعد أن كانت منابت لحمائل الزهر .

وصمت لحظة ثم قال :

ــ عفواً يا سيف فإنى أكاد أعجب من نفسى إذ أقول لك هذا ، فكأننى نسيت أنك أمامى . إنما هو مثل أضربه وما أكثر الخطأ الذى تطويه الأمثال فى زخارفها !

فقال سيف :

ــ ولكن النخلة الوحيدة لا تبخل بظلها أبداً . هأنذا أمضى مع المثل وما أحسبه إلا صادقاً .

فقال الشيخ باسماً :

ــ ومن ذا يعبأ بظل نخلة ذاوية ؟ إنه لا يغنى شيئاً إذا اشتد الحر فى الظهيرة ، ولا يقدم للناس عذراً بثمرة ترجى منه . ما أنا إلا رجل تخلف عن عالمه خطأ . ذهب لداتى الذين عرفتهم وعرفونى وزالت معالم الحياة التى أنست إليها ، فأنا لا أرى حولى إلا أغراباً أجهل عنهم كل شىء ويجهلون كل شىء عنى .

فقال سيف :

ــ قد تجهلهم أنت يا سيدى ، ولكن من ذا يجهلك أنت ؟

فقال الشيخ هادئاً :

ــ ومن أنا يا ولدى ؟

فقال سيف فى ثبات :

ـ حكيم صنعاء بل حكيم اليمن . هذا ما يقوله الناس جميعاً .

فقال الشيخ :

ـ حكيم اليمن ؟ ما أطيب الناس إن قالوا هذا ! لست أتواضع يا سيدى الأمير ولا أحب التواضع الكاذب الذى يستدر الرحمة أو يختلس المجاملة . أود مخلصاً لو استطعت أن أتجرد من هذا الفكر الذى أشعرنى الجدب والإفلاس ، فكلما تعمقت ضميرى لم أجد فيه شيئاً يستحق أن أسميه فكراً . فإذا عثرت على شىء أظنه يستحق أن أجهر به لم أجد جدوى فى أن أنطق به . ولمن أنطق ؟ لمن أتحدث ؟ أللقليلين الذين يستطيعون أن يستمعوا ومع ذلك فهم لا يريدون إلا أن ينصرفوا إلى التافه السخيف ؟ أم إلى الأكثرين الجهلاء الذين لا يجدون وسيلة إلى شىء غير ما يمسك الرمق ؟

فقال سيف : إذن تعيش لفكرك وحكمتك ، وحسبك أن تكون مورداً لنفس بشرية واحدة .

فأطرق الشيخ ثم قال فى صوت خافت :

ـ لو علمت أن عندى ما يروى نفساً بشرية لما ترددت فى شىء . ليس عندى ما يروى ، فما أنا إلا رجل إذا عاش مع الناس عاش وحده . إن المغنى لا يطرب إذا غنى فى سجنه لأن طربه مستمد من استجابة سامعيه .

فقال سيف : أليس هذا هبوطاً بالفكر ؟

فقال الشيخ : ولم تسميه هبوطاً ؟

إن الناس يخدعون أنفسهم بمثل هذه الأباطيل ، وما هى إلا محاولة ماكرة لصرف الفكر عن أداء واجبه فى الحياة . ليس المفكر مثل الوعاء الممتلئ الذى يفيض بما فيه عن مدد غير منقطع . لا يستطيع المفكر أن يؤدى الفرض الذى توجبه عليه طبيعته إلا إذا اتصلت أسبابه بالناس واستطاع أن يستمد منهم نبع أفكاره . فهو يعطيهم ما يستمده منهم مثل النحلة التى تستمد شرابها من قطرات الزهر ثم تحيله إلى عسل فيه حلاوة وشفاء . الأفكار لا تعيش فى فراغ ولا تجد صدى إلا فى القلوب . والمفكرون قوم فيهم شطط وكلفة لا يرضون إلا إذا تحركت قلوب الناس ليستمدوا الإلهام من حركتها . ولكن الحركة تكلف الناس جهداً كما أنها تزعج الذين اطمأنوا فى مقاعدهم ، بعضهم يقتعد الأكتاف من عل والآخر يرزح مطمئناً تحت العبء الثقيل الذى يحمله ، وكلاهما لا يحب أن يتكلف مشقة . فالراكبون على الأكتاف يخشون مشقة النزول ، والرازحون تحت الأعباء لا يستطيعون أن يبذلوا جهداً ليتخلصوا من أحمالهم .

فما الذى يحملنى على أن ألتمس المتاعب لنفسى ولغيري ؟

فقال سيف باسماً :

ـــ لم أقصد كل هذا يا سيدى المبجل وإن كان ما أسمعه يلذ سمعى . ولكن قولك يحملنى على أن أسألك : هل ترتاح إلى أن تترك الشر مستقراً لأنك تشفق من الحركة ؟ ماذا تريد أن يبقى للناس إذن ؟

فقال الشيخ فى شىء من الحنق :

ـ تبقى فيها الأسواق التى تعرض ما يطلبون .

فضحك سيف قائلا :

ـ عفوك يا سيدى فإنها كلمة فكهة . أتقصد الخبز واللحم والمساكن والملابس ؟

فقال الشيخ باسماً :

ـ صدقت يا ولدى . وإن شئت فأضف الخمر والعطور وأنواع العقاقير من مخدر وسم وترياق .

فقال سيف :

ـ أهذا كل ما ينبغى أن يعرض فى الأسواق ؟

فقال الشيخ :

ـ فى أسواقنا . . . هذا ما يطلب الناس حقًّا . . . هذا كل ما تتحرك نفوسهم إليه .

فقال سيف :

ـ أليس للفكر مكان ؟ ولا للأدب ولا العلم ولا الحكمة ؟ أأنت تقول هذا يا سيدى الجليل ؟

فقال :

ـ لأنى لست أحب أن أكذب نفسى أو أكذب الناس ، ولكنى لست أنكر قدر العلم أو الحكمة أو الأدب ، وهل أنكرها وهى كل ما أدعى ؟

فقال سيف :

– ما الذى يحملك على أن تحسب أن الناس لا يطلبون شيئاً من ذلك ؟

فقال الشيخ فى شىء من المرارة :

– رأيتهم يختارون ما يطلبون وينصرفون عما لا يحسون حاجة إليه . هذا كل شىء . وجدتهم يشترون ما يتملق غرائزهم البهيمية وما يثير الحيوان فى طبيعتهم ، ويبذلون أثماناً غالية حتى إنهم ليشترون الإنسان نفسه إذا وجدوا فيه متعة . أليسوا يشترون المرأة ليتخذوها أمة ومتعة ؟ ألا ترى الناس يهبطون بالإنسانية إلى مستوى السلعة إذا وجدوها ترضى حيوانيتهم ؟ ولكنهم لا يقذفون قطعة من الخبز الجاف إلى إنسان جائع . يبذلون الأموال فى الخمر والميسر وفى الجواهر – فى الحجارة الثمينة ، وفى العطور والحرير ، بل يرضون أن يبذلوا الأموال ثمناً لكلمة نفاق أو رياء أو مديح أو دعاية ، ولكنهم ينصرفون ساخرين عن الإحسان ومن الكلمة التى تثير المعانى السامية – أقصد المعانى التى تقلق النفوس أو تكلف الأجسام شيئاً من المشقة . هم يختارون ما يشاءون ولا حيلة لأحد فى حملهم على غير ما تهوى نفوسهم . أيستطيع أحد أن يلقى سلعته على الناس قسراً ؟ تقول لا ؟ إنهم يدوسونها بالأقدام ثم ينصرفون ساخرين . إذن فأولى بمن كانت عنده سلعة كاسدة مثل سلعتى أن يتحمل وحدته وأن يقنع بجدب الوحشة والعزلة ، فذلك أرفق بى وأهدأ لضميرى .

فقال سيف فى شبه عتاب :

– قد يكون أرفق بك ولكنه لا يمكن أن يكون أهدأ لضميرك . بل عفواً أيها السيد الجليل إذا قلت كأنك أنت تشفق على نفسك من الحركة ، لا تؤاخذنى فيما أقول يا سيدى فإننى أحد من يطلبون ما عندك .

فقال الشيخ باسماً :

– أنت ؟

فقال سيف : عفواً يا سيدى ، فكأنك تشير إلى ما اعترانى فى تلك الأشهر الماضية .

فقال الشيخ هادئاً :

– بل أشفق عليك يا ولدي .

– وكيف ؟

فقال الشيخ بعد لحظة صمت :

– لقد كلمتنى صريحاً فلأجبك صريحاً .

ثم سكت لحظة أخرى واستأنف بعدها :

– إنك أمير وابن أبرهة .

وصمت مرة أخرى ينظر إليه . وخيل إليه أنه يرى حمرة خفيفة على وجه الفتى .

ومضى قائلا :

– وهذا الذى أصفه لك من فساد الضمائر وإسفاف النفوس وزر من أوزار الحكم . لا تؤاخذنى فقد قلت إننى سأكون صريحاً . بل

لا يغضبك قولى لأننى أقوله لك على أننى أمتّ إليك بصلة من القربى لا تعرفها .

فقال سيف :

– بل أعرفها فإن أمى أخبرتنى .

فقال الشيخ مرتاحاً :

– لست أحاول أن أسمو إلى مقام الملكة فما أنا إلا رجل من العرب وهى ملكة اليمن . ولكنى أتوسل إليك بصلة القربى ليكون قولى عندك رفيقاً . فإذا أردت أن تحرك الأفكار وأن تجعل الناس يتحركون كنت بمثابة من يريد أن يزلزل الأرض تحت أقدامه .

فقال سيف :

– ولكن الحاكم يستطيع أن يصلح ويستطيع أن يسمو بالناس إذا خلصت نيته فى الإصلاح .

فقال الشيخ وفى صوته هزة :

– هيهات يا ولدى ! لعلك نسيت أننى عربى . لعلك نسيت أننى حاربت يوماً فى صفوف العرب ضد أبرهة .

فأطرق سيف حيناً ثم قال :

– ولكن ذلك عصر مضى . وأبرهة اليوم ملك اليمن والعرب رعاياه . بل لعلك أنت تنسى يا سيدى الشيخ أننى ابن ريحانة .

وخفق قلب الشيخ وقال :

– ما أجمل هذا يا ولدي ! كأننى أسمع صوت ذى جدن .

فقال سيف :

— لقد نسيت يا سيدى أن أحمل إليك رسالتى . فإن أمى بعثت بى إليك ترجو أن تعود إلى غمدان .

فقال الشيخ :

— عهدتها نبيلة كريمة ، فاحمل لها شكرى وتحيتى .

وصمت لحظة ثم قال :

— واعتذارى .

فقال سيف فى قلق :

— إذن فهل أقول إننى كذلك أتيت إليك راجياً ؟ وهل أعزز رجائى باسم خيلاء ؟

فقال الشيخ متأثراً :

— أنت تعرف مالك وما لخيلاء عندى ، ولكنك لا تعرف ما للملكة الرحيمة من دين فى عنقى .

واستند برأسه إلى الوسادة التى وراءه وأغمض عينيه قائلا :

— احمل إلى الملكة الجليلة جميل عرفانى ورجائى أن تعفينى من العودة إلى صنعاء . لن أستطيع أن أعيش هناك طويلا ، وأحس أن صفحتى قد طويت أو أوشكت أن تطوى . فدعنى أقيم هنا فى هذه الدار البالية أنتظر يومى . هنا لا أرى إلا السماء والنجم أو هذا البستان الأشعث المضطرب ، أو حقول الأودية المحيطة بى حيث لا يلقانى إلا العامل الذى يسوق الثور أو الراعى الذى يسير مع كلبه وراء غنمه . فهؤلاء أقرب

إلى نفسى من كل السادة الذين أراهم فى أبهاء غمدان . لا . لن أعود إلى غمدان .

فقال سيف :

ـ لا يحملك الغضب يا سيدى على أن تعيدنى خائباً . ماذا أقول لك ؟ أأقول لك أيها الخال العزيز ؟

وتحرك الشيخ فى مجلسه وأدار وجهه قليلا .

ومضى سيف قائلا :

ـ قد عرفتك كما عرفت نفسى وإن كنت لا أبلغ أعماق حكمتك . وكنت أستمع إلى أقوالك أحياناً فى ضجر عندما كنت تتحدث عن قوم أمى الذين حاربوا أبى . وكنت إذا قلت لى إننى أشبه جدى كنت أحس كأنك تريد أن تحط منى ، ولكنى كنت عند ذلك لاهياً يحملنى الجهل والغرور على تياره لا على طبيعتى . وإنى أحس فى نفسى شيئاً جديداً أحس كأننى كنت نائما ثم استيقظت . فأنا أنظر اليوم إلى الناس كما أراهم . ولست أكذبك أن بؤس الأشقياء يحرك من نفسى أكثر مما تحرك الكبرياء . أحس فى قلبى أحاديث كثيرة وأتلفت أحياناً أريد أن أجد أذناً تسمعنى . وهناك خيلاء تستجيب لى ونهيم معاً فى أودية الفكر على غير هدى . فهل لك أن تكون هادينا ؟ ألا تجد سوقاً لحكمتك إلا أن تكون سوقاً عامة مزدحمة تلتمس لها الد واج فيها ؟ لا تنزل أيها الحكيم بالحكمة إلى سنة الأسواق كما يفعل باعة الخبز واللحم أو الخمر أو العطور ، لا تؤاخذنى إذا كان قولى عنيفاً فإنى أود أن تسمع حجتى .

وأطرق الشيخ فى صمت وذهب به خياله إلى بعيد عندما قال له أبو مرة : « أوصيك بولدى » . أيقول الفتى إنه يحس فى نفسه شيئاً جديداً ؟

ونظر إلى وجهه وإلى جبهته العالية وعينيه السوداوين العميقتين وتعبير ملامحه النبيلة وخطر له سؤال وهو يعلق به عينيه :

أما آن الأوان بعد ؟

ولم يملك أن قال :

ـ سأعود معك إلى صنعاء يا ولدى وإن كلفنى ذلك ما بقى من أيامى .

وكان الليل يلف صنعاء عندما دخل الراكبان من بابها الضخم ، وكانت الأنوار الباهرة تلمع من نوافذ القصر ومن وراء قبته المرمرية العالية . وذهب سيف إلى أمه بعد أن أنزل الشيخ فى غرفة بمنزل الضيوف ليحمل إليها بشرى عودة ابن عمها .

٨

قال الراوى :

مضى الخريف والشتاء ولم يعد أبرهة مع جيشه العظيم إلى صنعاء ، ولم يبعث خبراً بنصره على قريش ، ثم أقبل الربيع فى موكبه الحافل يختال بين البساتين ومروج الأرباض وفى الرحبة الفسيحة بين جبلى نقم وعيبان ، وتزينت الأرض تتبرج فى زخرفها ، والسماء تبدى صفاء ديباجتها لا تشوبها إلا سحب رقيقة تكلل الربى المزدهرة . وكان النسيم يهب دفيئاً يفوح بعطر الليمون والنارنج ، والحياة الجديدة تردد أغنية مرحة كأن لم يكن فى صنعاء خوف ولا كآبة ، وكأن لم يكن ملك الأرض غائباً فى تيه لا يدرى عنه أحد شيئاً . وجلست ريحانة فى شرفة القصر تسرح بصرها فى الأفق وخيل إليها أن الطبيعة الضاحكة تتحدى هموم الإنسان وغروره ومطامعه . لم لم يبعث أبرهة رسولا كل تلك الشهور الطويلة ؟ ألم تكن رحلة خريف ؟ أم هو فى شغل من تدبير ملكه الجديد بعد أن هدم الكعبة ودانت له قريش ؟ وهل نسى أن يجعل لسيف شطراً من ذلك الملك الجديد ، أو بدا له أن يقيم على الحجاز ملكاً من أتباعه الذين كانوا يتبعونه كالكلاب الجائعة تنتظر أن يقذف إليها بفضلة من المجد ؟ وكان فناء القصر يضطرب منذ الصباح الباكر بحركة

الجنود لأن يكسوم أعد لذلك اليوم موكباً عظيماً يسير فيه إلى الكنيسة الكبرى للصلاة من أجل انتصار أبيه . وسمعت ريحانة تصايح الأحباش برطانتهم التى كانت لا تفهم منها حرفاً وخيمت على قلبها سحابة . ماذا تحس فى أعماقها التى لا تستطيع أن تخفى عنها حقيقتها ؟ أكانت تلك التى تخفيها هناك أمنية أم خوفاً ؟ أيكون أهل مكة حقًّا قد غرروا بأبرهة وتركوه حتى تنفد مؤونته وتخور قوى جنوده من الحر والجوع والجهد ثم هبطوا عليه من رءوس الجبال فجأة فحطموا جيشه ؟ لم يبعث أبرهة رسولا منذ خرج ولكن الأنباء كانت تتطاير فى الظلام مثل خفافيش الليل تذيع فى الناس أن أبرهة قد هزم هزيمة طاحنة . أتحزن لتلك الكارثة لو كانت حقيقة ؟ ماذا كان على أبرهة لو قنع بملك اليمن واقتطع لولدها قطعة منه ليعوض عليه ما أصابه فى جده وأبيه وقومه ؟ ولكن يكسوم يعد الموكب ليستنقذ الانتصار بالصلوات .

وضحكت ريحانة ضحكة كادت هى تفزع منها . وعادت تنظر إلى أعماقها لترى ما تخفى بها ، أهى أمنية أم هى خشية ؟ وماذا يفعل يكسوم لو صح أن أبرهة قد هلك كما تقول الأنباء التى يتهامس بها الناس إذا خلا بعضهم إلى بعض فى ستر الظلام ؟ كان يكسوم يزداد حنقاً وقسوة يوماً بعد يوم ، ويزيده حنقاً ما يرفعه إليه جواسيسه من همسات الناس فى خلواتهم كانت الطباق الرطبة الجاهمة التى فى أغوار القصر تستقبل كل ليلة عدداً من وجوه صنعاء الذين يتهمهم الجواسيس بالتآمر للثورة . بل إن يكسوم لم يتردد فى أن يذهب

إليها هى ليحدثها عن ولدها سيف وعن خيلاء ، وأنهما يقضيان ساعات من الليل أو النهار وحدهما يتحادثان فيما لا يدرى أحد من الأحاديث ؛ ويحضران معاً دروس ذلك الشيخ الذى يفسدهما بآرائه التى لا تزيد على سفاسف العامة . فكيف تسمح لسيف أن يجالس فتاة مثلها ؟ وكيف يقيم الشيخ فى غمدان عزيزاً كأنه لم يكن فى يوم من الأيام من أعداء أبرهة ؟ أيبقى فى القصر ليسمم قلب سيف ويلقى ستاراً على اجتماعه بخيلاء ؟ وكان يكسوم فى ثنايا حديثه يشير إلى أن صبره كاد ينفد وإلى أن سلامة الدولة لا تعرف قرابة ولا مجاملة . ومع هذا فإنها ستذهب معه فى الموكب إلى الكنيسة وتصلى معه من أجل الانتصار حتى لا يجد سبيلا عليها . وسمعت صوت الأبواق ودق الطبول ورأت تحت بصرها صفوف الأحباش تنتظم فى صفوف وتستعد للموكب . ولن تستطيع أن تعتذر عنه بعذر من فتور أو مرض ، بل إنها توسلت إلى سيف أن يركب معها حتى لا يلهب غضب يكسوم عليه .

وكانت كلما فكرت فى ذلك الموكب زادت منه نفوراً . وأحست هاجساً يهتف أنه ينطوى على نكبة . أيسير موكب فى صنعاء الصامتة الكئيبة التى لم يمر عليها أشق من الشتاء المنصرم ولا أشد كساداً من ذلك الربيع ؟ لم تتوافد القوافل فى ذلك العام كعادتها من الشمال والشرق ، ولم تتلاحق السفن إلى شواطئ زبيد وعدن تحمل البضائع من أقصى أركان الأرض إلى صنعاء ، ولم تنعقد الأسواق فى ميادينها الفسيحة ولا فى أرباضها الفيحاء ، ولم يتزاحم أهل البوادى على الطرق المؤدية

إليها صاعدين من كل فج عميق بما عندهم من سلع يعدونها طوال العام انتظاراً للموسم الأكبر . ولم تكن صنعاء فى ذلك العام ملهى صاخباً فيه السمر إلى جانب البيع وفيه المجون إلى جانب الجد ، وفيه المسابقات والمباريات.والمناضلات والمفاخرات بالأشعار . لم تشهد صنعاء فى ذلك الشتاء المنصرم شيئاً من كل ذلك لأن الحرب تركتها خامدة مظلمة ، وكانت طرقها الخالية وساحاتها العارية تبدو كأنها بقية من عالم مندثر . فهل كانت مثل هذه المدينة لتخرج بقية أهلها إلى الطريق العظمى لتحية الموكب كما خرجوا لتحية أبرهة ؟

وجاءت الوصيفة الحبشية لتؤذن الملكة بأمر سيدها أن الموكب فى انتظارها . فسوت حلتها وحليها وقامت بطيئة بقلب ثقيل تسير فى البهو نحو السلم الرخامى . ولما بلغت باب القصر كان يكسوم هناك بوجهه الجاهم ، ومد إليها يده يساعدها على الصعود إلى هودجها . وسارت الخيول بعد أن استوى الموكب ، وكانت أصداء حوافرها تقعقع على الأرض الصلبة فى الطريق الخالية . وكانت البيوت العالية مغلقة الأبواب والنوافذ عن اليمين والشمال . ونظرت ريحانة خلفها فزادت قبضة صدرها . كان سيف يركب جواده الأبيض عن يسار يكسوم ، وكان ولدها مسروق يسير عن يمينه ، وكان يكسوم على جواده الأدهم وعبدان يمسكان بزمامه ، وفى يمناه حربة طويلة وهو يسمو بقامته وهامته الضخمة فوق الركب ، ونظراته العابسة تبرق كما يبرق سنان حربته . إنه موكب يكسوم ! ولاحت قبة الكنيسة مشرقة من بعيد من بين

أشجار الجوز والليمون والسمر والسلم ؛ ثم بلغ الموكب الباب المزخرف ذا الياقوتة الحمراء ، وكان القسوس وقوفاً تحت الدرج الواسع فى استقبال الركب الملكى يلبسون مسوحاً سوداء واسعة وعلى رؤوسهم قلانس عالية . وتقدم القس الأكبر من الملكة وفى يده صوبلجان من الأبنوس يعلوه صليب من الفضة .

ونزل يكسوم عن فرسه مسرعاً فقبل يد القس منحنياً ، ونزلت الملكة فى ثيابها البيض وعباءتها الحريرية الزرقاء وكانت حليها تتوهج بالجوهر . وتقدم القس نحوها رافعاً يده بالصوبلجان ونطق لها بكلمات رومية فهمت منها أنها تحية مقدسة . فانحنت له فى صمت وسارت رافعة الرأس نحو الباب بين صفى القسوس حتى شقت الصحن ، وكانت نوافذه العالية تصفى شمس الضحى فى صفائحها المرمرية وزجاجها الملون ، فيغمر الضوء الخافت الفسيفساء الأنيقة التى كانت تزخرف الممشى ويخلع على جو الكنيسة غموضاً وجلالا .

وأقام القس الصلاة وكان ترتيله عميق الصوت يرن فى جنبات الصحن ، والصفوف المتراصة على المقاعد تنصت خاشعة . ولما فرغ من ترتيله أتى إلى الملكة والأمراء فأشار إليهم ليذهبوا إلى قدس الأقداس . وكانت الشموع هناك تضىء الحجرة الضيقة بنور ضئيل يغشى الجدران بظلال المذبح والتماثيل القائمة حولها ، وكانت روائح الند والعود تفوح من مجامر النحاس ممتزجة بعطر المسك الذى طليت به الجدران .

وعادت الترانيم ترن جليلة عذبة ، وأقبل القس الأكبر نحو الملكة

رافعاً صولجانه مرتلا بصوت هادئ . وتلقت الملكة بركته راكعة تميل برأسها نحوه فلوح بالصليب فوق صدرها ورأسها ولمس به تاجها الذهبى عند اللؤلؤة التى تتوسطه .

ولما فرغ من مباركته ذهب يكسوم إليه فتناول طرف الصولجان وقبل الصليب وخشع يتلقى البركة ، حتى إذا فرغ القس منه أقبل نحو سيف ليباركه ، وعلقت الملكة نظرها فى وجه ولدها والقس يقترب منه . فإذا يكسوم يسرع ويدفعه فى عنف ، ويقدم أخاه « مسروقاً » نحو القس قائلا : « ابن أبرهة أولى » .

وكانت الحركة أسرع من أن تتنبه ريحانة إلى بدئها ونهايتها ، فما كادت تفطن إليها حتى رأت وجه سيف يشتعل ، ثم يتجه إلى يكسوم متحدياً فى حنق . وأحس القس حرج الموقف ، فأسرع يبارك الفتى الذى تقدم إليه ، وذهبت ريحانة إلى ولدها الذى أذهلته المفاجأة ، ولكنه بادر قبل أن تدركه فانفلت من الحجرة قائلا : « لا حاجة بى إلى بركة » . وظهرت فى عينى الأم دمعة فحولت بصرها إلى الباب الذى خرج منه سيف ، ودارت بها الأرض فلم تمالك نفسها حتى اقترب القس منها وعلى وجهه أثر من الارتباك وتمتم بكلمات ، فقالت ريحانة :

— عفواً أيها الأب المبارك . ثم انصرفت خارجة .

وعاد الموكب فى الطريق الخالية حتى بلغ القصر ، وذهبت الملكة إلى جناحها مسرعة حتى إذا بلغت مخدعها ألقت بنفسها على أريكة وغلبتها دموعها .

وجاء إليها سيف بعد قليل فوقف عند رأسها ينظر نحوها صامتاً ، ثم ناداها بصوت خافت :

– مولاتى !

وسمعت صوته كأنها فى حلم فرفعت رأسها وقالت فى صيحة مكبوتة :

– عفوك يا ولدى !

فقال سيف هادئاً :

– بل عفوك أنت فقد أحدثت لك حرجاً يا مولاتى !

فقالت فى ألم :

– أبهذا تنادينى ؟

وقامت إليه فضمته بين ذراعيها وألقت رأسها على كتفه باكية .

فقال بسيف :

– لا يحزنك شىء أيتها الأم النبيلة .

فقالت :

– بل تكلم يا ولدى وانطق بما فى نفسك ولا تخفف من عنفه شيئاً . قل إننى كذبت وإننى ضعفت وإننى أسأت فإنه خير عندى أن أسمع منك ما يصك أذنى ويصدع قلبى لعله يخفف من حزنى .

فقال سيف :

– ليس فى قلبى لوم ولا حاجة بى إلى مزيد من القول . لقد برح الخفاء وما كنت تستطيعين أن تكونى أكرم نفساً .

فقالت ريحانة فى ضراعة :

– دع لى فرصة لأبين لك عذرى . إنما عذرى إليك محبتى وإشفاقى وضعف الأم التى تحس ذنبها . لم تكن هذه الأكاذيب التى كررتها عليك هينة عندى . كان كل لفظ منها يجفف ريقى ويطعن قلبى ، وكان ضميرى فى كل مرة يصيح بى قائلا : « اجهري بالحقيقة » ، ولكنى ضعفت ولم أطع صوت ضميرى كما تفعل المرأة التى تحس ذنبها . وكان ذنبى أننى لم أقتل نفسى عندما كنت أحملك بين ذراعى . ألا فاعلم يا سيف أنك ابن الأكرمين كابراً عن كابر . أنت ابن سادة اليمن وأنا ريحانة ابنة ذى جدن . كان أبوك زين الفوارس – أبو مرة ذو يزن .

ففتح سيف عينيه وقال فى همسة مدهوشة :

– ذو يزن !

ومضت ريحانة قائلة :

– إنهما اسمان لا يزيدان عندك على لفظين ولكن استمع إلى قصتى لتعرف من كان هذان .

وأخذت تسرد عليه قصتها وهو يستمع إليها فى لهفة وتأثر . ثم قالت فى ضراعة :

– هذه هى الحقيقة التى كنت أطويها عنك ، وليس فيها ما يندى له جبينك خزياً إلا أن يكون أننى لم أضع فى قلبى خنجراً عندما دخلت غمدان . فإذا كنت أسأت فى هذا فإننى أطلب عفوك ، ولا أتوارى مما يقع فى قلبك .

ورفعت رأسها ثانية تنظر إلى وجهه الهادئ وجبينه الفسيح .

وأخذ سيف يديها فقبلهما قائلا :

– لم يقع فى نفسى إلا أنك أعز الناس عندى وأكرمهم شيمة وأنبلهم قلباً .

وأطرق لحظة ثم قال :

– ولكن الحقيقة تطلع على فجأة وتبهرنى كما يقع النور الساطع على العين فيبهرها . قلبى يجيش ولسانى يتلعثم .

والتفت يريد أن ينصرف فتمسكت به قائلة :

– بل أقم إلى جنبى حتى أهدأ ، ولا تدعنى لأحاديث وحدتى العنيفة .

وانفجرت فى بكائها متهالكة على مقعد .

فبقى سيف فى جوارها حزيناً من أجل حزنها ولكن أفكاره كانت تضطرب كما لم تضطرب من قبل فى وساوسه . ورنت فى أذنيه كلمات يكسوم وهو يقول « ابن أبرهة أولى » ، وتذكر نظرته عندما نظر إليه بعينيه الجامدتين . وعادت إليه فجأة صورة العينين اللتين طالما أفزعتا أحلامه وأفسدتا سلامه . أليستا هما العينين القاسيتين اللتين اتجه بهما إليه فى قدس الأقداس ؟ تلك نظرتهما وهذا بريقهما البارد وتلك هى الهامة الضخمة وذلك هو الوجه الأسود الذى كان يحملق فيه . إنه الوجه الغليظ الذى كان يصيح به فى الأحلام : « من أنت حتى تضرب ابن أبرهة ؟ »

وكان فى مضطرب أفكاره تلك ينظر إلى أمه المسكينة تهتز فى فحمة بكائها وقلبه مملوء رثاء . ما كان أشد الأيام والليالى فى قسوتها عليها !

كان يراها مثل شابة لم تنل السنون منها إلا خيوطاً بيضاء قليلة تلمع بين خصل شعرها ، وما كان يستطيع أن يحسب يوماً أن مثل تلك الآلام المبرحة تعذبها . أعرفت ريحانة فى زمانها كل تلك المحن وعركت الدهر فى كل تلك المواقف ؟ فلو عرف أن أبرهة لم يكن أباه وأنه لا يزيد على أن يكون ولداً لرجل من العامة مات عنه أو هجر أمه حتى تلقاها أبرهة فضمها إليه لما أحس فى الأمر كله سوى صدمة الحقيقة . ولكن الحقيقة كانت أبشع من صدمة ، لأنها كانت مأساة دامية ، وما كانت ريحانة إلا إحدى ضحاياها . أكل ذلك كان ينطوى وراء بسماتها وأغانيها له ؟ أكل هذه الأسرار السوداء كانت تكمن فى قلبها ليلا ونهاراً وهى لا تنطق بكلمة ؟ وثبت بصره عليها حيناً وقلبه يتحدث : أيتها الأم المسكينة لم تتعذبين هكذا ولم تبكين مثل هذا البكاء المر؟ ألأنك لم تقتلى نفسك عندما قتل أبرهة قومك وشرد زوجك وبعث إليك لتكونى امرأته ؟

وناداها قائلا :

ـ هونى عليك يا أمى .

ووضع يده فى عطف على رأسها .

وكأنها كانت تنتظر منه تلك الكلمة ، فرفعت رأسها تنظر إليه نظرة ملؤها الشكر وقالت :

ـ أنت هذا إلى جانبى يا سيف ؟

فقال لها :

– أنا فداؤك أيتها الأم النبيلة ، هونى عليك فإن هذه الأحزان تزيدك نبلا . إن قلبك الذى تحمل كل هذه الصدمات يجعلنى أفخر بأنك أمى . كونى كما كنت دائماً ، أستمد منك قوتى وآوى إليك فى لحظات كربى وأستوحى منك سبيل الهدى . أماه لست أجد من الألفاظ ما أبين به رحمتى وحبى وإجلالى سوى أن أقول : أماه ؛ وسأمضى عنك حتى تعودى كما كنت فلا أراك من بعد إلا ظلا لى ونبعاً وسنداً .

وخرج من الحجرة كأنه يسير فى حلم على رأس جبل يرى من حوله فضاء ومن تحته فضاء ، أنى رمى ببصره لم ير قراراً . رأى أن حياته كانت قائمة على هوة انكشفت فجأة بعد أن زال عنها غطاؤها فرآها تفغر فاها مظلمة ليس يدرى ما ينطوى فى جوفها . وبدت له الحقائق التى كان يطمئن إليها زائفة ، والمعانى التى كان يستقر عليها ولا يخطر بباله أن يجادل فيها لا تزيد على مسارب ظنون يحيط بها الشك . عرف آخر الأمر أنه ليس ابن أبرهة . أليس هذا ما كان يود أن يعرفه ؟ ولكنه عندما عرف الحقيقة أدرك أنه كان يهيم فى الخيال . بل أدرك أنه كان يخدع نفسه بغير أن يحس ، وأنه كان فى قرارة قلبه يود لو بقى على نسبته . فعندما خرج من عند أمه أول مرة وقد سخرت من وساوسه ، عاد إليه هدوؤه ورضى عن نفسه شاعراً كأنه نجا من مأزق خطر . ألم يكن ذلك لأنه كان يضمر أمنية خفية أن يبقى ولد أبرهة ؟ وها هو ذا قد عرف الحقيقة فماذا يجنى منها ؟ كيف يكون موضعه من يكسوم من

بعد ، وكيف يكون موضعه من خيلاء ؟ أهى الأخرى لا تعبأ إلا بابن أبرهة ؟ ونزل بغير أن يقصد إلى البستان وسار فى المماشى التى كان يسير فى ظلالها مع خيلاء ؛ وعادت إليه نبرات صوتها وهى تحدثه عن المساكين الذين كانت تراهم فى ضوء القمر يساقون إلى ناحية الجب العميق . كانت تهيم معه فى الخيال مع أمانيها تقول له : « سنذهب يا سيف إلى أبيك إذا عاد لتخرج هؤلاء إلى ضوء الشمس » . وسار يدفعه دافع نحو بناء كالح فى زاوية القصر مما يلى مرابط الخيل . هناك كان يتسلل مع خيلاء إذا هما طفلان فيتعلقان بالقضبان الحديدية التى تعترض النوافذ الضيقة القريبة من الأرض ، ويتدسسان بنظرهما فى ظلمة الفراغ الذى وراء النافذة ويخيل إليهما أن أصوات الجن تنبعث خافتة من أعماق الجب العميق ، تشبه صيحات بومة مخنوقة أو عويل قطة حبيسة . فيصيحان فزعاً ويجريان مبتعدين عن البناء الغامض ، حتى إذا ما صارا منه على مسافة مأمونة وقفا يضجان ضحكاً ويصفقان ويقفزان . هذا هو الجب الذى حدثته عنه خيلاء منذ أسابيع قليلة ، وكانت تحدثه بحزن عميق عن المساكين من أهل صنعاء الذين كان الأحباش يسوقونهم إليه فى غلظة تحت الظلام . كان عند ذلك يحسب أن هؤلاء المساكين من رعاياه ورعايا أبيه وأنه سيشفع لهم من أجل خيلاء . ووقف عند النافذة القريبة من الأرض وخيل إليه أنه كان يسمع من وراء قضبانها الحديدية الصدئة أنيناً بعيداً . إذن فهؤلاء هم قومه الذين يتعذبون ويفقدون أبصارهم إذ يقضون أيامهم ولياليهم فى

غيابة الظلام . هم هناك يقضون أيامهم أنة بعد أنة أو لحظة معذبة بعد لحظة . وثار قلبه غيظاً من أجلهم ومن أجل نفسه ، لأنه قد صار منذ ساعة أحدهم بعد أن كانوا رعاياه .

وانصرف مسرعاً يحس كراهة تتزايد فى قلبه ، فلما بعد عن البناء الكالح التفت وراءه كأنه ينظر إلى الأنين الخافت يلحق به . وحمد الأقدار التى مهدت لأبيه ذى يزن سبيل الخلاص ليضرب فى الأرض شريداً . ذو يزن ! أبو مرة ذو يزن ! اسم له رنين ولا غرو أن يكون صاحبه فارساً يستطيع أن يتحامل على نفسه فى الليل وهو مثخن بالجراح ليهرب من العبودية . ولكنه لم يره يوماً يبتسم له كما يبتسم الآباء إلى أبنائهم ، ولم يشعر يوماً بحمايته له ولا بمشاركته فى عاطفة . لم يكن ذو يزن عنده سوى اسم لا شخص له ولا صورة ، ولو كان ابناً لأحد المساكين من الرعاة الذين يتواثبون على صخور الجبال وراء قطعان الماعز لكان أحب إليه من أن يكون ابناً لخيال ، فإنه كان يعرف ذلك الأب ويعيش كما يعيش ويشقى كما يشقى لا يعرف وراء حياته أمنية جوفاء تقلق نفسه .

ومر بمرابط الخيل فلمح من بعيد أحد السواس من الأحباش يركب مهره الأبيض وهو يصهل فى غضب ويقفز من تحته يريد أن يقذف به عن ظهره ، ورفع السائس سوطه فأهوى به على رأسه . فصاح سيف صيحة مكتومة وأسرع يجرى نحوه حتى أدركه وقد رمى به المهر عن ظهره . وعرف المهر صاحبه فوقف حياله رافعاً رأسه فاتحاً خياشيمه وفى عينيه ذعر وغضب . وأقبل الحبشى بسوطه يريد أن يهوى به على

رأس المهر فبادر سيف إليه ونزع السوط من يده فأهوى به على وجهه بضربة حانقة ، ولم يفهم شيئاً مما صرخ به الحبشي وهو ينظر إليه نظرة وحشية ثم ينصرف عنه مزمجراً . وأقبل سيف على مهره يمسح وجهه ورقبته حتى هدأ وذهبت عنه رجفته ، وأخذ يشم كتفيه ويصهل صهيلا خافتاً ، ثم قاده إلى مربطه وأوصى به كبير السواس وقال فى نفسه وهو ذاهب نحو القصر : « ماذا يكون من هذا الرجل لو عرف أننى لأازيد على ابن ذى يزن؟»
ولما دخل من باب القصر كان يتخيل فى نفسه أن ذلك السوط الذى أهوى به على السائس قد نزل على وجه يكسوم . أيستطيع يوما أن يرد عليه إهانته ؟

وزاد به الضيق عندما آوى إلى حجرته وأسلم نفسه للأمواج الصاخبة التى تدافعت إليه من شتى الآفاق . كيف يلقى الذين كان يلقاهم وهو ابن أبرهة ؟ كيف يكون خطابه لهم وكيف يكون خطابهم له ؟ أيذهب إلى أمه آسفاً يقول لها إنه يود أن يبقى أمام الناس كما كان ولا يكشف لهم عن حقيقة نسبه ؟ كم من صلات قديمة تنقطع عنه بعد يومه ذاك ! وكم من صلات جديدة لا يعرفها سوف تصله بأقوام لم يلقهم من قبل ؟ ! سوف تكون صلته الوثقى بهؤلاء الأشقياء الذين تلقى إليهم الفضلات ويسخر الأحباش من شقائهم . سوف يغضب لهم ويتلبس بمشاعرهم وينظر إلى الأشياء من ناحيتهم . وسوف يلقاه هؤلاء السادة الأذلاء الذين يحتشدون بباب القصر يتزلفون لآل أبرهة فينظرون إليه شزراً ويتبرأون منه علانية كما كان يسمعهم من قبل يتبرأون من أبيه وهو

لا يعرفه ، وسوف تقع أقوالهم على أذن أخرى تحس فى كل لفظ من ألفاظهم وخزة . ثم خيلاء . أكانت حقاً . . . ؟ لا ! لم تكن خيلاء لتنظر نظرة أحد غيرها من الناس .

وسار فى حجرته يحدث نفسه بألفاظ متقطعة تتخللها ضحكات تشبه أن تكون مأفونة : « إلى أين ؟ من أين؟ ظلام فوق ظلام . أهذه هى الحقيقة ؟ اسم جديد لخيال جديد ؟ أهذه قصارى الحقيقة التى كنت أنشدها وأعذب نفسى من أجلها ؟ أم هو حلم من الأحلام المفزعة التى طالما اعتادتنى ؟ أم هى صحوة من حلم طويل ؟ أحقاً رأيت الشمس طالعة فى هذا الصباح ترسل أول شعاعها من وراء الأفق كأنه موكب قدسى ؟ وهل كنت فى الصباح حقاً فى موكب يكسوم وذهبت إلى القليس واستمعت إلى ترانيم القسوس ؟ وهل دفعنى يكسوم قائلا : " ابن أبرهة أولى ؟ " أهاتان هما عيناه أم هما العينان اللتان أفزعتا أحلامى ؟ » .

وضحك ضحكة أخرى جوفاء أفزعته فأسرع خارجاً من الغرفة إلى حيث لا يدرى ، وكأنه يهرب من نفسه .

وسمع صوتاً فى البهو يناديه :

— إلى أين يا سيف ؟

فالتفت إلى خيلاء وكانت تنتظر الشيخ أبا عاصم كعادتها ساعة الدرس ، وقالت فى لهجة الاعتذار :

— أراك مسرعاً .

وكانت إلى جانب الوعاء المرمرى ونظراتها تنم على ارتباك ودهشة ،

وصدرها يتحرك فى موجة رفيقة . وخيل إليه عندما رآها أنه كان غريقاً فعثرت يده بجانب صخرة . وملأ عينيه منها ثم تردد كالحالم إذا بدأ يستيقظ وتعجب كيف لم يرها من قبل فى مثل هذا الرواء .

كانت خيلاء فى تلك اللحظة مثل دمية صورها أحد البارعين الذين يخلدون اللحظات المسحورة بفنهم ، ولو وضعت فى الكنيسة لكانت أيقونة العذراء . أهى خيال آخر فى حلم متصل ؟ واقترب منها كالمأخوذ ومد يده نحوها ولم يدر ما يقول لها . ومرت لحظة طويلة وهى رافعة بصرها إليه مترددة وكست وجهها بسمة خاشعة حزينة ، وزادت موجة صدرها شدة . ونزع سيف ألفاظه مرتبكاً :

ــ خيلاء ! معذرة لما ترين منى . لم أذكر أنك هنا بل ما عرفت أننى آت إلى هنا . تعالى أستمع إلى صوتك فإن قلبى ممتلئ وهو مغلق وكأن نبعاً حارًّا قد انبثق فى أعماقى أحسه يتدفق كامناً مكبوتاً فواراً .

وجلس معها على المقعد فى جوار الوعاء المرمرى ، وكانت نظرتها على هدوئها تصيح سائلة . فقال سيف :

ــ لا تعجبى لما ترين . فإنى اليوم غير من تعرفين ، وغير من أعرف أنا . إننى أشك فى نفسى فى هذه الساعة وأشك فى كل ما حولى ، ويخيل إلى أننى فى عالم أجوف لا حقيقة فيه ، وكل ما أرى منه لا يزيد على صور يخلقها لى وهمى وأحسبها حقائق . أسمعينى صوتك لأنى لا أستطيع أن أشك فيه إذا سمعته . أعينينى على العودة إلى حسى حتى لا أنفض يدى من الحياة يائساً .

فتحركت خيلاء فى قلق لا يخلو من الذعر ، ولم يخف ذلك عندما قالت :

– تثبت يا سيف وهدئ من روعك وحدثنى بما يزعجك ، حدثنى عما تحس أو ما يحزنك لعلى أحمل معك حملك . كنت اليوم فى القليس ؟

– فقال سيف فى ضحكة ثائرة :

– نعم ذهبت إليه فى الصباح – ذهبت إليها شخصاً وخرجت منها شخصاً آخر . إننى فى هذه الساعة مثل طفل يسير فى الظلام ويرى فيه أشباحاً فينطق ولايدرى ما يقول ، وينادى وليس يعرف من ينادى لعله يأنس بسماع صوت نفسه . فكلمينى يا خيلاء فإنى أفزع من صوتى .

فقالت خيلاء :

– أما من سبب لكل هذا ؟

فقال : إننى أبدأ حياة جديدة منذ اليوم ، ولست أدرى أين أتجه فيها . علىّ أن أرتادها وأن أفهمها بعقل غير عقلى الذى اعتدت أن أزن به أمورى ، وأن أتعرف أهلها وأحوالها بعين غير عينى الأولى . قلت لك إننى مثل طفل فلا تدعينى أتكلم . لا تسألينى بل تحدثى إلى . قولى أى شىء . حدثينى عن هذا الوعاء وعن اللحظات المسحورة فقد كان حديثاً جميلا . حدثينى عما صنعت منذ الصباح أو عما قلت فى صلاتك للعذراء ، لعل ذلك يدخل إلى قلبى شيئاً من إيمانك . لو كنت أؤمن بشىء لآمنت بنفسى ، ولكنى أسبح فى فراغ .

فأمسكت خيلاء بذراعه فى حزن وأطرقت تبكى صامتة .

فقال سيف :

— معذرة يا خيلاء فقد قسوت فى ثورتى العمياء . لا تظنى بى الخبل وإن كنت لا ألومك إذا ظننت ذلك . ولكنى أحاول أن أتماسك . دخلت هذا الصباح إلى الكنيسة وأنا سيف بن أبرهة وخرجت منها وأنا سيف ابن ذى يزن ، أتفهمين قولى ؟

فرفعت رأسها فى دهشة ولهفة ولكنها لم تتكلم فمضى سيف قائلا :

— كنت أعيش كل هذه السنين فى نسيج من الأكاذيب . كانوا يسموننى ابن أبرهة وهم يعلمون أننى ابن رجل شريد ذهب على وجهه فى الأرض منذ كنت طفلا . وأخذ يعيد عليها قصة أمه .

وكانت خيلاء تعلق فيه بصرها وهو يتحدث ووجهها ينطق قائلا :

« ما أسعدنى ! »

ولما فرغ سيف من القصة قال كأنه يحدث نفسه :

— سيف بن ذى يزن . اسم جديد لو سمعته بالأمس لما استرعى سمعى إلا كما يسترعيه اسم فى أسطورة . ولكنه اليوم هو السبب الذى يصلنى بالحياة . سيف بن ذى يزن ! سيف بن ذى يزن .

وكان فى ترديده يتمهل كأنه يريد أن يملأ منه سمعه ويتبين جرسه ويقدر رنينه .

وارتفع صوت من ورائهما يقول فى حماسة :

— ما أعذبه اسماً ، كأنه خلق هكذا وكتب هكذا فى سجل الأزل .

ولمع وجه الشيخ أبى عاصم وهو يتقدم قائلا لسيف :

– من علمك هذا ؟

فقال سيف فى ارتباك :

– كأنك كنت تعرفه يا سيدى الجليل .

فقال الشيخ هادئاً :

– أعرفه ؟ أسؤالا بسؤال ؟

وجلس أمامهما على مقعد وطىء وأعاد سيف قصة القليس .

٩

قال الراوى :

فرغ الشيخ من درسه وكان خفيف النفس متدفق الخاطر ، فبينما هو يتحدث عن يوم من أيام الحروب إذا هو يورد ما قال الشعراء فيه إذ يصورون هزات نفوسهم ، ثم إذا هو يسبح فى معانى الخير والشر ومقاييس الفضل والنقص .

وقام سيف وخيلاء يشيعانه وهو يسير بخطواته الهادئة يتكئ على عصاه الطويلة حتى خرج من البهو وأخفته الأروقة عنهما . والتفت سيف إلى خيلاء آخذاً بيدها قائلا :

– كنت كمن صدمته صخرة فزلزلته حيناً ، ولكنى أعود إلى نفسى ؛ وما كنت أحسب أن جنانى يعود فى مثل هذه الساعة القصيرة . أرى

الغشاوات تزول عن عيني وأبصر الأشياء كما ينبغي لى أن أراها . ليست الأشياء كما خيل إلى منذ ساعة صوراً مجردة يخلقها لنا الوهم فتبدو لنا فى هباء تخدعنا وتضللنا . هذه أنت يا خيلاء إلى جنبي تستمعين إلى وهذه يدك فى يدى وهذه هى السعادة ترف علينا حقيقة لا خيالا . أكاد الآن أومن بنفسى .

فقالت خيلاء باسمة :

ـ وعرفت الإيمان ؟

فضغط سيف على يدها قائلا :

ـ ما أسرع العقول فى تبدلها وما أسرع تبدل الرؤى فى أعيننا . أليست هذه الحواس تخدعنا ؟ إنها تخيل إلينا أن الشمس تجرى بين السحاب إذا هبت عاصفة ، وأن القمر يسير معنا فى الليلة الصافية .

فقالت خيلاء :

ـ وتملأ قلوبنا بذلك شعراً . أليس كذلك يا سيف ؟

فقال سيف :

ـ ولكنك تسألينى عن الإيمان .

فقالت خيلاء :

ـ وهل نؤمن بعقولنا ؟ الإيمان لا يدخل إلينا من العقل لأنه أسمى من عقولنا . وأنى لنا أن ندرك بعقولنا المحدودة ما يتعدى الحدود المباحة للحواس ؟ نحن نلمس المادة الكثيفة ونرى ما يستطيع بصرنا الكليل أن يبلغه ونسمع ما يقرع آذاننا . ولكننا لا نستطيع أن نكابر فى الحق ونقول

إن هذا كل شىء . فإن وراء ما نلمس عالماً لا يدركه اللمس ، ووراء ما نرى عالماً لا يبلغه البصر ، ووراء ما نسمع عالماً لا يكشفه السمع . لو قنعنا فى الإيمان بما تدركه الحواس لما زدنا شيئاً على النملة التى لا تستطيع أن تطير فى الجو أو السمكة التى لا تعيش إلا فى الماء أو الحية الصماء التى لا تدرك إلا ما فى الرمال التى تدب عليها . لا نستطيع يا سيف أن نبلغ الإيمان عن طريق عقولنا ، لأنها لا تعرف إلا ما تمليه عليها الحواس التى تستعبدنا . لسنا ملائكة .

فقال سيف هامساً :

ـ ألا يكون البشر ملائكة ؟

فقالت :

ـ لا بأس علينا إذا لم نكن ملائكة ، إذا كنا نتواضع ولا يحملنا الغرور إلى أبعد مما ينبغى لنا . فالبشرية ضعيفة محدودة ولكنها لم تخل من جمالها . وهذا الضعف الذى فينا قد يكون مبعث سعادة لنا إذا نحن آمنا . بل إن هذا الضعف يحملنا على التعلق بالإيمان لأنه وسيلتنا إلى السلام وإلى الرحمة وإلى المحبة .

فقال سيف فى حماسة :

ـ لو تكلم الملائكة لما قالوا خيراً من هذا يا خيلاء . فإن كلماتك تبعث فى قلبى من الإيمان أكثر مما يستطيع عقلى : السلام والرحمة والمحبة . سأومن يا خيلاء وسبيلى إلى الإيمان هو أنت . أنت السلام والرحمة والمحبة فأنت هو أنت الإيمان .

وأخذ يدها بين يديه ناظراً إلى عينيها . وتحركت تقبض يدها فتمسك بها قائلا :

ـ ما كان لى أن أذهب حتى أقول كلمة ما زالت تشتعل فى صدرى .

فأغضت وسحبت يدها فى رفق ومضى سيف قائلا :

ـ نحن هنا وحيدان فى غمدان يا خيلاء . لم أكن أعرف ذلك إلا بعد أن عرفت أنى وحيد هنا . كأننى لم أسأل نفسى عنك إلا فى هذه اللحظة . نحن هنا وحيدان معا والدنيا أمامنا فسيحة تدعونا لنلتمس فيها السعادة .

وبقيت خيلاء مطرقة صامتة .

ومضى سيف فقال :

ـ ألا تجدين فى قلبك جواباً ؟ أليست القلوب تتحدث ؟ ألا تحسين ما أريد أن أقول ؟ لست أجد لفظاً يقوى على نقل ما فى نفسى ، فابحثى فى قلبك عن الجواب عن سؤال لم أنطق به بلسانى.

فقالت بصوت متهدج :

ـ أنت تعرفه يا سيف .

فقال فى حماسة :

ـ أعرف الأصداء التى تتردد فى قلبى . ولكنى أتوق إلى سماع صوتك لأننى أتوق إلى أن أستشرف السعادة منذ لحظتى هذه . انطقى بلفظة أتخذها زاداً حتى نلتقى مرة أخرى . لم أكن من قبل أعرف حقيقة هذا الذى أحسه . أنت رفيقة طفولتى وصاحبة صباى وصديقة شبابى ، ولكن

هذا كله يتضاءل إلى جانب الحقيقة التى لم أكشف عنها إلا عندما تزعزعت وانكشف لى شقائى . لو قلت إنه الحب لكان أقل مما يصور الحقيقة التى أقصدها : أعرف أنى أحبك حبًّا ينتظم كل حياتى . ولكن الحب الذى عندى ، الحب الذى استمددته منك ، يأبى أن يتلبس فى الثوب الذى اتخذه الناس على قدودهم . إنه شىء آخر أسمى من الحب الذى عرفه البشر منذ خلقوا له لفظاً . أأقول هو . . . ماذا أسميه ؟ ولكن ماذا يبكيك أيتها الحبيبة ؟

وكانت خيلاء قد انفجرت فى نشيج واضعة وجهها بين كفيها .

فقالت خيلاء وهى تتحرك منصرفة :

ــ دعنى يا سيف أمضى الآن .

فقال سيف فى لهفة :

ــ إلى أين يا خيلاء ؟ دعينى أكلمك وأستمع إليك . إننى لم أسمع بعد جواباً .

فقالت :

ــ هذه السعادة تطلع علىّ فجأة فتذهل الألفاظ عن لسانى وتنفجر بدموعى . دعنى أذهب الآن إلى حجرتى . دعنى أذهب فإنى أحس حاجتى إلى الصلاة يا سيف .

فقال سيف متمسكاً بها :

ــ بل قولى إننا سنخرج معاً . نخرج من هذا القصر الذى لا تربطنا به غير ذكرياتنا . فلنخرج بها ولنذهب إلى ركن من الأركان البعيدة

على شط من شطوط الأودية أو فى براح من الصحراء الفسيحة . هناك تكون دارنا لنا وحدنا .

فقالت خيلاء فى صوت خافت :

– قلبى يفيض ولا أقوى على أن أفكر فى شىء . دعنى أذهب الآن لعلى إذا لقيتك بعد كنت أهدى إلى سبيلى .

واختطف سيف يديها فقبلهما ، وكان صدر خيلاء يضطرب وعيناها تدمعان عندما تركها سيف عند باب مخدعها .

وما كادت تدخل حتى ألقت بنفسها إلى جنب تمثال العذراء تصلى صامتة متجهة بقلبها الواجف إلى مورد الحب الأعلى تدعوه أن يحمى حبها خالصاً نقيًّا ، وتودع عنده عهدها على الوفاء لسيف حتى يجتمعا معاً عند كرسيه الأقدس .

وأما سيف فإنه لم يطق البقاء فى مكان . كان يجد الفضاء نفسه أضيق من أن يحتويه ، ولم يعرف أين يتجه ، وخيل إليه أن الكون كله لا يهب له إلا ملجأ واحداً وهو خيلاء . فنزل إلى البستان ووجد الربيع فيه يتوهج بالأنوار ، ولكن أين يستقر فيه ؟ لم تكن أزهاره ولا طيوره تستطيع أن تستمع إليه إذا أراد أن يتدفق فى الحديث ، وما كانت ظلاله الحالمة توائم سعادته الواثبة التى تنفر به من الاستقرار . يذهب إلى أمه ؟ ولكن أمه المسكينة كانت لا تقوى على التجرد من هزتها العنيفة لتؤنسه بمشاركتها . وهل كان يجرؤ على أن يتحدث إليها عن أمنيته فى ترك غمدان مع خيلاء ؟

وخرج من الباب الخلفى إلى الأرباض القريبة ، وكانت الأكواخ الصغيرة التى فى أطراف الربض تلوح له من بعيد هادئة قانعة راضية ، كأنها تظل تحتها قلوباً سعيدة . وأى سعادة تنطوى تحت أحدها إذا كان يأوى إليه مع خيلاء . وخيل إليه أن يذهب إلى تلك الأكواخ واحداً بعد آخر فيحيي من هناك من المساكين قائلا لهم : أنا ابن ذى يزن ، ويصافح الأيدى القحلة التى تمتد إليه مرحبة .

وتمثلت له صورة شعب بعيد فيه منزل منعزل تطلع إليه طريق صخرية يحف بها من الجانبين صفان من شجر الطلح أو السمر ، ويمتد فناؤه الفسيح مسرحاً للعين ، وفيه أركان ظليلة تتشابك فوقها فروع الأعناب وتستر جوانبها أعواد الياسمين ، يشرف عليه القمر إذا طلع وتلمع فوقه النجوم فى الليالى المظلمة وتكون فيه خيلاء . ألا يزرى ذلك المنزل المتواضع بعظمة غمدان ؟ وود لو لم يطل مقامه بعد فى ذلك القصر الأجنبى ليلة واحدة . فهو قصر أبرهة وأبناء أبرهة ثم هو قصر يكسوم . وعادت إليه صورة يكسوم وهو يدفعه قائلا : « ابن أبرهة أولى » . فما مقامه فى غمدان وما مقام خيلاء هناك ؟ فهى الأخرى . . .

وتذكر فى تلك اللحظة أنه لم يفكر فيما تحسه خيلاء ولا فيما تحبه خيلاء . فإنه لم يسمع منها لفظاً واحداً يدل على أنها كانت تكره الإقامة فى غمدان ، أو أنها تؤثر الإقامة معه فى أحد الأكواخ المتواضعة أو فى شعب منعزل فى الجبال . وكان يرى فى سيره أشباحاً تخرج من كوخ أو توقد النار أمام خيمة قائمة ، ترغو إلى جانبها ناقة هزيلة . أفى مثل

هذه تقيم خيلاء ؟ وهل يحمله غضبه على مثل هذا التفكير الذى لا يزيد على هذيان الحمى ؟ وهى مع كل هذا لم تقل له سوى أن قلبها يفيض وأنها تريد أن تذهب إلى حجرتها لعلها تهدأ حتى إذا لقيته مرة أخرى كانت أهدى إلى سبيلها . لم تقل له إنها تؤثر العيش معه فى الخيمة المنعزلة أو فى ركن بعيد من شطوط الأودية . إنه هو كذلك يحتاج إلى أن يهدأ حتى يكون أهدى إلى سبيله . فأين يذهب إذا خرج من غمدان ؟ ولو خرج وحده يوماً ليهيم على وجهه فى الأرض كما خرج أبوه من قبل لكان أمره هيناً . فهو يستطيع أن ينام حيث يدركه الليل وأن يتحمل الجوع والعطش إذا لم يجد طعاماً أو شراباً . ولكن ما بال خيلاء ؟ وفى أية غاية يجر خيلاء معه إلى عالم مجهول غير محدود المعالم ؟

من أجل أية غاية ؟ الحياة ؟ السعادة ؟ الكرامة ؟

وعاد أدراجه بقلب ثقيل يسير نحو غمدان الذى خرج منه منذ ساعة بقلب يفيض سعادة ولا يتسع له مكان . ولما بلغ القصر ذهب إلى حجرة الشيخ أبى عاصم لعله يجد فى حديثه ما يضىء له غيابة الظلام الذى خيم على نفسه .

١٠

قال الراوى :

كان نسيم الجنوب يشيع الراكبين مترفقاً وهما يسيران بين الربى الخضراء الممتدة إلى الأفق كأنها أمواج فى بحر هادئ . وكان سيف يسير صامتاً يناجى الصورة التى ودعته عند باب حجرتها فى الصباح وتقول له فى صوت خافت :

– لقاء قريباً !

والتفت نحو المدينة المتباعدة تتضاءل بين نقم وعيبان ، وثبت بصره عند قصر غمدان الباسق يسمو بقبته المرمرية التى تلمع تحت شمس الصباح كأنها منارة فى رأس علم . لقد عرف طبقاته السبع ركناً ركناً وحجرة حجرة ، وها هو ذا ينظر إليه متحرك الشجن بعد أن كان يحسب أنه لن يحس نحوه حنيناً . فهل يقف أحد وراء شرفة من شرفاته المرمرية يرسل بصره فى آثاره خافق القلب كما كان قلبه يخفق وهو يلتفت إليه ؟ وخطرت له خاطرة من الندم لأنه أسرع بالخروج قبل أن يفضى إلى خيلاء ببقية الحديث الذى كان يجيش فى صدره . فهلا تمسك بيديها وهى تسلهما من يديه فى رفق ؟ وهلا تجرأ فضمها إلى صدره حيناً ليهدئ من عنف خفقان قلبه ؟ وهلا أطال ضم بنانها إلى شفتيه

ليطفىء من حرهما قبل أن يغادر موقفه منها ؟ فقد ذهب فى الصباح ليودعها قبل أن يسير إلى وادى ضهر وليقول لها إنه سيغيب بضعة أيام فى صحبة شيخه ثم يعود إليها ليخرجا معاً من غمدان آخر الدهر . ولم تكن خيلاء أهدأ نفساً ولا أهدى سبيلا بل كانت عيناها مبللتين ووجهها يشبه الزهرة الذابلة . أأمضت ليلتها ساهدة كما كان يقضى لياليه ساهداً ؟ ألم تكن مثله سعيدة قانعة به من الحياة كلها ؟ وتنبه على صوت الشيخ يقول له :

ــ أما ملأت عينيك من غمدان ؟

فأجاب فى تأثر :

ــ بل أملأ منه قلبى . وأجدنى أتشبث به وأنا أبعد عنه ، وأحن إليه وأنا أضيق به .

فقال الشيخ :

ــ هكذا نحن يا سيف. نضيق بالحياة حتى نملها فندفعها بإحدى يدينا ونتمسك بها بالأخرى .

فقال سيف :

ــ ما كنت أحسب منذ ساعة أننى أعبأ بغمدان ولا بصنعاء كلها ، ولا أننى أجد مثل هذه اللوعة التى أجدها وأنا ألتفت من بعيد إلى الوراء . ومع هذا فإنى أحس كأن فى الجو غناء مشجياً ، ليس كله طرباً ولا كله سعادة بل هو مزيج من الطرب والكآبة .

فقال الشيخ باسماً :

– هو الشباب يا سيف . سوف تلتفت إلى أيامك هذه بعد حين كما تتلفت فى هذه الساعة نحو غمدان . سوف تحن إلى شبابك وأشجانه ، وتراها من بعيد زاهية زاهرة . سوف تأسى على أحزانه كأنما هى أمنية وتود لو تعود إليها كرة أخرى .

قال سيف فأنت تحن إلى ما قاسيت فى الشباب ؟

فقال الشيخ هى أحلام الشيوخ دائماً .

فقال سيف وتود لو عدت إليه ؟

فقال الشيخ أمنية جوفاء .

فقال سيف ولكنك تتمناها ؟

فقال الشيخ لا أملك أحياناً إلا أن أرحل إليها فى خيالى .

فقال سيف بى سؤال أيها الخال الكريم فعفواً إن كان فيه جرأة .

فقال الشيخ باسماً : أجيبك قبل أن تسأل .

فقال سيف باسماً : القلوب تتحدث ؟

فقال الشيخ فى عطف نعم تتحدث . تسألنى هل أنا بشر ؟ تسألنى أما عرفت الحب ؟ بلى يا ولدى .

فقال سيف أنت ؟

فقال الشيخ ومن أنا حتى لا أعرفه ؟ بل مالى لا أعرفه وهو ما تهديه الحياة لنا ؟ ولو خلت الحياة منه لكانت قطعة من الملال والسأم . بل لقد ارتطمت على صخور الأيام وانزلقت فى مزالق الأهواء ، وذقت أمر المرارة حيناً وأحلى الحلاوة حيناً . ولست أدرى إن كانت

هذه الشيخوخة قد أخلت صدرى من ضعف البشر . نعم فأنا كما ترانى مثل جذع نخلة تقادم عهدها كما وصفت لك نفسى ، وقد تساقطت عنها سعفاتها وانثنى عودها وجفت عصارتها . ومع هذا فلست أكذبك . إن قلب الإنسان لا يفارقه ضعفه أو إذا شئت لا تفارقه قوته .

فقال سيف فى رنة شكر :

– أهى مواساة منك يا سيدى المبجل ؟

فقال الشيخ بل هو الحق يا ولدى . ليتنى أجرؤ على أن أكشف لك نفسى . إذن لما وجدت فى نفسك شيئاً تحس فيه حرجاً إذا كشفته . نحن نغلق أنفسنا على أنفسنا وكل منا يحسب الآخرين أقل منه ضعفاً . ولكن أى ضعف فى سنن الطبيعة ؟ إننا نحن نفسد هذه الطبيعة بأن نلقى عليها الأستار كأننا نخجل منها . إنه كذب لا يقل فى بشاعته عن التدنيس . نحن ندنس الحب إذا تبرأنا منه كما ندنسه إذا لهونا به . إنه كالميلاد والموت لا محل فيه للخجل أو الخفاء . بل إن الذين يخفونه إنما يخفون شيئاً آخر غير الحب ، لأنه صريح بطبيعته السليمة . وأما الذين يخجلون منه أو يسدلون عليه الأستار المظلمة فإنما يتهربون من جريمة تدنيسه أو الإسفاف به . يتهربون لأنهم يخونون سنته الواضحة ويسخرون من رسالته العليا – رسالة الحياة نفسها .

وكان سيف يستمع إلى الشيخ فى دهشة وأنس .

ولم يلاحظ أحدهما أن السماء قد تلبدت بالغيم وأن الهواء قد استدار

إلى الغرب ، حتى لمعت لمعة من البرق فجأة وفرقع فى أعقابها الرعد عنيفاً ، وأحسا قطرات من المطر تتوالى . فقال الشيخ :

ــ ألا نميل إلى هذا الشعب قليلا ؟ إنه جبل ينور .

وكان سيف يعرفه ويحس رهبة كلما مر به . ودخلا فى كهف فسيح به فجوات داخلة فى الصخر من جانبيه كأنها حجرات حول ردهة . وكان الظلام فى جوف الكهف دامساً يكاد يسمع فيه خفق أشباح خفية . وكانت بين الفجوات فى ردهة الكهف مصاطب ضخمة على جدرانها نقوش وصور عجيبة ، بعضها ظاهر كأنما رفع الصانع يده عنها منذ ليلة ، وبعضها مطموس تجرى من بينه أخاديد مصقولة لأن الماء كان يتحلب عليها من شقوق فى سقف الكهف . فقال سيف فى صوت حالم :

ــ لو اتخذت الجن قصوراً لما اختارت خيراً من هذا .

ورنت كلماته بين الجدران عميقة مدوية . ثم أضاءت لمعة من البرق فتوهج الكهف لحظة فانكشف باطنه بعيداً رهيباً ، وانطلق صوت الرعد مجلجلا فيه كأنه صوت شياطين غضبى . وكانت الريح تزف فيه بما يشبه زئير السباع .

فقال سيف كأن السماء غاضبة .

وأحس فى نفسه قبضة . لم أرعدت السماء هكذا وأبرقت؟ وما الذى قذف هذا الكهف المظلم فى سبيلهما فى تلك الساعة ؟

وعاد إليه شىء من الأنس عندما سمع صوت الشيخ يقول له :

– حقًّا إنه مقرجدير بالجن إن أرادت مقرًّا . فمن هنا يستطيعون أن ينفذوا من ظلمات باطن الأرض فيسترقوا منها فنون السحر الأسود ، ومن هنا يستطيعون أن ينطلقوا إلى فضاء السموات ليسترقوا أسرار الغيب وطلاسم الكنوز المغلقة .

فقال سيف وماذا تصنع الجن بالغيب والكنوز ؟

فقال الشيخ باسماً : إنه الإنسان الذى يتطلع إليها فى حماقته . هكذا تقول القصة .

فقال سيف فى حماسة : أية قصة ؟

ورحب فى نفسه بأن يسمع قصة تقطع تلك العاصفة حتى تسفر السماء ويخرجا إلى الفضاء الطلق .

فأخذ الشيخ يقص عليه قصة حسان بن تبع .

كان تبع الأكبر ملكاً عظيماً ولكنه كان فانياً . ولما أحس اقتراب الأجل بعث بولده حسان إلى كهف ينور ليستطلع له أخبار الغيب ، وكان يؤمن بمن فى هذا الكهف من الجن . فلما جاء حسان إلى الكهف لقيته جنية فى صورة ساحرة عجوز شوهاء . وقدمت له وسادة يجلس عليها ، وكانت محشوة بالعقارب والأفاعى . فأبى حسان أن يجلس . ثم قدمت له صفحة من عظام وكأساً من دماء ليطعم منها ويشرب . فعافهما كارهاً . ثم قالت له : إذن فاقتل أول من تلقى إذا عدت إلى قصر أبيك .

فصاح بها حسان : إنه هراء .

فقالت : ألست وارث الملك ؟ ألست تطلب ملكاً ؟

فأجابها فى جفاء : بلى !

فقالت : هذا سبيلك إليه . هذا سبيلك إلى الملك ، فافهم عنى .

فقال لها فى اشمئزاز : كفاك هذراً .

والتفت منها منصرفاً .

فصاحت فى أثره من لا تقتله يقتلك .

ثم رنت منها ضحكة مخيفة قفّ لها شعر رأسه وأسرع كالهارب .

ومضى حتى بلغ قصر أبيه فلقيه أخوه عمرو عند الباب ، فضحك فى نفسه قائلا :

ـ أأقتل أخى ؟ إنها عجوز مشئومة .

وسكت الشيخ لحظة ثم قال :

ـ أتدرى كيف تمت القصة يا سيف ؟

فقال سيف أحس قشعريرة ها هنا . وكأننى ألمح الساحرة هناك تبص بعينيها . كيف تمت القصة ياسيدى ؟

فقال الشيخ تقول القصة إن حسان لم يقتل أخاه ، ولكن أخاه قتله . قتله عمرو بن تبع .

فقال سيف وهو يسير نحو فم الكهف

ـ ولكن ما العقارب والأفاعى ، وما العظام والدماء ؟

فقال الشيخ هذا سبيل الملك يا ولدى . هكذا تقول القصة . هكذا قالت الساحرة العجوز أو جنية ينور . هذا سبيل الملك :

تحطيم العظام والولوغ فى الدماء ، ولسع الشدائد كما تلسع العقارب والأفاعى .

وساد الصمت وكان سيف يحس كأن برداً يتمشى فى فقار ظهره ، وصورة الساحرة العجوز تتخايل له ولا يستطيع أن يطردها . وتنفس مرتاحًا عندما تكشفت السماء شيئاً وهدأت الريح كما بدأت فجأة إلا قطرات من المطر ما زالت ترسم حلقات صغيرة على وجه المياه المتجمعة فى فجوات الصخر .

وجلسا على صخرة أمام الكهف وشرد كل منهما فى عالمه ، وكان سيف يعيد فى نفسه قصة ينور ويتمثل النقوش التى على مصاطبه ويسأل أهى من صنع البشر أم هى من صنع الجن الذين يسكنونه . وخيل إليه أن صوتًا يشبه صوت الرياح العاصفة يتعالى فى الكهف وينادى قائلا : ألست تطلب ملكاً ؟

والتفت إلى الشيخ قائلا : أما قلت إنك تعرف أبى ؟

فهز الشيخ رأسه فى هدوء وقال : دع الأرواح فى مراقدها .

فقال سيف ولكنى أسألك عن أبى .

فقال الشيخ لا تثر الأرواح يا سيف إن كنت تريد سلاماً .

فقال سيف صف لى صورته التى لم أرها ، فما أعجب أن يكون أبى ولا أعرف عنه شيئاً . صفه لى حتى كأننى أراه فهذا آنس لقلبى . صفه لى كيف كان إذا سار وإذا ركب وكيف كان صوته إذا تحدث وما كان لونه وهيئته . ماذا كانت حاله إذا طرب وإذا غضب وإذا

صادق أو عادى . صفه لى أيها السيد المبجل فإنى أحس فى هذه الساعة شوقاً إلى أن أملأ منه الفراغ الذى خلا منذ أن عرفت أن أبرهة لم يكن أبى .

فقال الشيخ هادئاً : إن الصور حقائق يا سيف ، فلا تسرع إلى إثارتها . ها قد أسفرت السماء فهلم بنا قبل أن تدركنا عاصفة أخرى .

وسارا على الهضبة الصخرية تبدو لهما الربى فى زينتها وقد زادها المطر اخضراراً ، وهب النسيم كأن لم تكن قبله زوبعة بارقة راعدة . وأرسلت الشمس شعاعها الخافت من خلال فلول السحاب المتناثرة فما لبثا أن صرفا بصريهما إلى الآفاق الباسمة وسارا يتأملان مناظرها فى صمت . ثم لاحت لهما جوانب وادى ضهر من بعيد وماء النهر يبرق بينها متعرجاً ، وبدا قصر ذى جدن مشرفاً فوق رابيته عابساً مسيطراً على الوادى .

وبلغا الطريق الصخرى الصاعد إلى القصر فوثب الجوادان فوقه تحف بهما هوتان عميقتان عن يمين وشمال .

ولما خلا الشيخ فى مخدعه تلك الليلة تذكر صاحبه أبا مرة وهو يودعه فى ليلة النكبة من بين جثث القتلى ذلك الوداع الذى لم يلقه بعده ، ويوصيه بامرأته ريحانة وولده سيف . أما ريحانة فهى هناك فى غمدان ، وما جدوى الأسف ؟ وأما سيف فهل آن له . . . ؟

وسبح فى ذكريات تلك الأيام البعيدة التى مرت منذ عشرين عاماً كأنها دهر طويل .

١١

قال الراوى :

تأنق الربيع فى شطآن وادى ضهر وتفننت به الحياة فى إبداعها ، فكانت أزهاره تتبرج فى ألوانها ، وأعشابه تمتد فى نضرتها ، والسماء تبسم فوقه بزرقتها ، والطير يسبح فى جوه المعطر ، والظلال تنتشر تحت خمائله وتنحسر عن بطاحه ، فكان منظره يشغل البصر والخاطر معاً .

وكان سيف يخرج فيه من طى نفسه إلى عالم الحس فيجد فيه راحة لم يذقها منذ حين . وكانت صورة خيلاء تلازمه فى كل ركن ظليل وكل مرج نضير ، وكلما وقع بصره على القرى المطمئنة التى تستند على جوانبه وترسل صورها على جداوله تمنى لو كانت خيلاء معه فى إحداها يعيشان معاً بعيدين عن ضيق غمدان الفسيح وعن بذخه الفقير، وينعمان وحدهما بحياة وادعة يقنع فيها كل منهما بصاحبه ويتخذه صومعته ويتنسكان معاً فى حبهما .

كان لا يمر عليه يوم بغير أن يخرج إلى الوادى يسرح فيه وحده أو مع صاحبه الشيخ ، ثم يعود إلى قصر جده يستزير طيف خيلاء .

ولكنه ما كاد يقضى هناك أياماً حتى جاءت إليه وفود تسعى من مواطن شتى لم يسبق له عهد بها . بل لم يسمع يوماً بذكرها . وكانوا

يأتون إليه فى أول الأمر فى سر الليل ، ويجتمعون به حيناً فرادى ومثنى وثلاث، يسمون أنفسهم له ويسمون له القبائل التى ينتسبون إليها ، ويذكرون له طرفاً من صلتهم القديمة بآبائه من جهتى أبيه وأمه . وكان يجد فى لقائهم أنساً وفى أحاديثهم متعة كأنه يطلع منهم على عالم جديد كان محجوباً عنه . فكان ينصت إليهم فى شغف ويحفظ الأسماء التى يرددونها ويسألهم عن صلات العشائر والقبائل وعن تشابك الأنساب ومجامع الأصلاب ، فإذا ما انصرفوا عنه أعاد ما قالوه فى نفسه كأنه درس يحفظه . وتكاثرت الوفود شيئاً بعد شيء وتجرأت حتى كانت تلم بالقصر فى ساعات النهار ، وكثيراً ما كان يعود من نزهته فيجد بعضها فى انتظاره منذ الصباح . وقد تردد اسم ذى يزن فى فجاج اليمن كأن الرياح حملته معها ، فكانت قبيلة تسمع أن أبا مرة عاد من مهربه وأقام فى قصر ضهره ذى جدن مهادناً لأبرهة ، وتسمع أخرى أنه عاد خفية يدبر قتالا جديداً . وتسمع قرية أنه سيف بن ذى يزن الذى كان أبرهة يدعيه ويخلع عليه اسمه عرف حقيقة نسبه وهاجر من صنعاء ليجمع قومه حوله ويهب معهم مطالباً بالثأر لأبيه .

وكان سيف يستمع إلى هذه الأنباء فى دهشة لا تخلو من ارتياح وبهجة ، فإنه إن انقطع عن نسبة أبرهة قد وجد عوضاً عنها فى هذه الألوف التى تفتح له صدرها وتهتف باسمه وأسماء آبائه فى اعتزاز . وكان أحياناً يحس فى نفسه حرجاً أو نفوراً من الأعراب الجفاة الذين كانوا يلتفون به فى غير تجمل ويحيونه فى غير تكلف ويقحمون عليه قرابة لا يعرفها .

فكان يقلق فى مجلسه ويود لو قاموا عنه وخلوا بينه وبين الوحدة التى جاء ينشدها .

على أنه اعتاد كل يوم أن يعقد مجلسه فى فناء القصر يتلقف من ضيوفه أخبار أبيه وجده وقومه ، حتى انتزع من أحاديثهم صورة أبيه وصار يراها من وراء ضبابها أكثر وضوحاً وأقل شحوباً ، وصار كلما سكن فى خلوته يتمثلها ويسأل نفسه أين يكون أبوه فى تلك الساعة ؟ وكان أحياناً يشرد مسحوراً بها كأنه يراها تشير إليه أن يتبعها . أيستطيع فى يوم من الأيام أن يرى ذلك الأب وأن يسند كتفه إليه . ولكنه كان كلما أجهده السبح وراء تلك الصورة اختفت عنه فجأة كأنها كانت تسخر منه ، فيذكر قول الشيخ أبى عاصم عندما قال له : « دع الصور فى مراقدها ولا تقلقها »، فما جدوى ذلك الخيال العقيم الذى يضل معه وراء أمنية مجدبة، وتقطع ما بينه وبين الحقيقة الماثلة التى تملأ حياته : خيلاء . أيخرج من أرضه ويتركها وراءه ويهدر السعادة التى تثوى عندها فى طلب خيال ؟

وعاد ليلة من مجلسه بعد أن مضى أكثر الليل ، وكان مجهداً ضيق الصدر فأراد أن يذهب عنه الضيق بذكر خيلاء . ولكنه كلما تمثلها عادت إليه أصداء المجلس الذى كان فيه فيشرد عنها ويستغرق فى أمواج من الهم . وكأنه سمع هاتفاً يهتف به فى صوت يشبه الصوت الذى سمعه فى كهف ينور قائلا : « ألست تطلب ملكاً ؟ » وتمثلت له صور العقارب والأفاعى والعظام والدماء وأخيه « مسروق » كأنه

يراه عند باب غمدان . ألا يكون ذلك الذى يراه عند الباب هو يكسوم الغليظ الثلب ؟ إذن لجرد سيفه وأغمده فى صدره بغير أن يحس أسفاً .

أهو يطلب الملك حقًّا ؟ إن هذه الجموع التى تلتف حوله فى كل ليلة لا تكاد تدع له سلاما ، وكأنها تصيح به هاتفة بصوت ساحرة الكهف قائلة : « ألست تطلب الملك ؟ » .

وطلع عليه الصباح ولم تغمض عيناه ، فعزم على أن يخرج مبكراً إلى نزهته حتى لا يلقى أحداً من هؤلاء الذين كادوا يجعلون مقامه هناك حملا ثقيلا . ووجد الشيخ أبا عاصم حيث تركه مضطجعاً فى مجلسه كأنه لم يذق هو كذلك نوماً . فتبسم له الشيخ قائلا : « لا أراك ذقت النوم فى ليلتك » ، فقال له سيف :

ــ أحب أن أرى مطلع الشمس فى الوادى .

فهب الشيخ ولف رداءه قائلا :

ــ كدت أسبقك إلى هناك .

وخرجا معًا إلى الهضبة المقفرة التى فى ظهر القصر وكان الوادى ينحدر من هناك تحتها عميقاً فى أخدود قائم الجدران ، يتعرج فى ثنيات متوالية . وكان قاعه يبدو فى النور الخافت فى ألوان مختلفة بين بياض الماء وشهبة الرمل وسواد النبات كأنه ظهر حية تتلوى هاربة . وأشرفا بعد حين على طنف بارز من جانب الوادى فيه أطلال بالية تصف بقاياها رسم معبد قديم لم يبق منه إلا أركان شاحبة لوحتها الشمس ، وبرتها

الأمطار ونخرتها الرمال السافية مع الرياح . وكانت بقايا البناء قطعاً ضخمة ما تزال راسخة على أساسها كأنها عماليق أدركتها الهزيمة وهى تتعثر فى أعقاب معركة هائلة . كانت الأحجار تحمل آثار جراحها والأعمدة المحطمة ملقاة على الرمال معفرة مثل أشلاء الصرعى ، هنا قطعة من عمود مرمرى ما زالت صفحتها الصقيلة تلمع فى شعاع الشمس المشرقة ، وفتات الحصى متعلق بأصلها وأعواد خضراء من الحشائش والأعشاب تنشب جذورها فى شقوقها ، وهناك لوحة من صخور داكنة أو وردية أو بيضاء عليها نقوش وصور لا يدرى أحد ماذا تصف من شئون الذين بنوها وعاشروها حيناً ثم خلفوها . وفيما بين تلك قطع مهشمة من تماثيل لم يبق من ملامحها إلا ما يبقى من هيكل جثة محنطة ، من تلك التى كان الأعراب يعثرون عليها فى المقابر ويمزقون عنها لفائفها فى طلب ما قد يكون عليها من الذهب أو الجوهر . كان منظراً حزيناً جليلا زاده روعة منظر الرمال المتموجة الصفراء التى كانت تمتد إلى الأفق من وراء الحطام حتى الأفق الشرقى ، لا يقطع صمتها صوت سوى طنين الحشرات المتطايرة ، أو صدى صوت عصفور يزقزق من بعيد ثم يختفى سريعاً كأنه يسخر ممن يدب على الأرض بطيئاً .

وذهب الشيخ إلى أقصى الطلل فاعتمد على أصل عمود قائم ، ينظر نحو ربوة تكللها قطع رقيقة من السحاب الأبيض ، وشعاع شمس الصباح يقع عليها فى ألوان ذهبية وردية ، وتنفس نفساً عميقاً عندما سمع صوت سيف يناديه :

ـ أشاعر على طلل ؟

فقال الشيخ باسماً :

ـ ومن ذا الذى يقف هنا ولا يشعر ؟

فقال سيف :

ـ أى قوم ملأوا الأرض بهذه البقايا ؟

فقال الشيخ :

ـ هذا ما كنت أقوله لنفسى . كانوا أجيالا من الملوك يا سيف . لكأننى أرى هذا البناء المتهدم عند ما فرغ الصناع من صقله ونقشه ، وكأننى أرى الملك الذى أحدثه ينظر إليه معجباً ويقول : « ها أنذا قد خلدت ذكرى » .

فقال سيف :

ـ أتذكر اسم أحد من هؤلاء ؟

فقال الشيخ :

ـ نسى اسمه كما تهدم بناؤه . ولكنه كان ملكاً عظيماً .

وماذا عليه أننا لا نعرف اليوم اسمه ، وهبك سميته تبع أو مرثد أو وائل ، فماذا كان اسمه يزيدك به علماً ؟ لقد كان ملكاً عظيماً وكفى .

فقال سيف :

ـ ولكن هذا الفناء يملأ نفسى حزناً .كل شىء هنا ينادى قائلا «كنا» ، أو يقول : « ما هذه الحياة سوى باطل وغرور » .

فقال الشيخ باسماً :

– ولكنى أسمع لغة أخرى . كأن هذه الأطلال تقول إن الألوف كانوا يحجون إلى هنا يملأون الفضاء الذى تراه اليوم مقفراً ، وكانوا ينظرون إلى هذه الأعمدة ويتأملون جمالها ويعجبون بها خاشعين . وكانوا يدخلون إلى المعبد ويستمعون إلى أناشيده تتردد بين جنبات المحراب جليلة فتمتلئ قلوبهم تقديساً ، ويخرجون بعد ذلك إلى الصحراء ويطلقون أنفاسهم فى جوها وهم يحسون أنهم ألقوا عن كواهلهم أثقالها . فالتوبة للآثم والعزاء للحزين والأمل للبائس .

وصمت هنيهة وسيف ينظر إليه مستغرقاً . وكانت الشمس تخطر فى موكبها فقال الشيخ :

– لا يلهينا الحديث عن جلال الصباح يا سيف . إن موكب الشمس مشرقة أعظم بهاء من موكبها غاربة . هذا أجدر أن يكون تتمة حديثنا .

فقال سيف باسماً وهو ينظر إلى الشمس :

– إنك تنطق الأشياء كما تحب يا سيدى المبجل . حقًّا ما أبدع الشمس فى إشراقها على طلل مثل هذا . الحياة والفناء معاً .

فقال الشيخ كأنه يحدث نفسه :

– حكمة أبدية تنطق بها الأشياء جميعاً . غروب وشروق . حياة وفناء . شباب وشيخوخة ، وكلها تتعاقب فى دورات متوالية . الحياة بعد الفناء ، والشروق بعد الغروب ، والشباب بعد الشيخوخة . لا عبرة هنا

بالأفراد فإن سنة الحياة لا تقف عند حدود حياتنا الفانية ، الحياة فى إبانها والفناء فى إبانه وكلها تخضع لحكمة أزلية ، تدبرها يد عليا .

فقال سيف :

– أتؤمن بيد عليا يا سيدى الشيخ ؟

فقال الشيخ باسماً :

– لست أدرى يا ولدى . بل كأننى لا أفهم ما أقول . هى لمحة تقع فى النفس غامضة ، فإذا حاولت أن أفصح عنها تعثرت الألفاظ وناءت بحملها . ولو فتح الناس قلوبهم لأدركوا بها فوق ما يدركون من هذه الألفاظ التى ندعى أنها وسيلتنا إلى البيان . كل ما فى الكون ينطق لمن يستطيع أن يدرك كلماته . كل حركة بميزان وكل شىء لحكمة . حتى الأمم فى حياتها وفنائها تتكلم .

فقال سيف : قائله ؟

فقال الشيخ : تقول إن الأمم تفنى عندما يحق عليها الفناء وتحيا إذا استحقت الحياة .

فقال سيف ولا تملك شيئاً من أمرها ؟

فقال الشيخ بل تملك كل أمرها . ليتنى أستطيع يا سيف أن أبين لك ما أريد ، فإنى كلما نطقت بشىء سمعته فى أذنى غامضاً فاتراً لا يصور الحقيقة التى أحسها .

فقال سيف بعد صمت لحظة :

– كأننى أفهم طرفاً مما تقول ياسيدى المبجل . وأسأل نفسى

كيف ذهب قومى .

فقال الشيخ صدقت ياولدى ، فإن المعانى لا تتجسد إلا فى حادثة .

وصمت لحظة ثم قال

ـ لك أن تعجب إذا قلت لك إن هذه أول مرة ينصرف فيها فكرى إلى سؤلك هذا . كيف ذهب قومنا ؟ أهى غضبة من الأقدار ؟ هكذا يقول بعض الذين يخادعون أنفسهم ويريدون أن يلقوا ذنبهم على وهم غامض لا يستطيع أن يقول لهم كذبتم. إن للأقدار حكمة ولكنها حكمة نستوحيها نحن من الحوادث. أما الأقدار نفسها فليست تغضب فتعصف بالناس أو ترضى فتحابيهم . الأقدار لا تغضب على أحد ولا تحابى أحداً وهى مثل الدهر الذى يمر علينا فنهرم ونفنى ، ومثل الفلك الذى يدور فى دوراته فيطلع النجوم فى أوانها ويغيبها فى أوانها .

ومع ذلك فإننا نستطيع أن نستوحى حكمتها من الحوادث ، أو من أنفسنا .

فقال سيف أنفسنا ؟

فقال الشيخ نعم يا ولدى . إن فى أنفسنا عالماً كبيراً لو تمكنا من إدراكه لكان ذلك حسبنا . فينا كل عناصر الضعف وعناصر القوة ، فينا الحيوان والحكيم وفينا الشيطان والملك أو هو الشر والخير ، ولنا أن نختار فى سلوكنا ما نشاء فى نفوسنا .

فقال سيف والناس يختارون دائماً . لأنهم يطيعون طبيعتهم .

فقال الشيخ : وهذه هى التى أسميها حكمة الأقدار . فإذا اختار الناس ما فيهم من ضعف ومن حيوان ومن شيطان حق عليهم الفناء .

فقال سيف : أهكذا اختار ذو جدن ؟ أهكذا اختار ذو يزن ؟

فقال الشيخ من يكون ذو يزن وذو جدن ؟ لن يستطيع فرد أن يقاوم سنة الخليقة .

فقال سيف إذن فلا حيلة لنا ؟ فما معنى اختيارنا ؟

فتبسم الشيخ قائلا : مرحى يا سيف ! حجة قوية . نعم يا ولدى لن يستطيع فرد أن يختار لأمة . لن يستطيع فرد أن يرد تيار أمة . ولكنه يقدر على أن يضرب المثل الأعلى .

فقال سيف لمن ؟ لقوم يختارون لأنفسهم الضعف ؟

فأجاب الشيخ : صدقت مرة أخرى يا سيف . الناس يختارون لأنفسهم حقًّا . ولكن الإنسان على ما فيه من أخلاط الضعف ينطوى على ضمير . نعم للإنسان ضمير يتعلق دائماً بالمثل الأعلى .

فقال سيف كأنه يحدث نفسه : المثل الأعلى !

فقال الشيخ فى حماسة نعم يا ولدى . هو الذى يمس ضمير الإنسانية دائماً . هو الذى تتعلق به الأمم دائماً حتى فى أشقى حالاتها . لن تجد أمة تنطق بلسانها العام إلا رددت مثلا أعلى . هى لا تنتظر إلا من ينطق لها أولا . هذا هو المنبع .

فقال سيف هذا هو المنبع ؟

فقال الشيخ نعم يا سيف ؟ هذا المنبع الذى تستمد الأمم منه

حياتها . لسان صادق يهتف أولا بالمثل الأعلى .

فقال سيف : ولم لا ينطق به الناس . لم لا تنطق به أنت مثلا ؟

فقال الشيخ : تسألنى لم يا ولدى ؟ لست أدرى . ولكنه قد كان . من السهل أن نتحدث هكذا ، فإنه لا يكلفنا إلا أن نتكلم . ولكن الصعوبة هى أن نفعل وأن نستطيع .

فقال سيف إذن فلا جدوى من كل هذا . إنها أحجية يا سيدى ، وعفواً إذا قلت هذا . إنه لغز . تقول إننا نستطيع أن نختار وأن ننطق بالمثل الأعلى وأن هذا هو المنبع ، ثم تقول إننا لا نستطيع أن نفعل .

فقال الشيخ هادئاً : مرحى مرة أخرى يا سيف . حجة قوية . نعم يا ولدى صدقت فإنا نستطيع أن نفعل إذا كان لنا القلب الذى يؤمن والجنان الذى يقوى، ثم . . .

وصمت قليلا وسيف ينظر إليه فى لهفة . واستأنف قائلا فى تمهل :

ــ ثم التوفيق يا سيف . التوفيق إلى أن يستمع الناس ويؤمنوا .

وأطرق سيف حيناً طويلا ثم قال فى صوت خافت :

ــ حدود وقيود لا يكاد يلوح فيها أمل .

فقال الشيخ : بل فيها الأمل يا سيف . القلب المؤمن والجنان القوى واسم ذى يزن .

فقال سيف فى صيحة ذو يزن ؟

فقال الشيخ نعم يا سيف بن ذى يزن . كأننى أرى مشرق

الشمس غداً إذا كان لك القلب المؤمن والجنان القوى .

فقال سيف كالحالم : القلب المؤمن !

فقال الشيخ فى حماسة : نعم يا ولدى . القلب الذى يحس أن الحياة لا تستحق شيئاً إذا لم تكن فى ظل الكرامة والحرية ، والذى يؤمن بأن الحياة تكون دنسة كريهة فى ظل العبودية ،والذى يمتلىء اعتقاداً أن الذى خلق الإنسان يغضب عند ما يراه لا يسمو إلى إنسانيته .

ثم رفع بصره إلى سيف باسماً وكان الفتى يعلق بصره فى وجهه مستغرقاً :

ومضى الشيخ قائلا انظر إلى الشرق يا سيف ، ولا تضيع ما خرجنا من أجله . هذه هى الشمس المشرقة التى غابت تحت الأفق بالأمس .

وكانت شطآن الوادى تتفتح للصباح وتتضح فيها الحدود بين الماء والمروج الخضراء ، وخرجت الطيور إلى غصونها ، ورف النسيم على الصحراء الصامتة . وسارا يصعدان حيناً ويهبطان حيناً نحو القصر فى صمت ، وكان فى الفناء جمع كبير من الوفود فاتجه سيف إليهم بقلب يفيض أملا . إنهم قومه الذين يستطيع أن يصيح فيهم بقلب مؤمن وجنان قوى وأن يرى معهم شروق الحياة مرة أخرى على اليمن السعيدة .

ومر به اليوم وصدر من الليـــل لم يحس ضيقاً ولم يفتر نشاطه ، حتى خلا إلى نفسه مرة أخرى فى الليل ، وكان القمر الناقص يرمق النجوم فاتراً والهواء البارد يحمل أريج الزهر من الوادى . وعاد إلى

سبحه فى أصداء أحاديث الوفود المثرثرة ، وكان طلل المعبد يبرق له فى شمس الصباح وصوت الشيخ يرن فى سمعه يقول له: « إن موكب الشمس مشرقة أعظم بهاء من موكبها غاربة » . وخيل إليه أن الصوت الذى كان يهتف به قائلا : « ألست تطلب ملكاً ؟ » قد صار عالياً يشبه هدير الرياح فى كهف ينور . أحقًّا يقتحم المعامع التى تذيقه لسع الأفاعى والعقارب وتطعمه العظام والدماء . وتجعله يقتل أول من يلقاه وإن كان أخاه؟ وأين إذن خيلاء؟ أين الآفاق العلى التى يسمو إليها إذا استمع إلى نجواها؟ أهذا بعض الثمن الذى تتقاضاه الأقدار إذا شاء أن يسير بقومه نحو الشروق ؟ وخيل إليه أن الفضاء الأغبش الذى يترامى تحت عينيه قد امتلأ عظاماً رميماً تسيل من بينها الدماء الحمراء . وقام مسرعاً من مجلسه يهرب من المنظر المرعب يلتمس السلام فى صورة خيلاء عازماً على أن يستعيد أحاديثها إلى جانب الوعاء المرمرى .

وعزم على أن يجعل الليلة خاتمة تردده ، وأن يعود من الغد إلى صنعاء ليلقى خيلاء ويتم معها حديثه الذى لم يبلغ بعد منه المدى . سيذهب إليها فاتحاً لها ذراعيه مؤثراً معها السلام والأمن ، مؤثراً إياها على كل المطامح التافهة التى أخذت تراوده عن سعادته . وسيخرج بها من غمدان إلى قصر جده ويصد عنه تلك الجموع التى تريد أن تلوى به إلى تيه بعيد الأغوار معقد الشعاب . ولما واتاه النوم بعد حين ألم به طيف خيلاء وكانت باهرة الحسن ، لم يرها يوماً فى مثل ذلك البهاء .

ولكنها كانت دامعة العين تمد إليه يديها فى ضراعة كأنها تعاتبه على هجرانه . وقال لها :

– فديتك يا خيلاء لم تبكين ؟

فقالت تعتذر :

– أكنا نسير فى صحراء ؟ أكنا نتجه إلى سراب ؟

فناداها فى لهفة :

– لم تتكلمين هكذا ؟ ما تلك الصحراء التى تذكرينها وما ذلك السراب ؟ كأنك تنطقين ببعض ما كنت أنطق به فى سورة جنونى ويأسى . تعالى نذهب معاً إلى حيث نجد السعادة ، فليس هناك صحراء ولا سراب . هناك سلام وحقيقة . ألا تعرفين أننى وجدت قومك وقومى ؟ فلنذهب إليهم . ولننس كل شىء هنا .

وذهب إليها ليضمها بين ذراعيه ولكنها لم تكن سوى خيال ، فاختفت عنه وهو يفتح عينيه ويحس فى قلبه حسرة وضيقاً . وكان قلبه يخفق تأثراً وقطرات من الدمع تبلل عينيه . وكان القمر الناقص ما زال يخوض فى السحب هابطاً فى السماء نحو الغرب شاحب اللون مثل طعين منهزم يتوارى فى جثث القتلى – مثل أبيه . وقام من مرقده يحاول أن يعيد إلى نفسه هدوءها ولكن الحلم كان فى نفسه كالحقيقة .

وطلع عليه الفجر مثل الطفولة البريئة تطلع على الشيخ الفانى ، فتبعث إلى قلبه شيئاً من الدفء والبهجة ، وبدأ الطير يتناجى ويسبح بتحية الإشراق ، ثم تزايد النور شيئاً بعد شىء حتى لمعت من الأفق

خيوط ذهبية تصبغ السحب . إنه موكب الشمس المشرقة مرة أخرى .
ثم سمع صوت طارق يدق باب مخدعه فأجفل وداخله شعور غامض بأنه أمر خطير ؛ ورأى أمامه الشيخ أبا عاصم ، وكانت نظراته تنم عن حديث .

فبادره سيف قائلا :

ـ عم صباحاً يا خال .

فقال الشيخ :

ـ عمت صباحاً يا ولدى.

ووقف ينظر إليه صامتاً.

فقال سيف فى لهفة :

ـ نظرتك تتحدث يا سيدى .

فقال الشيخ وفى صوته رنة من الأسى :

ـ أبرهة !

فصاح سيف فى فزع : ما لأبرهة ؟

فقال الشيخ   لك طول البقاء .

ثم دخل وأخذ يحدثه بما سمعه من وفود أتت فى الليل تحمل ما سمعته من أنباء تطايرت إليهم مع الركبان العابرة .

١٢

قال الراوى :

« إننا نتحرك معاشر البشر كما تريد لنا الطبائع المركبة فينا ولا نملك من مصائرنا شيئاً سوى ما يخيل إلينا أننا نملكه منها . الحب والكراهة والأمانى والأوهام تدفعنا وتأخذ بزمامنا قسراً ، ونحن نحسب أننا نسعى إلى غاية مقدورة دبرناها بأنفسنا ، وننخدع فيملى علينا الغرور أننا نختار كل أمورنا بعقولنا وإرادتنا . نحن كالمسافر فى غابة كثيفة لا نرى منها إلا الخطوة التى نوشك أن نخطوها ، ثم إذا خطوناها لم نزد على طاعة الحدود والقيود التى تحتمها الطبيعة علينا . قد نتجه يميناً أو شمالا ، وقد ينتهى بنا السير إلى بقعة مكشوفة تسطع عليها أشعة الشمس ، فيملؤنا الإعجاب بأنفسنا ونقول ما كان أحسن اختيارنا . وقد ينتهى بنا الطريق إلى هاوية عميقة أو سد قائم أو وجار وحش ضار فنقف حائرين ونتهم عند ذلك صروف القضاء ونندب حظنا . ولو تأملنا حياة من سبقنا لأدركنا طرفاً من الحقيقة التى نضل عنها ، وهى أن لها حكمة وخطة أعلى من حكمتنا وأصرم من خطتنا » .

هكذا كان الشيخ أبو عاصم يتحدث إلى سيف عندما حمل إليه أنباء الفاجعة التى حلت بأبرهة وجيشه فى الهضبة المطلة على مكة . فلنرجع

إلى أبرهة بعد أن سار من صنعاء تملؤه أمانى المجد والسيطرة وتحدوه الثقة بتحقيق الخطة التى دبرها .

كانت الأمانى الفسيحة تنداح أمام عينيه . سيكون حامى النصرانية فى الجنوب كما كان قيصر حاميها فى الشمال ، وسيبقى ملكه أخلد من ملك يوستن ويوستنيان ، فإن الله وهب له ما لم يهب لهما : ثلاثة أبناء من زوجتيه – نعم ثلاثة أبناء لأنه وعد ريحانة ألا يتخلى عن ولدها . ولن يضيره أن يجعل ولدها ملكاً على الحجاز بدلا من ذلك الدعى قيس بن خزاعى الذى يطمع فى أن يكون خليفته هناك . ولا شك أن أهل مكة يرضون عن ملك سيف أكثر من رضاءهم عن ملك رجل من العامة . لكن أحلام أبرهة لم تدم طويلا ولم يكن سيره إلى أرض الحجاز نزهة خريف ولا موكب مجد ؛ بل كان قتالا عنيفاً مع أعداء اجتمعوا له من فجاج الأرض يحاربونه فى صرامة .

وخشى أبرهة أن يضيع وقته وجهده فى شعاب ضئيلة تعوقه عن تحقيق غايته الكبرى . فترفق ولجأ إلى حيلته وبذل لأعدائه الوعود واستمال رؤساء العشائر بالهدايا حتى اضطر أعنف الزعماء إلى الاستسلام ، وكان نفيل بن حبيب وذو نفر ممن خضعوا له وتعهدا أن يكونا دليلين لجيشه فى أرض الحجاز يسندانه بالنصح ويفاوضان له زعماء قريش .

فلما لاحت له مكة آخر الأمر كان الخريف قد تصرم وجاء الشتاء يزحف سريعاً . ووقف بجيشه على الهضبة يشرف على وادى المحصب ، وظهرت مكة من تحته صاعدة على جانب جبلها الأغبر

وهابطة إلى البطحاء الفسيحة الجرداء ، وكانت الكعبة مطمئنة على ساحتها الرملية وأشعة الشمس تغمرها لا يعترضها شيء يلقى تحته ظلا .

وهبطت طلائع الجيش إلى الوادى فساقت ما فيه من الإبل غنيمة ، ولكنها لم تجد به أحداً سوى بعض العجائز والصبية ، لأن حماة المدينة أحسوا اقتراب الجيش وعرفوا ما يريده أبرهة منهم فأجمعوا على أن يصعدوا فى شعاب الجبال ليتربصوا هناك بعدوهم كلما وجدوا منه غرة .

وأشار نفيل بن حبيب على أبرهة أن ينزل فى فضاء الهضبة المشرفة على الوادى لعل أهل مكة يعودون إلى أنفسهم وينزلون على حكمه بغير قتال . وتردد أبرهة حيناً وهو ينظر إلى الصحراء الجرداء التى تمتد إلى دائرة الأفق ، فماذا يجد هناك ليمد به جنده وخيله وفيلته ؟ ولكنه مع ذلك أمر بإقامة معسكره راجياً أن تبعث إليه قريش رسلها تسأله السلام . « وهل كانت قريش لتصبر على الحرب وهى أمة من تجار ؟ إنهم لا يحرصون على شيء سوى المال والسلام » . هكذا قال نفيل وصدقه ذو نفر .

وبالغ نفيل فى النصيحة فعرض أن يذهب إلى مكة ليدعو سادة المدينة إلى الاستسلام ضارباً لهم المثل بنفسه وبصاحبه .

وعاد نفيل بعد يوم ومعه شيخ قريش عبد المطلب بن هاشم . فكان ذلك عند أبرهة أول الفوز . فاستقبل الشيخ فى قبته الكبرى ونظر إلى نفيل شاكراً ، ودعاهما إلى الجلوس معه فطرح لهما فراشاً على الأرض وأبى إلا أن يكون مجلسه إلى جنبهما .

وقال مرحباً بالشيخ :

– إنى سعيد بأن أراك يا أبا عبد الله .

ولكن عبد المطلب لم يجبه ونظر إليه متجهماً .

وقال أبرهة متسائلا :

– ما بعثت إليك يا أبا عبد الله إلا رغبة فى السلام . فما لك لا ترد على تحيتى ؟

فقال عبد المطلب بصوته العميق :

– عفواً أيها الملك فإنك رجل سمعنا بحلمه قبل أن نراه .

فنظر أبرهة إلى نفيل نظرة عاطفة ، وأنصت إلى الشيخ فى اهتمام .

ومضى عبد المطلب قائلا :

– عرفنا رجاحة عقلك وتجاوزك عن ذنوب أعدائك ، ثم جئت إليك فأوسعت لى وأكرمت مجلسى بجلوسك معى .

وصمت قليلا ثم قال :

– واتجهت إلى بتحيتك الكريمة قائلا إنك سعيد بأن ترانى . ولكنى أكذب عليك إذا رددت بتحيتى قائلا إنى سعيد بأن أراك هنا .

ثم التفت إلى الخيام التى تملأ فضاء الهضبة .

وكان أبرهة يجيل بصره فى وجهه المجعد الذى تلمع فيه عينان واسعتان مضيئتان لم تطفىء الشيخوخة شيئاً من وهجهما . وقال بعد صمت لحظة :

– لعل أبا حبيب لم يقل لك إنى لم أجئ إليكم غازياً .

فتبسم الشيخ حتى علا اللون فى وجهه وقال : بل قال لنا ذلك وأدى أمانتك على وجهها أيها الملك .

فقال أبرهة وإذن ؟

فقال الشيخ فى صوت خافت :

ـ إذن لقد تكلفت شططاً أيها الملك .

فقال أبرهة وقد أحس صدمة :

ـ ماذا تعنى ؟

فقال الشيخ : أعنى أنك تأتى بهذا الجيش الكبير وهذه الفيلة الضخمة التى لم يطأ أرضنا مثلها من قبل ، وتملأ فضاء الهضبة بخيلك ورواحلك وأنت تعلم أن صحراءنا تضيق عن سرحنا نحن ، ومع هذا تقول إنك لم تأت غازياً . فإذا لم تجئ غازياً فهل جئت مع هؤلاء حاجًّا .

وكانت نبرات صوته الهادئ تفيض سخرية .

فجمع أبرهة أطراف ثوبه وفى نفسه دفعة من الغيظ ، ولكنه ملك نفسه وقال هادئاً :

ـ ماذا قلت يا أبا عبد الله ؟

فقال الشيخ هادئاً :

ـ أسألك هل جئت حاجًّا . هل جئت تحج إلى هذا البيت العتيق الذى يحج إليه الناس جميعاً ؟

ولمعت عيناه ببريق فيه لون من السرور المكبوت .

فقال أبرهة متحدياً :

– بل جئت لأهدمه . أمثلى يحج إلى هذه الكعبة الشوهاء ويصلى إلى هذه الأوثان ؟ ما جئت إلا لأهدمها ، وما بعثت إليكم إلا رحمة منى أن أسفك الدماء فى قتال من أجل كومة حجارة . فكيف ترضى وأنت شيخ حكيم كما علمت أن تعبد هذه الدمى وأن تقول إننى جئت لأحج إليها ؟ هذه الدمى الحجرية الرخيصة .

فقال عبد المطلب وزادت عيناه التماعاً :

– نتخذها لك من ذهب إذا شئت أيها الملك .

فقال أبرهة غاضباً :

– أشيب وسخرية ؟

فقال الشيخ جادًّا : عفواً أيها الملك فما قصدت سخرية . ولكنى عجبت لقولك إن آلهتنا دمى حجرية رخيصة ، وإن كعبتنا كومة من حجارة ، فما نعبد الدمى ولا نطوف بكومة الحجارة إلا كما تعبد إلهك فى القليس .نحن نتسالم عندها ونتصافى ، ونطهر نفوسنا بالتعبد فى جوارها ، كما يتعبد الناس فى أركان الأرض كل على طريقته .

فقال أبرهة فى جفاء : لم أبعث إليك لنتحدث فى هذا .

فقال الشيخ : فأنا سامع لما بعثت إلى من أجله . فيم بعثت إلينا رسولك أيها الملك ؟ أبعثت إلينا لننزل على حكمك ؟

فقال أبرهة أما عندك قول تفضى به فيما قلت آنفاً ؟ ما بعثت إليك إلا لكى أمد إليكم يد صديق يريد السلام . سلنى أيها الشيخ ما شئت تجدنى سريعاً إلى الاستجابة . أما عندك قول ؟

فقال الشيخ بعد لحظة صمت :

– إذن فاردد ما أخذت من أموالى . هذا سؤالى إن كان لى سؤال .

فنظر إليه أبرهة فى دهشة ، ولم تخف عنه حركته عندما رفع حاجبيه الكثيفين يلحظه من جانب عينيه . وقال كأنه يتحفز لمنازلة :

– والكعبة ؟ ماذا عندك فى شأنها ؟ ألا تراها جديرة بأن تحدثنى فيها ؟

فقال الشيخ قلت لى أن أسألك ما أريد . وما كان لى أن أتحدث إلا عما أملك . ليست الكعبة ملكاً لى ولا ملكاً لأحد من قومى . إنها بيت الله لا بيت أحد منا . وما بيوتنا إلا هذه التى تراها هناك صاعدة فى الجبل أو هابطة إلى البطحاء .

وأشار بيده إشارة عامة بغير أن ينظر نحو المدينة ، ثم واجه أبرهة قائلا :

– ومع ذلك فقد هجرنا هذه البيوت التى نملكها ، ولا نعبأ بما يصيبها ، ولا نقيم اليوم إلا فى شقوق الصخر وشعاب الأودية الوعرة .

وأحس أبرهة أنه حيال رجل عنيف يجمجم ما فى نفسه . وقال وهو يحاول أن يملك غضبه :

– أهذا كل ما عندك ؟

فقال الشيخ بنبرات تنم عن تأثر :

– وما أملك أن أقول أيها الملك ؟ سننتظر الغد وما يسوقه إلينا .

فاذهب إلى الكعبة واهدمها كما تقول . وإذا شئت فاهدم هذه البيوت حجراً حجراً . لن تجد هناك من يلقاك لأننا لا نقوى على أن ننازلك فى معركة . لك القوة والسطوة وليس لنا سوى قلوبنا . لن نكون عبيداً لسلطان وإن عجزنا عن لقاء قوته . قد هربنا بحريتنا وكرامتنا وأعراضنا وهذه هى كل ما نحرص عليه فى حياتنا . وسيحكم القضاء حكمه فيما بيننا .

فقال أبرهة وكأنه تأثر بقوله :

ـ أهكذا يقول من أمد يدى إليه بالسلام ؟

فقال الشيخ عفواً أيها الملك لما تسمع من قولى ، فإنى لا أقصد التطاول ولا التحدى . ولكنى لم أجئ إليك أقصد خداعاً . إننى شيخ كما ترى ، وقد عركت الأيام وعركتنى منذ كنت طفلا يتيما ، فلم أجد فى الحياة ما هو أجدر بى من أن أقول الحق صريحاً ، فلا تنتظر منى كلمة كذب ولا رياء . لا أحب أن تكون كلمتى وديعة وقلبى يضمر لك حرباً ، ولا تحسب أننى أحب الصدق فى نفسى ثم أرضى بغير الصدق فى فهمى . فماذا تقصد بقولك إنك تمد إلينا يدك بالسلام ؟ إنما سبيل السلام واضحة .

فقال أبرهة متحفزاً :

ـ وما تلك ؟

فقال الشيخ : انصرف بجيشك عائداً إلى صنعاء . فإذا فعلت هذا لحقنا بك منذ الغد نحمل إليك شكرنا وصداقتنا .

فقال أبرهة ساخراً :

– عجباً منك أيها الشيخ .

فقال عبد المطلب هادئاً :

– وما وجه العجب أيها الملك ؟

فقال أبرهة فى دفعة :

– عجبت منك غير مرة وإن كنت صبرت عليك نفسى ومددت إليك يدى مسالماً ، فما ذلك إلا أنى لا أدع فرصة فى السلام تنفلت من يدى ، ولكنك تأبى إلا أن تردنى ساخراً . سألتنى أجئت حاجًّا وأنت تعرف أننى أدعوكم إلى الحج إلى قليسى . وقلت لك سلنى ما شئت فنسيت كعبتك وآلهتك وقومك وحدثتنى عن إبلك . ثم تريدنى آخر الأمر على أن أعود أدراجى حتى تلحق بى لتشكرنى . أجادًّا تنطق أم هازلا ؟ أليس فى كل ذلك ما يدعو إلى العجب الأعجب ؟

فتبسم الشيخ قائلا : ألم تسمع قبلى رجلا صدقك ؟

فثار أبرهة قائلا : أشيخ قريش أم سوقة ؟

واتجه إلى نفيل قائلا : من ذلك الذى جئت به يا نفيل ؟ أهو أبو عبد الله حقًّا ؟

فقال عبد المطلب مبادراً : أتسأل عنى يا أبا يكسوم وأنا أسمعك ؟ أسمعت منى سفهاً ؟

فقهقه أبرهة قائلا :

– بل سمعت عجباً .

فقال الشيخ هادئاً :

– ما هكذا نقهقه فى نوادينا إذا تحدثنا فى الجد . وما هكذا نقهقه إذا طالبنا أحد بحقه . إننا نعرف الحق ونقدره وننصر المظلوم ونتعاون على رد المعتدى .

فقال أبرهة فى جفاء :

– ما أشد خيبتى فيك يا ابن هاشم .

فثار الشيخ أول مرة قائلا : لعلها أول الخيبة ؟

فصاح أبرهة : ماذا قلت ؟ وهل تأمن أن أعاقبك أيها الشيخ على سوء أدبك ؟

فقال الشيخ باسماً فى سخرية :

– لو كنت سوقة لقهقهت ضاحكاً . أتعاقبنى وأنا فى منزلك ؟ أتعاقب رسولا بعثت تطلبه وجاء إلى جوارك آمناً يعرف أنه يلقى ملكاً ؟ أتعاقب رجلا جاء ليخاطبك ويرد على قولك بما يليق به ؟ أتغضب من رجل جئت تغزو بلده فيقول لك : « لعلها أول الخيبة ؟ » ماذا كنت تتوقع منى أن أقول لك جواباً على قولك : « ما أشد خيبتى » ؟ أكنت تحسب أن أجيبك متمنياً لك النجاح ؟ ماذا يغضبك منى وأنا أتمنى لك الخيبة فى إذلال قومى وانتهاك حرماتنا ودك حرمنا وتحطيم آلهتنا ؟ أما تعلم أننى أرجوها لك حقًّا ؟ ثم ما هى تلك الخيبة التى وقعت فى قلبك منذ سمعت قولى ؟

فقال أبرهة وهو يحاول أن يمسك نفسه :

ـ إنك منذ اليوم تثيرنى كأنك ما جئت إلا لتحرضنى على القتال . لم أبعث إليك لتبارزنى بحد لسانك ، فإنى أشهد أنك لصاحب لسان حديد . ولكن هذه الأقوال لا ترد قضاء ولا تغنى فيما نحن فيه شيئاً . لقد هبتك أيها الشيخ عندما وقعت عينى عليك ، ورأيت من شيبك ومن هيئتك أنك زعيم نبيل حكيم ، وحسبت أننى أستقبل داهية القوم .

فقال الشيخ باسماً :

ـ ثم رأيت . . . ؟

فقال أبرهة :

ـ رأيت رجلا . . .

وسكت لحظة كأنه يريد أن يختار لفظاً ملائماً ؛ ثم قال :

ـ ولكن ما جدوى المضى فى هذا الحديث ؟ قل لى يا أبا عبد الله أما من سبيل سوى القتال ؟

فقال عبد المطلب فى هدوء :

ـ نحن فى قبضة القضاء جميعاً ، مثل قوم فى بحر يتقاذف بهم الموج ، وقد هب عليهم إعصار حجب عنهم منظر الأرض والسماء . فماذا نستطيع أن نفعل لأنفسنا سوى أن نتماسك حتى تنجلى عنا غمة العاصفة ؟ لا حيلة لنا إلا أن نتماسك ونجاهد حتى تنجلى عنا ، فإما غيبتنا الأعماق فى ظلامها وإما خرجنا إلى البر فى سلام .

ثم تحفز للقيام قائلا :

— ومع هذا فلست أيها الملك بأول من نظر فأخطأ .

وكان صوته العميق يرن هادئاً كأنه يلقى تحية .

فقال أبرهة إلى أين يا أبا عبد الله ؟

فقال عبد المطلب : هذا آخر ما عندي .

فقال أبرهة ألك فى رأى آخر ؟ اجلس يا أبا عبد الله حتى نتم حديثنا .

فجلس عبد المطلب قائلا : إنى سامع لما تقول أيها الملك .

فقال أبرهة ألا تذهب إلى قومك فتحدثهم عنى ؟

فقال الشيخ ما كنت لك رسولا أيها الملك ، ابعث معى من شئت يكن فى جوارى لا يمد إليه أحد يده إلا من بعد هلاكى وهلاك عشيرتى .

فقال أبرهة ألم تسمع ما قلت ؟

فقال الشيخ : بل قد سمعته . فهل تريدنى على أن أذهب إلى قومى قائلا لهم : « أسلموا قبل أن يحطمكم أبرهة ؟ » أم تريد أن أقوم فيهم قائلا : « أنكروا آلهتكم وانظروا إليه وهو يهدم كعبتكم » ؟

فقال أبرهة بل قل لهم هو يطلب مودتكم وسيعود عنكم وهو حليف لكم لا يريد إلا أن نكون معاً يداً واحدة ؛ فتسودوا على الناس جميعاً وتتدفق الخيرات إلى واديكم الأجرد . وأما الكعبة فسأبدلكم خيراً منها .

فقال الشيخ   هذا قولك أيها الملك ، فابعث به إن شئت رسولا ينطق بلسانك .

فقال أبرهة متلطفاً : وأين تكون أنت ؟

فأجاب الشيخ : أكون واحداً من قومى ، أدلى إليهم برأيي .

فقال أبرهة   ألست كبيرهم ؟

فأجاب : ولكنى أحدهم .

وكان وجه أبرهة ينطق بما ينطوى تحته من الحنق ولكنه قال لمن حوله :

ـ ردوا على الشيخ إبله .

ثم قال للشيخ : سأبعث معك رسولى . امض معه يا نفيل .

وكان نفيل جالساً يتأمل حركة الشيخ ويحفظ أقواله مستغرقاً فيها .

فأجاب فى تردد : وماذا أقول يا مولاى ؟

فقال أبرهة   أما سمعت ما كان بيننا ؟

فأجاب : بل حفظته .

فقال أبرهة   كن عندهم رسولى .

ولما قام عبد المطلب منصرفاً مال أبرهة على نفيل قائلا :

ـ هذه ساعة الوفاء يا نفيل .

فقال نفيل هامساً   سأحاول ما استطعت يا مولاى .

وركب الرجلان متجهين نحو مكة وأبرهة ينظر فى أثرهما صامتاً ، فلما التفت إلى من حوله رأى عدوة ينظر إليه عابساً .

فقال له فى شىء من الضجر : ما بك يا عدوة ؟

فقال فى هدوء : أحس شرًّا يا مولاى .

فانصرف أبرهة عنه وهو يغمغم بكلمات حانقة حتى خرج من خيمته وسار على الهضبة وحركته تنم عن قلقه .

ومضى يومان ولم يعد نفيل بن حبيب . وكان أبرهة يشرف بين كل حين وآخر من قبته العالية ينظر نحو المدينة الخالية ويقلب بصره فى الأفق ثم يجيله بين الخيام المتزاحمة ويستمع إلى ضجيج الجيش ويناجى نفسه قائلا : « لم يعد نفيل » .

وظهرت على أفق الجنوب سحابة سوداء تلتمع فى حواشيها بروق تعقبها رعود تتدهدى من بعيد كأنها صخور هائلة تتهاوى فى باطن الأرض . وكانت الشمس تتكبد السماء وسكنت الريح فكأن الفضاء يتقد فى أتون .

وكانت الرمال ترسل وهجاً ثقيلا تكاد الأنفاس تحترق فيه .

وكان عدوة واقفاً أمام خيمة الملك وفى يده حربة طويلة ، وهو بين آن وآخر يسير فى خطوات بطيئة واسعة ويتطلع فى الآفاق عابساً . وكان فى قوامه الفارع الدقيق ووجهه الجاهم ورأسه المرفوع ما يدل على أنه محارب حانق .

وبدأت الريح تشتد وتسفو الرمال فى وجهه ، وهزيم الرعد يكاد يصم أذنيه . وناداه أبرهة مرارًا حتى بلغه الصوت بعد حين فسار فى خطاه الواسعة إلى داخل الخيمة وحياه ثابتاً .

فقال أبرهة فى حنق : أما تسمع ؟

فأجاب : معذرة يا مولاى . . .

وانطلق الرعد مرة أخرى فأغرق تتمة قوله .

وقال أبرهة حانقاً : ويل لهذه السماء ؛ كأنها تتعمد إثارة غضبها الآن . لم يعد نفيل يا عدوة .

فوقف الجندى الشيخ صامتاً .

وصاح أبرهة : ألم تعد إليك الطليعة التى بعثها إلى أعلى وادى المحصب ؟

وانطلقت فرقعة من الرعد فانتظر عدوة حتى هدأت ثم قال :

ـ وبعثت من بعدها أخرى .

فاندفع أبرهة ساخطاً : أوقعت فى كمين آخر ؟ إنهم يرصدون لنا فى ثنايا الأودية كالفهود أو بنات آوى ، ويخرجون على جنودنا كلما وجدوا فرصة ، ثم يختفون فى شقوق الأرض كأنهم من الحشر . أنسينا القتال يا عدوة ؟

فقال الشيخ   لم ننس القتال يا مولاى ، ولكنك ترى من نحارب . هم يعرفون كل صخرة وكل شق فيها ولا يبالون أن يتواثبوا على أضراس السفوح كأنهم وعول .

فقال أبرهة فى ضجر : كأنك تشيد بحمدهم . والآن يا عدوة ؟

فقال عدوة : أنت تعرف رأيى يا مولاى .

فقام فى وثبة وقال : نعم أعرف رأيك . أعرف أنك لا ترى

ما أرى ، ولا تحب ما أحب . أعرف أنك تتكهن بالشر أبداً وتريد أن تخلع قلبي .

فقال عدوة عابساً : ما سمعتك قبل اليوم يا مولاى تقول هذا . إن الغضب يحملك إلى حيث لا تريد .

فقال أبرهة ذاهباً مع حنقه : بل أعرف أنك تبدلت وتباعدت ، فما أمرتك أمراً إلا قلت لى : « ولكن » . . .

فأجاب : إذا رأيت يا مولاى أن أمسك لسانى فلا أراجعك فى قول فعلت .

فعاد أبرهة إلى مجلسه صامتاً يدمدم ، وخرج عدوة إلى موقفه فى العراء وكان المطر يتساقط رذاذاً . ولبث أبرهة قليلا ثم قام خارجاً ونادى عدوة قائلا :

— ابعث إلى أنيس صاحب الفيلة .

فقال عدوة : هو مع الفيلة يا مولاى .

فصاح أبرهة : لست أزعم لك أنه يرقص حول النار أو أنه يقيم عرساً لابنته . أعرف أنه مع الفيلة .

فقال عدوة وهو يحاول تهدئتها .

فصاح أبرهة فى ذعر : أهى الأخرى ؟

فقال عدوة كلما تقدم أحد إليها ثارت غاضبة تريد أن تبطش به .

فقال أبرهة ماذا أصابها ؟ !

فقال عدوة جائعة عطشى لا تجد ما يكفيها من الطعام والماء ،

وأنيس يحتال أن يصيب لها شيئاً من ذلك حتى أشركها فى مياه الجنود.

فقال أبرهة مرحى أيها الأصدقاء ، ألا تقدرون على حمل الماء من الوادى ؟

فقال عدوة غوروا المياه وطموا الآبار فى الليل .

فصاح أبرهة : يا شياطين الجحيم ، لا أسمع إلا ما يملؤنى غيظاً . كل شىء يخوننى .

وانطلقت فرقعة أخرى من الرعد وهطل المطر فى عنف ، وارتد أبرهة يحتمى بالخيمة .

وقال : كل شىء يخوننى حتى السماء . وأنتم جميعاً تخونوننى .

فقال عدوة ثابتاً : عفواً يا مولاى . إن الخائن يتستر ويتلطف ولكنى أثير غضبك ، لأن ولائى أكبر عندى من سلامتى .

فقال أبرهة ماذا تقصد ؟

فأجاب عدوة : أقصد أنك أمنت إلى الذين خدعوك واستخونت الذين يفدونك بأنفسهم .

فأجاب أبرهة غاضباً : نعم أعرف ما تريد . ليس هذا القول جديداً عندى فإنك تكره هذا الرجل وما زلت تفرغ حقدك عليه فىّ أنا . وماذا تريد بعد ؟

فقال عدوة أعيد عليك نصيحتى .

فصاح أبرهة : نعود إلى صنعاء ؟

فقال الرجل ثابتاً : اليوم قبل الغد والساعة قبل الساعة التى بعدها .

فصاح فى عنف : هراء وسخف . بل جنون .

فقال عدوة ليست هذه الأرض مقاماً لك .

فقال أبرهة عابساً : نصيحة معادة . كأننى أرضى أن أتردد فى هذه اللحظة وأنا أنتظر عودة الرسول . سنتحرك إلى مكة غداً وإن لم يعد نفيل . ابعث طليعة أخرى لترى ما فعل نفيل .

وازم عدوة الصمت ووقف جامداً كأنه لم يسمع .

فقال أبرهة أما سمعت قولى ؟

فقال عدوة ألوذ بالصمت يا مولاى لأننى ألمح اللهيب فى عينيك .

فقال أبرهة بل انطق .

فقال عدوة أحس ريح نكبة .

فقهقه أبرهة بضحكته المزغردة قائلا :

ــ عرفت من قبل أنك تتكهن . أهكذا أخافتك ريح النكبة التى تحسها فى جو السماء ؟ اذهب أيها الرجل فأنفذ أمرى .

فقال عدوة بعد لحظة صمت :

ــ سمعاً يا مولاى وسأكون أنا الطليعة .

ورفع حربته وانحنى ثم مضى صامتاً .

وبقى أبرهة حيناً ينظر فى أعقابه ، ثم هرول داخلا فى الخيمة بجسمه الضخم وارتمى على مقعد فى الصدر ، وكان وجهه متقلصاً من الغيظ . وتدفق المطر كأنه ينصب من ميازيب ، ولجأ الجنود إلى الخيام ، وأطرقت

الإبل والخيول برؤوسها خاشعة، وانسابت فى الجو ضجة رهيبة . ولكن عدوة مضى فى سيره تحت السماء الغاضبة وقلبه أشد منها غضباً ، وإن كان يكبته فى صرامة . وكان جواده يتكفأ به فى الأرض الزلقة ، والريح العاصفة تطوحه فى هباتها ، والفضاء الأغبر يحجب عينيه فلا يرى أمامه إلا كتلة من ماء صبيب .

وبلغ آخر الهضبة ولم يستطع أن يهبط إلى الوادى الذى كان يتدفق مثل نهر فائض ، تتوالى فيه أمواج السيل واحدة بعد أخرى فى فرقعة تزلزل الأرض . وكانت جذوع النخل تطفو على وجه الماء أحياناً وتغوص أحياناً . تتخللها أجسام الإبل تتقلب مع التيار فتعلو بأسنامها حيناً وبأخفافها حيناً .

ثم لاح على البعد جمع يتحرك نحو معسكر الجيش فظنه عدوة جمعاً من العرب ، يريدون على عادتهم أن يهبطوا على أطراف الجيش يقتلون من تصل إليه أيديهم ، ثم يتسللون كالأشباح الخفية قبل أن يفطن أحد إلى وجودهم . فاستتر وراء الآكام والكثبان حتى اقتربوا منه وبلغت أذنيه كلمات من حديثهم ، وما كان أشد عجبه إذ سمع حديثاً حبشياً . ولما لقيهم عرف أنهم بقية السرية التى بعثها إلى مكة فى الصباح تستطلع أخبار نفيل بن حبيب . واستمع إلى القصة كأنه يعرفها . كان نفيل يقود السرية العربية التى هبطت عليهم من الجبل كأنها صخرة تتدهدى وتحطم وتترك أثرها من خلفها . وما كادت فلول السرية الحبشية تنجو من المفاجأة حتى أدركها السيل فى الوادى فكان جهدها

فى تسلق الجوانب الصخرية أشق عليها من جهد القتال وعنف السيل .
وهكذا اتجه عدوة فى حسرة مع تلك الفلول المسكينة عائدين إلى أبرهة .
وفكر كيف يلقى ذلك الرجل الذى كان منذ ساعة يصيح به غاضباً
معنفاً ويتهمه بأنه يخونه ؟ سوف يلقاه فى أغلب الظن صائحاً به :
« أهكذا تعود ؟ » كأنه هو الذى أثار العاصفة . أترى يصدق أن نفيل
ابن حبيب خانه وقاد السرية التى مزقت رجاله ؟ وأحس جسمه يتحرق
كأن فيه لسع جمر . ولما اقترب من المعسكر طلع عليه منظر عجيب لم
يشهد له مثيلا من قبل حتى خيل إليه أنه فى حلم مزعج . وكان وجهه
المتقد حرًّا يحس خيوط المطر تغسله فيجد راحة من حرارته حيناً ثم تشتعل
فيه الوقدة كأنه كان يحترق فى لهيب . ورأى فوقه سحابة لم ير سحابة
مثلها فى حياته ، تسبح من فوق رأسه نحو خيام الجيش كأنها دخان
حريق يتطاير الشرر خلاله . وسمع منها زفيفاً يشبه عزيف الجن فى الليلة
المظلمة ، وتساقطت منها قطع من حمم كلما أصابت موضعاً من جسمه
أشعلت فيه ناراً . ورفع إليها رأسه فى رعب وتجلد حتى لا يصرخ من
الألم . فلما ثنى عنقه أحس كأن سنان حربة ينفذ فيه . وغامت عيناه
وبدا له فى السحابة خفق أجنحة متوهجة . وكانت صيحات الذين
معه تتعالى من حوله وهم يتفرقون فى فزع ويصيحون : « الحمم !
النيران ! » .

وتماسك عدوة وهو يحس رعدة من برد متقد . ولكنه لم يقو على
الثبات فكان يرتج برداً ، ولسع الحمم يشتعل بجسده . ولما بلغ المعسكر

رأى مازاده هولا فكان السيل يتدفق مثل بحر مائج فى بطيحة فسيحة ، وبقايا الخيام وجثث الجنود والخيل تنجرف مع التيار إلى حافة الهضبة نحو فم المسيل ثم تهوى نحو الوادى . وكان أبرهة يسير ذاهلا بين حطام المعسكر يحاول أن يجمع فى بصره هول النكبة ، وأن يعيد بصراخه جنان الجنود اليائسة . ورأى السحابة السوداء ذات الحواشى المتوهجة تقترب منه رفافة بطيئة ، تخفق فى غبش المساء بشعاع وردى داكن . وسمع الصيحات تتوالى : « الحمم ! النيران ! » .

وتجلد ما استطاع حتى أظلم الليل وهو يحاول الإغاثة على ضوء المشاعل . ثم جاء إليه بعض الجنود يحملون عدوة . فنظر فى وجهه المنتفخ وإلى عينيه الزائغتين وإلى جسده الملتهب ، واستمع ممن يقوى على الكلام إلى قصة السرية البائسة . وكان جاثياً فى أثناء ذلك إلى جنب عدوة يصيح به : « عدوة : أيها الصديق ؛ أما تسمعنى » ؟

وانتفض الجندى الشيخ وتقلصت أعضاؤه ، وصاح فى هذيان الحمى :

« الطير ! الحمم ! النيران ! » .

ثم خفت صوته .

وطلع الفجر بطيئاً يطل فى نوره الخافت على الأفق ، وازدان الشرق لموكب الشمس الساطعة كأن لم تكن فى الليل عاصفة دمرت جيش أبرهة .

وسار الملك المسكين بمن بقى معه يجرر أذيال الحسرة نحو الجنوب فى طريق صنعاء .

١٣

قال الراوى :

خرج يكسوم يستقبل أباه ولكنه استقبل جثة ممزقة . وأما جيشه المتدفق الذى سالت به رحبة صنعاء ، والفيلة التى خرجت تهز الأرض كأنها حصون ، والخيل ذات الخيلاء والجند العابس الذى كان يثير الغبار سحباً ، وحرابه تلمع من خلاله كأنها بروق ، فقد اختفت جميعاً كما يختفى طيف الخيال .

وتلفت أهل صنعاء فى دهشة يتساءلون : أحقـًّا ما يرون وما يسمعون ؟ أتلك هى الفلول التى نجت من الموت تجرر أقدامها خائرة القوى ، وتتسلل فى ظلام الليل إلى بيوتها مخافة أن تقع عليها العيون من وراء شرفات المنازل المغلقة ؟ وأصبحت المدينة مناحة على صرعى القتال الباطل الذى كان مثل فقاعة ارتجفت حيناً على سطح غدير .

ولكن الهزيمة والخيبة لم تزيدا يكسوم إلا عنفاً وقسوة ، فكان مثل فهد جريح فى غابة لا يكاد يسمع همسة حتى يثب غاضباً مفترساً . وكانت المفاجأة العجيبة مثل صدمة شديدة أذهلت أهل صنعاء فلزموا بيوتهم فى حيرة وذعر . فالوباء ينتشر فى المدينة لا يعلم أحد كيف يتدسس إلى الأصحاء ؛ أيدخل إليهم مع الأنفاس أم يثب إليهم مع

أشعة الأبصار ؟ ويكسوم يسلط عليهم جنوده وأعوانه فلا يجرؤ أحد أن يظهر شيئاً ينم عن الفرحة المكبوتة لهلاك جيش الحبشة . وكانت الكارثة طاحنة مثل زلزال من الأرض أو صاعقة من السماء ، لا يكاد الحس يدركها حتى تشله صدمتها . وتلفتوا حولهم لعلهم يرون رجلا يجتمعون إليه أو يجدون فى رأيه عصمة ، فلم يجدوا من السادة إلا هذه الأذناب التى تتمسح فى أذيال يكسوم وهم أشد عليهم من الأحباش وطأة . فكانت صنعاء مدينة ليس فيها سوى بيوت مفردة بعضها يخشى بعضاً ، ويحسب كل منها أن جاره يسعى به عند الطاغية . وعاد سيف إلى القصر الحزين وكان قلبه أشد حزناً . لم يكن يحسب أن هلاك أبرهة يقع منه ذلك الموقع الذى كان أبلغ من حزن الولد على أبيه . فلو هلك أبرهة قبل سيره إلى قريش إذ كان سيف موزعاً بين الشك واليقين لا يدرى أهو أبوه حقًّا أم هو أجنبى عنه لوقف على جنازته حائراً مضطرباً لا يذرف دمعة . ولكنه منذ عرف بموته ارتدت عليه موجة من حزن يشوبه الأسف والندم على ما خطر بقلبه من التنكر له وجحود فضله عليه . ولم يذكر فى أثناء سيره إلى صنعاء سوى ما كان يلقى من بره وعطفه ورحمته . تذكر كيف كان يداعبه صغيراً ويحمل إليه الطرف من الهدايا ، وتذكر كيف كان يعابثه ويقهقه بضحكته العالية المزغردة فى معابثته . طالما أركبه على ركبته كما لو كانت مهراً ولقنه صيحات الحرب كما كان الأحباش ينطقون بها . وطالما سمعه يقول لمن حوله : « هذا أول أبنائى العرب » . وإذا كان الشك فى أبوته

قد أفسد عليه حكمه حيناً فلم يكن ذلك من ذنب أبرهة المسكين ولا من قصور فى مودته . بل لقد بدت رحمته لسيف فى ذلك الحين أعظم نبلا وأجدر بالشكر من رحمة الأب لابنه ، لأنه لم يكن أباه .

وأسرع سيف إلى أمه وعجب إذ رأى فى جناحها حبشيين كأنهما تمثالان من نحاس يقفان عند باب البهو وينظران نحوه جامدين . ولما رأته ريحانة هبت تستقبله فاتحة ذراعيها متهاتفة بالبكاء وقالت :

ــ أهكذا تغيب عنى ؟

وجلسا حيناً فى صمت لا تقطعه إلا شهقات الأم الحزينة . وقال سيف مواسياً :

ــ تجملى بالصبر يا أماه .

فنظرت إليه نظرة طويلة ثم قالت :

ــ لست أدرى يا ولدى أينا أكثر شقاء .

فقال : لم أعرف اليتم إلا فى هذا اليوم يا أماه . عرفته اليوم جديداً .

فقالت فى حزن : عرفنا معاً كل ما تستطيع الأيام أن تمد به يديها . كنت أحملك على يدى طفلا وأبكى كما أبكى فى هذه الساعة ،وأسأل نفسى ماذا يحمل الدهر لنا ، وهأنذا أراك شاباً وما زلت أسأل نفسى ماذا يحمل الدهر فى الغد ؟

فقال سيف : لا يذهب بك الحزن إلى كل هذا أيتها الأم العزيزة ، فإنى كنت لا أزال محتمياً بظلك أعرف كيف أواجه

الحياة ، وليس حزنى من أجل نفسى بل هو خالص لفقد قلب كريم .

فقالت : ما أكرم قلبك يا سيف ! كأن قولك يؤنبنى . لست أحب أن أكذبك يا ولدى كما كذبتك كثيراً . إنما أحزن من أجل نفسى ومن أجلك . ألم تر الحبشيين الواقفين عند بابى ؟ هذا ولم يمض إلا أيام على السيد الجديد ، يكسوم ! ألا تعرف أننى لم أستطع أن أبعث إليك رسولا ؟ أبى يكسوم أن يبعث إليك رسولى . أنا التى كنت بالأمس ملكة اليمن .

فقال سيف متماسكاً : سلمت يا أماه ولا حمل لك الدهر إلا الكرامة . وإن كان أبرهة قد هلك فإنك أمى ، وأنت بعد هذا أم مسروق بن أبرهة . فلا تجعلى هذه الأفكار تضاعف أحزانك .

فمدت يدها إليه قائلة :

ــ اقترب منى يا سيف ودعنى أبكى ساعة وأنت هنا . دعنى أفتح لك صدرى وأنفض ما فيه لعله يلقى سمومه التى توقده . اقترب منى حتى لا يسمع هؤلاء الذين أقامهم يكسوم يحصون على خطواتى ويحفظون همساتى .

فأمسك سيف بيدها قائلا :

ــ لا يذهب بك الحزن والهم إلى كل هذا ، والجزع لا يغنى شيئاً من القضاء الواقع .

فقالت فى أنة : ليس الحزن علىّ وليس الهم ما يحرقنى . إنه قلبى

الذى يخوننى . إنه قلبى الذى يعصف بى . إن حياتى تجتمع فى هذه الساعة تحت عينى كأنها صفحة أقرؤها وكل سطر فيها يزيدنى حيرة وعذاباً تقول إنك عرفت اليتم جديداً ؟ ولكنى أقول إننى عرفت عارى جديداً . لا تنتفض هكذا كأنك تؤنبنى . قلت إننى لن أكذبك مرة أخرى . تتمثل لى فى هذه الساعة فداحة مصابى عندما دخلت إلى هذا القصر كأننى أمة . فلم أبقيت على حياتى ؟ أأقول مرة أخرى من أجلك أنت ؟ كذبة أخرى ؟ بل هو الخوف من الموت الذى حجزنى عن الخطوة التى كانت واجبة على . نعم هو الخوف على الحياة الحقيرة التى طال فيها هوانى . فبقيت هنا أحس البغضاء تملأ قلبى . اقترب منى يا سيف فإن صوتى يعلو برغمى . كأن نظرتك تلومنى .

فقال سيف فى رقة : ليس بى إلا المواساة والرحمة .

فقالت : دعنى أنفس عن صدرى . لطالما كتمت ما فى قلبى عنك فدعنى أنفضه مرة واحدة وإن ضاق به صدرك أنت . فلو ملكت أن أقطع نفسى أسفاً لكان أروح لها .

فقال فى نغمة عتاب :

ـ لا تخلقى من ذلك الماضى أوهاماً تعذبك ، واسدلى عليه الستر الذى أسدلته عليه السنوات .

فقالت فى شىء يشبه الخنق : هيهات ! هيهات أن يدعنى ذلك الماضى وإن حاولت أن أدعه . فذلك الستار الذى تسدله الأيام ما هو

إلا الوهم الذى نخدع به أنفسنا . ذلك الماضى مستقر بأعماقى لا يفارقنى . دعنى أكشف عنه كأنك كاهن فى المحراب أكشف له عن مكنون سرى . ماذا قلت ؟ أأقول كأنك كاهن ؟ وهل آمنت بشىء من هذا الدين الذى ألحقنى به أبرهة ؟ لا تحمل لى ضغناً يا ولدى إذا أقررت لك أننى لا أومن بشىء . لا أومن بآلهة آبائى التى لم تستطع حمايتى ، ولا أومن بإله أبرهة الذى لم يمنعه من إذلالى . إننى أمقت الكهنة ومحاريبهم فلتكن صديقاً مواسياً أو لتكن ابن أبى مرة .

فقال سيف فى حزن : مولاتى !

فقالت : لا تتبرأ منى يا سيف . قل يا أمى . قل أيتها الأم البائسة . قل أيتها الصاحبة التى لا وفاء لها لم رضيت أن تكونى زوجاً لغير أبى ؟ ما أشد ما ألقى من كبت حنقى واضطرارى أن ألقى يكسوم وأنا أدارى كراهتى ، ثم أنطق له قائلة :

« لك العزاء أيها الملك ! » .

أقد صار يكسوم ملكاً ؟ أنذهب بعد أيام لنصلى له فى القليس ونلبسه تاج اليمن ؟ لن تكون هذه الصلاة إلا لعنات أصبها على حظى وعلى قضائى وعلى الذى تحسبنى أحزن عليه .

فرفع سيف عينيه فى لفتة جافلة وقال : أمى !

فقالت فى عنف : لا تتجه إلى بهذه النظرة فإنها تزيدنى حنقاً وحقداً على نفسى وعلى الأحياء جميعاً . قلبى يفور كالمرجل وعقلى يهيم فى جحيم .

فقال عاطفاً : ما قصدت سوى أن تترفقى بنفسك ، وأن تذكرى خير ما تبعثه الذكرى . كان أبرهة بنا رحيما ، فلنترحم عليه ولنذكره بالسلام فهذا أبعث للسلام فى قلبينا .

فحولت ريحانة عنه عينيها قائلة : كأننى أسمع صوت خيلاء . كأننى أفزعتك يا سيف .

فقال : ليس فى قلبى سوى المواساة والرحمة .

فقالت وهى أهدأ :

ـ أسألك العفو يا ولدى ... إن ضعف المرأة ينطق على لسانى ... هكذا كنت دائماً أثور بأبرهة كلما غضبت فلا أدرى ماذا يثيرنى . ثم أهدأ وأذكر أقوالى فأزداد ثورة على نفسى ... عفوك يا ولدى فما أشقانى !

فوضع سيف يده على رأسها ونظر فى وجهها قائلا :

ـ بل ما أكبر قلبك !

فقالت فى رنة الشكر :

ـ إننى كالريشة فى مهب الهواء لا أعرف لنفسى وجهة . أقلت لك إننى لا أحس حزناً من أجل أبرهة ؟ لقد كنت أكرم منى وأنبل قلباً عندما قلت إنك عرفت اليتم جديداً . وإلا فما الذى حرك كل أشجانى ؟ كأننى يا ولدى أعنف عليه ميتاً كما كانت أعنف عليه حياً ، وألقى عليه اللوم كأنه هو الذى اختار أن يهلك ويدعنى تحت رحمة يكسوم . وما كان أجدرنى أن أرحمه وأحس فقده . كان لى وبك

رحيما ؛ وما زال منذ دخلت هذا القصر يوسع لى من صدره ويصبر على بوادر غضبى . وقد طالما عنفت عليه وثرت به ورميته فى وجهه بأنه عدوى وعدو قومى ، وطالما أنكرت إلهه فى سمعه ولكنه لم يثر بى مرة ولم يوجه إلى لفظاً قاسياً . وها هو ذا يموت عندما كان عازماً على أن يهب لك شطراً من ملكه . ها هو ذا يموت ويتركنا . أعد على كلماتك يا سيف وعلمنى كيف يكون القلب نبيلا . أنت رجل وما أنا إلا امرأة .

وكان سيف ينظر نحو الباب فى لهفة يتوقع بين دقيقة وأخرى أن يرى وجه خيلاء .

فلما سكنت أمه شيئاً قال لها :

ـ مالى لا أرى خيلاء إلى جنبك ؟

فنظرت إليه أمه فى شىء يشبه الوجل ولم تجب .

فأعاد سؤاله فى لهفة : مالى لا أرى خيلاء هنا ؟ ألا أذهب إليها فأرى ما عاقها عنك ؟

فتحركت الأم حركة سريعة فيها ذعر لم تملك أن تخفيه وقالت :

ـ دع خيلاء حيث هى يا سيف .

فقال :

ـ أهناك شىء ؟

فقالت متداركة :

ـ خير لى أن أبقى معك وحدنا فى هذه الساعة .

فقال :

ــ إذن سأذهب لأراها .

ولم يبق ليستمع إلى قول ريحانة وهى تحاول أن تمنعه ، وذهب مسرعاً وقلبه يتوجس . أتقول : دع خيلاء حيث هى ؟ لمه ؟

وكانت خيلاء فى حجرتها إلى جانب تمثال العذراء ، فسمعت طرقاً على بابها وقامت فاترة تجفف عينيها ، وكان على وجهها ظل من فزع تملكه قسراً . وفتحت الباب وقالت فى صيحة مكتومة :

ــ سيف !

ثم ردت بصرها مسرعة واكتسى خداها حمرة . واندفع سيف نحوها مادًّا يديه قائلا:

ــ أحمد الله إذ أراك سالمة .

وتبسمت بسمة ضئيلة ومدت يدها قائلة :

ــ ما علمت أنك هنا .

وسارت أمامه إلى أريكة فجلست على طرفها ، وجلس على قيد ذراع وهو يعجب من فتورها . ما الذى ذهب بنضرتها وأذبل عينيها ؟ أبلغ بها الحزن على أبرهة أن تغمرها مثل هذه الكآبة البائسة ؟ وأحس شيئاً من الخيبة فى لقائها الساهم الجامد . أهكذا تلقاه فلا ترتمى بين ذراعيه وترسل دموعها الحزينة على عنقه وتلتمس من وجودها عند صدره ظل الأمن والطمأنينة والعزاء ؟ وشردت عنه الألفاظ فلم يدر كيف يفتح الحديث معها . كان يحسب أنها تطالعه بوجه فيه الحزن وفيه اللهفة

وفيه إشراقة من سرور . وكان يحسب أنه يتدفق فى الحديث ليقول لها إنه هناك وإنه يبذل نفسه فى سبيل حمايتها وإسعادها . ولكنها تستقبله بعين كليلة وبوجه ساهم متردد ينم عن انكماش وانطواء عنه . فماذا يجول فى أعماق ضميرها ويقيم ذلك الستار بينه وبينها ؟

وانتزعت خيلاء كلمة بعد لحظة صمت فقالت :

ـ لك العزاء يا سيف .

وزادت خيبته عندما سمع كلمتها . أتقول لك العزاء كما يقول الألوف من المواسين الذين لا تزيد مواساتهم على لفظة ؟ لم تفض إليه بحزنها ولا بجزعها ولم تلجأ إليه هو ، ولم تقل له : « ذهب من كان يظلنى برحمته ولم يبق لى غيرك » .

وقال فى ارتباك : حق لنا أن نحزن على أبرهة يا خيلاء .. ولكن لا تدعى الحزن يبلغ منك ما أرى . أرى عليك أثراً لا أدرى ماذا أسميه . ألا تحدثينني عما بك ؟

فقالت : ليس بى شىء سوى أننى كنت أصلى . كنت أصلى من أجل روح أبرهة المسكين الذى تعذب وتألم .

فقال سيف مواسياً :

ـ لن يرد الحزن أبرهة إلينا . ولو كنت أعرف كيف أصلى لجثوت إلى جانبك أشاركك فى الدعاء . ولكن لا مفر لك ولا لى من أن نفكر معاً ، فيما ينبغى لنا أن نفعل بعد هذا . فلنفكر معاً يا خيلاء منذ الساعة فإن الوقت أضيق من أن نقطعه فى حزن عقيم لا يقدم

ولا يؤخر شيئاً . متى نغادر غمدان ؟

فأطرقت خيلاء وهى تعبث بالصليب الفضى المعلق فى عنقها . ومضى سيف فقال :

ـ لقد آن لنا أن نفارق هذه الأبهاء المظلمة التى تحجبها الأستار الحريرية عن ضوء الشمس . آن لنا أن نبعد عن هذه الأحجار المغلقة التى يقف الأحباش عند أبوابها .

ولكن خيلاء لم تنطق بحرف وخيل إلى سيف أنها كانت بعيدة عنه مغلقة دونه . ماذا ؟ أهذه خيلاء التى وقفت تودعه منذ أيام عند باب حجرتها وتقول له: « لقاء قريباً » وهى تغمره بعينيها ؟ كانت أجفانها الوطفاء تطرف فى شىء يشبه الوجل كأنها منصرفة إلى حديث مفزع بينها و بين نفسها . ماذا تقول فى سرها ؟ أهى تحاول أن تخفى عنه سراً لا تجرؤ على الإفضاء به ؟ أبدا لها شىء جديد منذ ذهبت حماسة الصدمة الأولى بعد أن عرفت أنه ابن ذى يزن ؟

وقال فى شىء من القلق :

ـ معذرة يا خيلاء إذا قلت لك إننى ألمح عندك شيئاً غامضاً لست أفهمه . لست أدرى كيف أتكلم . فخبرينى أنت عما يضطرب تحت صمتك وإطراقك . أنت بغير شك تجاهدين ألا ينم لسانك عما عندك ، ولكن وجهك ينطق ويعصيك . لم تحولين بصرك عنى هكذا ؟ ولم تردين الألفاظ التى تتبادر إلى لسانك ؟ ليس يزعجنى بكاؤك ولا جزعك ولكن يزعجنى إطراقك وحركة وجهك ونظرة عينيك . فارفعى

ذلك الستر الجامد الذى يحجب عنى خيلاء التى أعرفها .

فقالت خيلاء فى صوت خافت وهى تحاول النظر إليه :

– إنه المصاب الذى حل بنا يا سيف . هو وقع الكارثة التى لم يكن أحدنا يحلم بها . وإن موت أبرهة لم يكن كموت الناس ، فيه لوعة الفراق وحدها . كان موته . . . .

ثم ترددت وحولت عينيها ومنعت اللفظ الذى كادت تنطق به فى تتمة حديثها .

فقال سيف افتحى صدرك يا خيلاء . وانثرى ما فيه ولا تردى من قولك حرفاً . لست أفهم من قولك إلا أن الحزن قد غلبك فخيل إليك أن الكارثة فوق الاحتمال . ولكننى هنا فلا تجعلى الجزع يحملك إلى أبعد مما ينبغى له .

واقترب منها مادًّا يده إلى يدها ، ولكنها تخلصت منه فى رفق قائلة :

– دعنى يا سيف ! بحقك دعنى الآن ، فلست أدرى ماذا أقول لك . إننى لا أملك أنفاسى ولا أقوى على الحديث .

وكان فى صوتها فزع ظاهر .

فوقف سيف وقال فى لهفة : أبلك عتب علىّ يا خيلاء ؟ ! إن كان شىء من ذلك فلا تخفيه عنى حتى أبادر فأجثو إليك معتذراً . كم غبت عنك حتى يعتريك كل هذا التغير . أم أنت تخفين عنى سرا رهيباً ؟

فقالت فى حزن : ما غبتَ عنى ولن تغيب عنى .

ووقفت مرتدة إلى الوراء كأنها تريد أن تهرب من موقفها .

فقال سيف إذن فما هذا الجفاء الذى تطالعيننى به ؟ أسمعينى صوتك الذى عرفته ، وانظرى إلى ببسمة تعودتها وإن كانت حزينة . قولى ما فى نفسك فإن هذا الصمت يفزعنى ، بل يكاد الشك يتسرب إلى عقلى . لست أجرؤ أن أقول إن قلبى يشك فى مودتك فإن قلبى نفسه يكذبنى . قولى إنك ما زلت على عهدى لم يداخلك شك فى حبى . قولى هذا وهو يكفينى .

فقالت والعبرات تغالبها :

ـ ليس بى جفاء ولا شك يا سيف ، وهذا صوتى الذي عرفته يقول لك إننى ما زلت على عهدى كأقوى ما كنت مودة ، وما زلت على حبى كأصفى ما كنت حبًّا . بل أقول لك إننى كنت فى هذه الساعة أصلى لك كما كنت أصلى لروح أبرهة . كنت أفزع إلى العذراء بما فى قرارة نفسى وأقول لك ما قلته فى اعترافى لها : إن حبى لك أبقى من الحياة وأقوى من الموت .

فصاح سيف :

ـ إذن فما أسعدنى ! ما أسعدنى أن أجثو عند العذراء أكرر لها مثل هذا القول فإنى الآن أومن بها وأحبها .

ومد يده إلى يدها مرة أخرى وتباعدت عنه فى رفق مرة أخرى وقالت :

ـ لم أتم لك حديثى بعد يا سيف .

فقال سيف إن اشتياقى إلى حديثك أشد من حرصى على بث ما فى نفسى . قولى وأفيضى حتى أروى سمعى وأطمئن قلبى وأجلو عنى المخاوف التى ساورتنى . مالى أراك تباعدين يدك كلما مددت إليك يدى. هاتى يدك حتى أعرف أنك حقًّا أمامى . تكاد الوساوس تعاودنى فأتوهم أننى فى حلم مضطرب .

فقالت بعد تردد :

– لا تسئ بى الظن والتمس لى المعذرة إذا وجدت قولى مضطرباً . أعيد عليك أن حبى مقيم على الدهر ، عميق عمق البحر الزاخر ، مشرق إشراق الصباح الزاهر . هو غذائى الذى يغذينى وهو عزائى الذى يعزينى فلنجعله خالداً صافياً عميقاً أبد الدهر .

فقال سيف

– حسبى هذا يا خيلاء فلا تقولى بعد ذلك كلمة كأننى أحس رهبة من كلمة أخرى .

فقالت خيلاء : اسمع يا سيف تتمة قولى . فإن الحب الذى بيننا أنصع من أن يداخله الرياء أو الخوف . هو مودة الأرواح فلنجعل مناجاتنا فيه مثل مناجاة الملائكة ، ولا نسلم أنفسنا إلى غرور السراب .

فصاح سيف :

– ماذا قلت يا خيلاء ؟ ألسنا هنا حقيقة والعالم الفسيح من حولنا حقيقة ؟ أهى الأحزان التى استولت عليك فجعلتك تنطقين بهذه الكلمة ؟ السراب ؟ ما لنا والسراب ؟ ألست أنت أمامى وأنا هنا

معك ؟ تعالى نغادر ذلك القصر الحزين الذى يشيع فى القلب ظلامه . تعالى نبدأ حياتنا جديدة فى موطن آخر نكون فيه وحدنا مجردين من كل شيء سوى نفسينا . فلنذهب إلى قصر ذى جدن لنعيش فيه وحدنا ــ خيلاء وسيف ، ثم نضرب بيننا وبين هذا العالم كله حجاباً .

فقالت خيلاء :

ــ تمهل يا سيف فلا مفر لى من أن أكشف لك مأساة كنت أحاول أن أؤجل كشفها .

فصاح فى ذعر : مأساة ؟ حماك الله يا خيلاء أن تكون لك مأساة . أفصحى عنها أو أبقى عليها حتى تجدي نفسك أكثر هدوءاً فليس بى لهفة على سماع خيال ووهم . بغير شك ، إنه خيال ووهم . نفسى فداؤك من كل مأساة . ومن ذا يستطيع أن يسوق إليك الأسى ؟

فقالت فى صرامة :

ــ بل استمع إلى تتمة الحديث يا سيف . لست أملك نفسى ، لست أملك نفسى . هذه هى المأساة .

فقال سيف فى دهشة : لست أفهم . ماذا تقولين يا خيلاء ؟ لست تملكين نفسك ؟ ومن ذا يملكها ؟

فقالت : يملكها الذى لا أستطيع أن أعصيه .

فصاح فى حنق : من ذا الذى لا تستطيعين أن تعصيه ؟ لا أكاد أصدق أذنى .

فقالت فى هدوء : بل هو الحق .

فقال كالحالم : فأين إذن أحلامنا ؟ أين أحاديثنا الطوال وأين آمالنا الحلوة ؟ بل أين قولك إنك ما زلت على عهدى ؟ لا تملكين نفسك ؟ يملكها من لا تستطيعين أن تعصيه ؟ بل أعصيه أنا وأرده عنك بسيفى . من ذا الذى . . .

فقالت خيلاء : لا تخطئ ياسيف . قد وهبت نفسى . قد وهبتها راضية .

فقال فى دفعة :

– بل قوليها كلمة صريحة . قولى إنك آثرت غيرى وإنك قد تبدلت ، ولا تموهى الحقيقة بكلمات لا غناء فيها . ما هذا الحب العميق القوى الذى تحدثت عنه إن كنت قد بعت نفسك لغيرى . وتقولين لى : « لا تخطئ » إذا قلت إنى أرده عنك بسيفى ؟ من ذا الذى قد وهبت له قلبك ؟ كان أحق لو أعدت ما قلت أولا : « يملكه الذى لا تستطيعين أن تعصيه » . أمة تتكلم ؟

ومضى فى قوله يهيم فى شكوك غامضة ويهدر بأقوال كأن فيه شيطاناً هائجاً . وكانت خيلاء تنظر إليه فى حزن وذعر ،وكلما نطق بكلمة اضطربت أهدابها الوطفاء كمن يحس وخزة . ووجد سيف فى دفعته شيئاً يشبه الراحة ، وفى أثر كلماته العنيفة شيئاً يشبه الرضى . ووقف لحظة ينظر إلى وجهها الصافى الحزين وضميره يصيح به قائلا : « ماذا فعلت ؟ ماذا تقول لخيلاء » ؟

فانثنى يقول :

ـ خيلاء ! ماذا قلت لك ، وماذا اعترانى حتى جرؤت على كل هذا ؟ أحقًّا صدقنى سمعى أم هو وهم خيلته لى شقاوتى ، أقلت لك إنك آثرت غيرى ورجعت عن عهدي ؟ بل أنت لى كما أننى لك ولن نستطيع إلا أن نكون هكذا . أنت الحياة التى أتعلق بها وأطرح كل شىء عداها . فإن كان أساءك شىء منى فإنى أعتذر منه . لم أذهب إلى قصر جدى إلا لكى أفكر فى أيامنا المقبلة . لم أغب عنك هذه الأيام إلا لأننى كنت مع قومى وقومك الذين سنذهب إليهم . قولى إنك كنت تمتحنين حبى . أو قولى إنك كنت تعبثين بى فهذا أرفق بى . قولى شيئاً آخر غير ما قلت فإنى أنتظر فى كلمتك قضائى .

فقالت خاشعة :

ـ عفا الله عنك يا سيف فما بى ألم من شىء تقوله . بل إنى أرحمك كما أرحم نفسى . ما كنت لأتخذ منك بديلا وكل ما سمعته منك وإن كان قاسياً لا يؤلمنى .

وتحدرت الدموع من عينيها .

فقال سيف فى صوت متهدج :

ـ ليتنى أملك هذه الكلمات الخانقة التى خرجت من بين شفتى أو أستطيع أن أردها من الهواء إلى حيث كانت فى ظلمة النسيان . لم أفهم ما قلت ، فإن عقلى وقلبى يكذبان هذه الألفاظ التى قلتها . بل قلبك لى يا خيلاء ولا يمكن أن يكون لغيرى . لن يملكه سواى ولن

تهبيه إلى أحد غيرى . انطق يا خيلاء بما يعيد السلام إلى قلبى . أأقول لك بحق حبى ؟ أم نسيت ذلك ؟ أحقًّا قلت هذا ؟

وكانت خيلاء تستمع فى صمت ودموعها تبلل وجنتيها الصفراوين ، وقالت :

— أقول لك مرة أخرى عفا الله عنك ، وإن كنت حزينة .

فجثا سيف إلى جنبها قائلا :

— دعينى أتوسل إليك بحبى أن تعفى عنى وأن تكشفى هذه الغمة التى تحير لبى .

فقالت فى عطف : قم يا سيف فلست أنكر حبك ولا أنكر حبى . كنت أحسبك تفهم قولى منذ بدأت . إننى لم أخجل أن أقول لك إن حبى أبقى من الحياة وأقوى من الموت . ولكنك تتصور أننى وهبت قلبى لبشر . ما كان لبشر أن يملكه وما كان لى أن أهبه لأحد من الأحياء غيرك . ولكن غضبك لا يجعلك تفهم . ما وهبته إلا للذى يملك قلوبنا جميعاً ومن نجد فيه سلوتنا ومن نستمد منه سلامنا . وهبته للسيد المسيح !

فقال سيف فى نشوة :

— فلم لم تقولى ذلك من أول كلمة . السيد المسيح ؛ فليكن ذلك . بل هلم نهب له نفسينا معاً ، أنا وأنت . وإنى أعاهدك أن أومن به إيماناً لا شك فيه . سأتخذ له عندى صورة أجثو عندها ، أو نتخذ له صورة عندنا . نحن معا أصوم له معك وأصلى صباحاً ومساء :

وأحارب باسمه أعداءه حتى يؤمن به الناس جميعاً . أذهب من فورى إلى القليس أقبل يد القس ونذهب معاً إلى قسطنطينية لنرى خليفته . وسأخدمه وأضرب بسيفه حتى يؤمن أهل الأرض . أهذا يرضيك ياخيلاء . فلنهب نفسينا له .

فقالت خيلاء فى حزن :

— لست تفهم يا سيف . من تهب للمسيح نفسها لا تعرف رجلا .

فقال فى حنق : أى خيال يسيطر عليك . ماذا يفعل المسيح بقلبك إذ يسلبه منى ؟ لو كان رجلا لذهبت إليه أجالده عنك . ولكن أين هو ؟ خيال ؟ صورة ؟ سراب ؟ أليس هذا هو السراب ؟

فقالت خيلاء: لا تتحدث هكذا فإنه قول عظيم . سوف أستغفره لك ولن يحمل لك غضباً فهو قلب رحيم .

فمد يده نحوها قائلا: دعى هذه الأوهام يا خيلاء . تعالى أحدثك حتى تهدأ نفسك فلا شك أن الحزن زعزعها . ماذا بعث إليك هذا الوهم الذى يكاد يكون مضحكاً . كنت فى أثناء غيبتى لا أفارقك فى ساعة من ليل ولا من نهار . كنت أمامى فى الزهرة والطير وفى الجدول الصافى والمرج الأخضر . كنت فى السماء والنجم وفى الرمال الممتدة والنسيم الطلق . فلنذهب من هنا .

فقالت بصوت متهدج :

— بحقك يا سيف لا تمض فى هذا القول فإنه يدمى فؤادى .

فاستمر سيف :

– لنذهب من هنا إلى حيث نعيش وحدنا لا نعرف سيداً . هناك تشرق الشمس فلا تشرق إلا لنا ، وتطلع النجوم لتزين سماءنا وتؤنس مجلسنا ، ويضيء القمر لكى يحلو تحته حديثنا . هناك كل ما يقع تحت بصرنا ملك لنا . هناك نستمع إلى نجوى الليل وأنغام الكون دون حجاب من سمعنا ، ونقف وجهاً لوجه أمام الحياة دون حجاب من نظرنا . هلم نهرب بحبنا .

فقالت خيلاء فى رقة :

– هو حبى الذى أريد أن أهرب به . سوف أحمله فى قلبى لا يعتريه سأم ولا ملل . سوف يكون هو القربان المقدس الذى أتقرب به إلى مورد الحب الأسمى . أتذكر إذ كنا نقف إلى جانب الوعاء المرمرى ونتأمل صورته ؟ أما تذكر إذ قلت لى إن تلك الصورة تتحدى الزمان وستبقى إلى الأبد نابضة حية فتية ؟ هكذا تبقى صورة حبنا منقوشة على قلبى .

فنزع سيف يديها وتمسك بهما قائلا :

– ما هذه النقوش التى نتخذها بديلا من وجودنا ؟ نحن هنا حقائق فلا تجعلى هذه الألفاظ تضل بنا . دعى الأسماء . ولا تسيرى بنا أنت نحو السراب .

فقالت فى صوت خافت :

– الحزن يغمرنى يا سيف . ماذا أقول لك ؟ لا تجعل حزن الساعة يطفئ القبس الذى أتعلل بنوره . دع لى صورتى . ماذا أقول لك ؟

سأهرب إلى الدير – دير نجران . لن يصل أحد إلى هناك . سوف يعصمنى الدير وأعيش فيه حرة محتفظة لك بحبى . لم أقل لك كلمة أخجل أن أقولها . لست إلا أمة . لست إلا أمة مملوكة .

وتغيرت لهجتها الوديعة إلى حنق ثائر . ومضت قائلة :

– نعم أمة مملوكة يستطيع مالكى أن يجرنى قسراً إلى حيث أكون له متعة . وقد يقتلنى إذا شاء أو يجعلنى أمثولة للذل والهوان . ما أنا إلا أمة مملوكة مثل الإبل والضأن ومثل أثاث البيت أو . . .

فصاح سيف :

– ماذا تقولين يا خيلاء ؟ من ذا يجرؤ أن يقول هذا ؟ من ذا يجرؤ أن يمد إليك يداً .

فقالت فى حنق :

– يكسوم . . . ! الطاغية يكسوم . كنت أمة لأبرهة وورثنى . ألم أقل إننى مثل الشاة أو الناقة ؟ أسيرة صغيرة قتل قومها فى الحرب فصارت أمة . أليس هذا هو شرع الناس يا سيف ؟ لو لم يكن يكسوم سوى أحد العامة لاستطاع أن يجرنى حيث شاء قسراً . ولكنه يكسوم الذى ورثنى .

وبلغ بها الحنق أن جف دمعها ولمعت عيناها كأنها لم تكن خيلاء الوديعة .

وأنصت سيف إليها متكئاً على سيفه والدهشة تعقل لسانه .

ومضت قائلة : سأذهب إلى نجران حيث لا يستطيع أن يمد

يده إلى . هناك يعجز أن يكون سيدى . هكذا أشار على الناصح المشفق، فذهبت إلى القس وعرضت عليه أن أكون راهبة .

فقال سيف أى ناصح !

فقال : الملكة ! الملكة التى تعرف حبنا ويذوب قلبها شفقة علينا ، ولولاها لكنت اليوم فى بيت الطاغية .

فتمسك سيف بها فى ضراعة وقال :

– بل نخرج الليلة من صنعاء .

فقالت خيلاء :

– لا يخدعك السراب .

وكان صوتها صارماً كصوت الفضاء . وأطرق سيف كسيفاً وعادت إليه رؤياه فى قصر ذى جدن .

وخرج آخر الأمر صامتاً يجرر قدميه حتى صار فى مخدع أمه فقامت إليه فى لهفة وقالت :

– تجلد يا سيف .

فقال لها :

– قلبى يتمزق . الحياة تسخر منى ، ولا أكاد أصدق أننى لست فى خيال الأحلام .

فقالت ريحانة :

– تجلد يا سيف فما هى سوى الحقيقة .

فقال فى دفعة :

– أية حقيقة يا أمى ! أأرضى أن أضيع خيلاء هكذا ؟

فقالت :

– إذا شئت أن تبقى لك .

فقال : وما بقاؤها لى هناك فى نجران ؟

فقالت : ستبقى لك بتولا حتى تلتقيا فى السماء . نعم فى السماء يا سيف . ما أشقى الذين لا يجدون فى أنفسهم إيماناً !

ثم انتفضت بعد لحظة صمت وقالت :

– ماذا قلت لك يا سيف ؟ السماء ؟ ما هى سوى أكاذيب أدارى بها عداوتى وحقدى . لن يصل إليها يكسوم وهذا كل عزائى . لن يحرمك منها لكى يجعلها فى قصر غمدان أمة أخرى . لن تكون خيلاء أمة ثانية أو ملكة ثانية فى مثل شقائى وهذا كل شىء .

فقال سيف لن تكون له . سأقف دونها بسيفى أدفع عنها . بل سنخرج الليلة من صنعاء وننجو معا من العبودية واليأس .

فقالت : أنت تلقى بها إليه إذا فعلت. استمع إلى أمك يا ولدى ، أو استمع إلى صديقة عرفت الحياة فى أبشع صورها مكشوفة كالحة لا تدارى قبحها . ليتنى وجدت ديراً يعصمنى .

فصاح فى غضب : خيلاء أمة ؟

فقالت : ليست بأول أمة فى هذا القصر . دعها تخرج إلى نجران ، فهناك تكون حرة حقًّا . كم من الحرائر يبعن حريتهن من أجل فقاعة . ولا عيب على امرأة تكون فى أعين الناس أمة وهى فى حقيقتها صافية

الحرية . دع يكسوم يزدرد غيظه وهو يراها تنجو من مخالبه .

فقال سيف فى حزن :

ـ وأما أنا !

فقالت ريحانة فى عطف : تجلد يا ولدى ودع الأيام تداوى جرحك . وعزاؤك أنها لم تصبح أمة .

فقال فى غضبة : وأبقى أنا عبداً ؟ أماه ! لا بقاء لى هنا .

فقالت ريحانة فى ذعر : سيف ! ماذا قلت يا سيف ؟

فأجاب : لن أبقى هنا !

فقالت : بل ابق إلى جنبى . لا تتركنى يا سيف لوحدتى وشقائى .

فقال : لقد حرصت على حرية خيلاء فلا تكونى أقل حرصاً على حريتى . لن أبقى هنا لأكون عبداً ليكسوم . بل إن دماء أجدادى تنادينى أن أذهب إلى قومى وأدعوهم إلى استرداد إنسانيتهم وحريتهم . هذا فرض توجبه على الدماء المنحدرة إلى من آبائى .

فقالت ريحانة فى حزن : وأملك يا سيف .

فقال : أنت أولى بأن تدفعينى إلى أداء هذا الفرض يا أمى ، وألا ترضى عن ولدك إن كان يقنع بحياة تدنسها العبودية . إنها حياة مثل شجرة بغير جذور ولا ثمر ، وفى عصارتها سم ناقع . إنها تدنيس لإرادة الخالق الذى جعل الإنسان حرًّا عندما خلقه . لقد كنت موزعاً بين خيلاء وبين هذا الفرض الذى لم يبق لى غيره . كانت خيلاء تعدنى بالسعادة ، وكنت أطمع أن نعتزل الحياة وحدنا ونتعبد فى صومعة حبنا.

ولكنها ذهبت تتعبد وحدها فى نجران فلأذهب أنا إلى واجبى .

وكانت ريحانة تنصت فى لهفة وصدرها يضطرب وعيناها تنطقان عطفاً ثم قالت :

— ولدى ! كأننى أسمع صوت أبى مرة . اذهب يا ولدى كما شئت فقد امتحنك القضاء فى هذه الساعة واختار سبيله . صدقت يا ولدى فلست أرضى لك أن تكون عبداً ، فاهرب كما هربت خيلاء . أنت ابن ذى يزن وقومك هناك فى أودية الجبال وسواحل البحر ينتظرون قيادتك . اذهب وقم بالفرض الذى توجبه عليك دماء أجدادك كما تقول . وأما أنا . . . فيعز علىّ أن تفارقنى ، ولكنى فارقت أباك من قبل مكرهة ، فلأفارقك أنت راضية . سأتجرع الغصص كل يوم وكل ليلة وأنت بعيد عنى لا أدرى أين ولا كيف أمسيت . هكذا كنت أتجرع الغصص من أجل أبيك .

وألقت رأسها بين يديها وجعلت تنشج نشيجاً مرًّا ، ووقف سيف حيالها فى صمت مضطرباً بين الحيرة والحنق ، ثم انصرف مسرعاً لا يدرى أين يتجه ولا يعرف ما يريد فى ساعته . وتقدم له الحارس الحبشى عند الباب فقال له :

— الملك فى انتظارك .

ولكنه مضى فى سيره حتى أدركه الحارس فأعاد عليه القول أكثر غلظة وهو يمسك بكتفه :

— الملك يدعوك .

فهز نفسه من يده وخرج إلى فناء القصر فاعترضته ثلة من الأحباش بحرابها الطويلة . ولمس مقبض سيفه ثم أرسله وذهب صامتاً فى وسط الحلقة الجاهمة إلى حيث كان يكسوم . وكانت كلمات أمه ترن فى سمعه : « لست أرضى لك أن تكون عبداً ، فاهرب كما هربت خيلاء » .

١٤

قال الراوى :

عندما وقع بصر سيف على يكسوم فى صدر الإيوان اعترته هزة كأن صوتاً صاح به فى تلك اللحظة قائلا : « قد مات أبرهة » ، وأحس فى أعماقه كأن صوتاً آخر يصيح « أيها الطاغية الغاصب » .

وتقدم نحوه يسير بطيئاً ويحس الثورة المكبوتة فى نفسه تضطرب فى عنف . لم يخطر له من قبل أنه سيجد نفسه واقفاً أمام يكسوم يحس فى قلبه المقت والغضب ولا يستطيع أن ينفس عنه بكلمة ، فكان صوت ضميره يزداد حنقاً ويقول : « أيها الطاغية الفظ الذى سلب منى سعادتى » . ولكن لسانه لم يتحرك إلا بتحية خافتة عندما صار أمام العرش فقال :

ــ عمت صباحاً أيها الملك .

وما كاد يقولها حتى انكمش واقشعر بدنه كأنه ارتكب خزياً على ملأ من الوقوف والجالسين . وعلا الدم إلى رأسه ووقف جامداً ينتظر صوت يكسوم . ولكنه لم ينطق برد التحية بل نظر إليه بعينين تبصان ببريق بارد خاطف ، ثم انصرف عنه متجهاً إلى القائد العربى الذى كان واقفاً بين يديه فقال له :

– أحسنت يا حناطة إذ أشعرتهم عضة السيف .

ورن صوته الغليظ رنين النحاس .

وقال حناطة :

– كانت يا مولاى وقعة حاسمة . أخذناهم جميعاً فى الشعب كما تؤخذ الفيران فى مصيدة ، فلم ينج منهم إلا من كان واقفاً عند فم الوادى متردداً .

وخفق قلب سيف وهو يحس بوادر العاصفة . فمن هؤلاء الذين أوقع بهم حناطة فى الشعب الضيق ؟ أهم بعض قومه ؟

ومضى حناطة الحميرى قائلا :

– وجاس الرجال خلال الوادى كله ، فلم يبقوا على شىء ، قتلوا الرجال ، وغنموا النساء والأطفال ، وأحرقوا المزارع والقرى . وقد اخترت لك يا مولاى أبرع فتياتهن حسناً ، وبعثت بهن إلى قصرك بشرى الانتصار .

وابتسم ابتسامة خفيفة .

فقال يكسوم :

ــ أحسنت يا حناطة . ليعلم الجميع أن العقاب قريب وأن الفناء جزاء من يعين أعداء الملك . ولك أن تصنع ما تشاء بالأسيرات فوزعهن أو احتفظ بهن ، وأما الأطفال فاصنع بهم كما تريد .

وكان سيف يقول فى نفسه : إنها قصة معادة ، ولكن حناطة الحميرى هذه المرة هو الذى يقتل الرجال ويغنم النساء والأطفال ويبعث بأبرعهن حسناً إلى يكسوم . أهكذا وقعت خيلاء يوماً من الأيام فى يد رجل مثل حناطة ؟

وقال حناطة وإن أسفت على شىء فقد أسفت على إفلات ذلك الثعلب نفيل .

وصاح سيف فى سره : نفيل ؟

وقال يكسوم : إلى الجحيم أفلت سوف تقع عليه يدى يوماً وسوف يعرف جزاء الخائن كيف يكون . سأذهب إليه بنفسى وأستوفى منه دينه عضواًعضواً وأقتطع من لحمه قطعة بعد قطعة . امض يا حناطة حتى لاتبقى ولا تذر . امض حتى لا تدع منهم باقياً أو هارباً . لقد جرأهم أبرهة بالعفو فحسبوا كل بارقة ذهباً .

ونظر بعد حين إلى سيف متجهماً ، فقال له :

ــ أقد عدت إلى صنعاء ؟

وكانت نظرته تصف حقده .

وأجاب سيف ثابتاً :

ــ عدت إذ جاءنى النبأ الفاجع .

فقال يكسوم فى ضحكة :

ـ أكان فاجعاً حقًّا ؟

فقال سيف :

ـ إنما أتحدث عن نفسى .

فقال يكسوم فى غيظ :

ـ حسبتك استغنيت عنه منذ حين .

فقال سيف :

ـ كان برًّا رحيماً وقلباً كريماً . ألهذا القول جئت بى إلى هنا ؟

فقال يكسوم :

ـ ليس لهذا دعوتك ولكنى عجبت لقولك .

فقال سيف :

ـ ألم تسمع من قبل رجلا حزن على صديق ؟

فقال يكسوم ساخراً :

ـ صديق ؟ مرحى لك ! ما أبرهة سوى صديق ؟ ومن هذا الذى تملأ الأرض بذكره ؟ من هذا الأب الذى استحدثته ؟

فقال سيف ساخراً :

ـ أنتحدث عن أنسابنا ؟

فقال يكسوم جامداً : لا حاجة بنا إلى هذا ولكنها خاطرة طارئة . أتتبرأ ممن أحسن إليك ومن تقول إنه كان برًّا رحيما ؟ ألم يكن أبرهة سوى صديق ؟

فقال سيف :

– لو عرفت معنى الصديق عندى لعرفت بأى فضل أصفه .

فقال يكسوم :

– ومن هذا الذى تنادى الناس باسمه ، وتتوافد عليك الوفود لتتحدث عن مفاخره ؟ أتريدها ثورة جديدة ؟ ما هذا الاسم الجديد ؟ أهو ذو يزن ؟

فانتفض سيف قائلا : ليس ذلك الاسم جديداً ، وهل تجهله حتى أذكرك به . نعم هو ذو يزن . هو أبى ذو يزن، وهو أولى أن أسمى باسمه ، ولست أبغى منه بديلا . أهذا كل ما أردت أن تقوله ؟

فقال يكسوم متمهلا :

– لا . لا . كل هذه خواطر تخطر لى فى ثنايا حديثك . وما جئت بك إلى هنا إلا لكى أقول لك كلمة . لقد آن لك أن تطرح ما تعودته من تدليل أبرهة . ليس لك اليوم إلا الجد والحذر أو عداوة سافرة .

فقال سيف هادئاً :

– عرفت ذلك قبل أن تقوله .

فقال يكسوم غاضباً :

– بل أرهف أذنيك فإنى أنذر وأحذر . لست أنطق إلا جداً مرًّا .

فتضاحك سيف قائلا :

– علمت أننى لم أجىء لألهو .

فقال فى صيحة :

ـ حسبك أيها الفتى ، لقد عرفت غرورك وبطرك وعنادك . ولكنك لن تعرف الجد حتى ترى الرؤوس تطيح عن أعناقها . سوف تعرف الجد متى علمت مصير أصحابك وأعوانك ومن تسميهم قومك .

ثم صفق بيديه فى عنف .

وسكت سيف لا يدرى ماذا يقصد ، حتى سمع ضجة عند باب الإيوان وصاح يكسوم قائلا :

ـ أسرعوا به إلى هنا .

ودفع الجند رجلا يتعثر بينهم فى القيود ، وكاد سيف يصيح ذعراً : « أبو عاصم ؟ »

واتجه نحوه بغير وعى يمد يده إليه فى مواساة ، ولكن الجنود جعلوا يدفعون الشيخ فى عنف وهم محيطون به حتى أوقفوه أمام يكسوم . وعجب سيف لابتسامة ضيئلة بدت على وجه الشيخ وأحس فى قلبه شعلة لهب .

وقال يكسوم فى سخرية وحقد :

ـ أما زالت فيك بقية أيها الخبيث ؟

وتعلقت الأبصار بوجه الشيخ المجعد وهامته الكبيرة البيضاء التى وقعت عنها عمامتها . وقال الشيخ من بين ابتسامته :

ـ تسألنى أبقيت فى بقية ؟

فصاح به يكسوم :

ـ سمعت الصواعق أما سمعتنى ؟

فقال الشيخ :

ـ عرفت أنك سوف تسألنى مثل هذا السؤال وأعددت لك جوابى . فإن كنت قد دبرت فى هلاكى خطة وجدت فى قولى عذراً . لقد حاربت أباك عندما كنت أنت صغيراً . . .

فقاطعه يكسوم :

ـ ولم يزدك عفوه إلا خبثاً .

فقال أبو عاصم : مهلا ، حاربت أباك وكان يعرف أنه ما كان لى إلا أن أحاربه . ولهذا عفا عنى . ولو قتلنى ما نفعه قتلى .

فصاح يكسوم : كما نفعته حياتك .

فقال الشيخ : صدقت . فإن اعتداله رد السيوف إلى أغمادها سريعاً .

فقال يكسوم : أتهددنى ؟

فقال الشيخ : افهم من قولى ما شئت . لقد مضت الأعوام منذ حاربت أباك وكأنها لم تكن ساعة واحدة . وأنت هذا ترانى مشرفاً على قبرى . وسيان عندى أتستعجل هذه البقية الضئيلة أم تدعها . اختر لنفسك ما تحب . ولكن اعلم يا يكسوم أنك تحفر لنفسك هاوية . أنت تستعجل خاتمة طغيانك كلما أوغلت فيه .

فصاح يكسوم : اصمت أيها الأحمق .

ومضى الشيخ كأنه لا يسمع :

ـ أنت لا تزيد إلا حنقاً بطاعة حنقك ، ولا تزيد إلا عذاباً

بما توقع من العذاب . أنت لا تزيد إلا بعداً عن الطمأنينة كلما ظننت أن عسفك يوقع الخوف فى أعدائك ، وتقرب الخلاص إلى المطحونين كلما بالغت فى طحنهم . أنت تحطم قيود الأشقياء الذين تقتلهم ، وتضعها فى عنقك أنت وفى عنق أمثال هذا الشيطان الذى يغرر بك . وأشار إلى حناطة .

وكانت كلماته هذه تتقذف فى وجه يكسوم برغم صرخاته المتوالية :

— اصمت ! اخرس ! كمموا فمه !

وكان الحراس الذين حول الرجل يحاولون إسكاته وإغلاق فمه ويتجاذبونه فى عنف وهو يقاوم فى قوة تشبه قوة شاب ثائر .

ولما سكت آخر الأمر كانت قواه قد خارت . وتخاذلت أعضاؤه تحت ثيابه التى ذهبت قطعاً ممزقة .

وصاح يكسوم لاهثاً : لقد حانت ساعتك أيها الخبيث ، وما كان أولاك بالهلاك منذ أمد بعيد حتى لا تملأ الأرض فساداً . ولكنك ستلقى جزاءك الأوفى . خذوه حتى آمر فيه بأمرى .

وأسرع حناطة ومن معه من الجنود يدفعونه فى حنق وقسوة ، وهو يحجل فى قيوده ويتكفأ . وكان سيف ينظر مبهوتاً إلى المنظر العاصف ويكتم صيحات حنقه . ولما رأى الشيخ يترنح تحت ضربات الحراس صاح قائلا :

— أيها الذئاب !

فلكم حناطة الشيخ قائلا :

ـ اخسأ أيها الخائن .

ونظر نحو سيف كأنه يخاطبه .

فنظر الشيخ إلى حناطة وقال له هادئاً بصوت خافت :

ـ لو غيرك قالها ؟

فكان رد حناطة لكمة أخرى ترنح لها الشيخ صامتاً ، ومضى يحجل في قيوده متعثراً .

وصاح سيف متجهاً نحو يكسوم :

ـ إنها مثلة ! إنها وحشية !

ونظر الشيخ نحوه نظرة أخرى ، وانفرج وجهه البائس عن بسمة خافتة قبل أن يخرج من الباب .

وقال يكسوم فى حقد :

ـ حقاً إنك كنت أولى بهذا . ولكن مهلا ! مهلا حتى ترى بعينيك هلاك فلول الخونة الذين يشاركونك . أتعرف نفيل بن حبيب ؟

ومضى يكسوم قائلا : سأحمل إليك بعض أنباء لا تعرفها ، وأظنك تطرب لها . كان نفيل ينتظرك فى شعب غيمان مع أصدقائك . وبعث إليك رجلا من قومك يستعجلك . بعث إليك هذا الشيخ لتذهب إليهم . ولكنك كنت فى شغل عن مثل هذا العناء . كنت فى شغل بأحاديث أخرى مع النساء .

وضحك ساخراً ضحكة طويلة . وكان سيف يستمع وهو بين

اللهفة والحنق ، وتمنى لو استطاع أن يقذف بحربة إلى صدر ذلك الضبع الذى أمامه .

ومضى يكسوم قائلا :

– كنت فى شغل عن قومك ومؤامراتهم ومتاعبهم . وما لك أنت وهذا العناء .

وأحس سيف لذعة السخرية التى لاحت على وجوه الجمع الذى حول يكسوم . ومضى يكسوم قائلا :

– فلما وجدتك لاهياً فى أحاديثك الناعمة بعثت آخر بدلا منك ليأتى إلى بأصحابك .

فقال سيف فى دفعة :

– أبعثت إلىّ لتسمع هؤلاء كيف تذلنى ؟

فقال يكسوم فى هدوء منذر :

– من هؤلاء الذين تشير إليهم بقولك ؟ دع هؤلاء فإننى أنا أخاطبك وأصبر على حماقتك . دع هؤلاء فهم أعوانى وأصحابى . هؤلاء هم الذين لا يداخلهم شك فى ولائى ولا يداخلنى شك فى ولائهم ؛ انظر إلى نفسك أنت واستمع إلى ما أنذرك به .

فقال سيف وهو يرتجف غضباً :

– بل استمع أنت ، ولا تدخل فى الحديث غيرى . سأهب لك جوابى مثل ماوهب لك الشيخ الطيب جوابه . سأهب لك عذراً تتخذه تكأة للتنكيل الذى تهفو إليه نفسك . أقول لك إننى ابن ذى يزن سيد حمير ،

وإن لى قوماً لا أبرأ منهم إلا أن يكون فيهم زنيم مثل حناطة هذا ، يستعبد نفسه لك ويلعق قدميك لقاء فضلة من سلطانك ، فيستعبد لك الأحرار ويغنم لك النساء ولا يرحم طفولة ولا شيخوخة . . .

فقاطعه حناطة فى غضب :

ــ جرأة خائن . وما سمعت بمثلها جرأة فى حضرة ملك .

وكان يكسوم يتقد غيظاً ولكنه قال ضاحكاً فى غل :

ــ امض فى قولك فأنت لم تتمه .

فقال سيف ضاحكاً :

ــ هذا أجدر بالضحك يا يكسوم . دع الخيانة يا حناطة فما أنت إلا عبد أخذت ثمنك طعاماً ونساء بعد أن لم تكن شيئاً .

وهب حناطة غاضباً وهب الأحباش يحيطون بسيف وهو واضع يده على مقبض سيفه وفى عينيه لمعة من العزم على أن يجعلها موقعة حاسمة .

وعلا صوت يكسوم قائلا :

ــ دعوه فإن لى معه شأناً .

وقام من مجلسه متجهاً إلى سيف بنظرة فيها سخط وفيها وعيد وقال فى حقد :

ــ ما زلت تملأ شدقيك غروراً وعداوة . ولولا أن يقول الناس إننى بدأت بأخ لمسروق وبابن لريحانة لما أبقيت عليك ساعة . ولكن مهلا حتى ترى مصارع أصحابك . لست أدعوك إلى التجمل ولا إلى الموادعة . اذهب إلى من تسميهم قومك فانظر ما تستطيع أن تصنع بهم ، وابحث

فيهم عمن تحمله على غرورك . لن أعيد عليك بعد اليوم لفظاً . وخير لك أن تعود إلى مجالسك حيث كنت مع النساء .

ثم قهقه ساخراً وسار خارجاً من الإيوان ، وحراسه يسيرون وراءه ومن حوله سراعاً ، وبقي سيف واقفاً في مكانه يحس قدميه ثقيلتين كأنه في كابوس . ودار به رأسه فلم يدر أين هو ، وغابت عنه أشخاص القوم وراء الأروقة وسأل نفسه وهو يسير كالمذهول : « أحقًّا هذه الحوادث التي أشهدها ؟ أحقًّا ودعت خيلاء آخر الدهر ؟ ورأيت صاحبي الشيخ يحجل في قيوده بين الجنود الغلاظ وسمعت يكسوم يسخر مني ويقهقه متحدياً ؟ » ولمس سيفه فوجد مقبضه بارداً في قبضته المحمومة وجذبه من قرابه فخرج منه مقدار شبر تتردد فيه لمعة زرقاء صارمة . وقال في مرارة : « لم يبق لي غير هذا » .

* * *

وخرج في أصيل اليوم التالي يودع خيلاء عند باب صنعاء . فلو وقف رجل على شاطئ بحر هائج في يوم عاصف وحول يديه ورجليه أغلال وقيود ثقيلة من الفولاذ ، ورأى أعز الناس عنده يجاهد الموج المفترس حتى تخور قواه ويغيب تحت الماء بغير أن يستطيع أن يمد إليه يداً أو يخطو نحوه خطوة ، لما كان أشد من سيف يأساً وحنقاً وحزناً في موقفه وهو ينظر إلى ركب الراهبات اللاتي ذهبن بخيلاء على طريق نجران . وهم بالسير وراء الركب فأشارت كبرى الراهبات إليه أن يبقى حيث هو ، وكانت إشارتها هادئة وديعة ولكنها

صارمة . ونظر نحو هودج خيلاء يحاول أن يلاقى نظرة منها يتخذ منها آخر ذخيرة للذكرى ، فرآها مطرقة تضم الصليب إلى جبينها وتميل برأسها فى خشوع تصلى ولا ترفع بصرها إلى شىء . وكاد يصيح صارخاً يدعوها دعوة يائسة إلى البقاء ولكن صوته لم يطاوعه . وسارت الإبل تميل بهوادجها على رسلها لا تبالى شيئاً من أمامها ولا من ورائها . وأخذ النسيم يرف بأستار المحامل كأنه يلوح بتحية حائرة مضطربة حتى غاب الركب وراء ثنية الطريق . وبقى سيف فى موقفه حيناً ينظر فى الفراغ الصامت وفى قلبه حرقة طفل ينزع من بين ذراعى أمه ويعجزه الضعف أن يلحق بها . ولم يدر كم مضى عليه من الوقت وهو هناك ثابتاً لاهياً عن كل شىء سوى حزنه . ثم تنبه إلى نفسه يسألها كأنه لا يعرف الحقيقة . فكأن مسالك الفضاء قد سدت دونه ، وكأن نور الأصيل قد خبا فعاد ظلاماً ، وكأن الربيع قد تعطل من محاسنه وشحب لون زهره ، وكأن أشعة الشمس الخابية تقذف شرراً . وتلفت إلى ورائه نحو القصر الكئيب وهمت به دفعة أن يهرب منه كما يهرب المخبول من الأشباح التى تطارده . ولكن إلى أين ؟ واقتلع قدميه يسير على غير هدى فإذا هو يعود إلى القصر ، حتى إذا بلغه ذهب إلى البهو ووقف عند الوعاء المرمرى . ولكنه وجده صامتاً جامداً فاتراً لا يزيد على قطعة من الحجر . وذهب إلى حجرة خيلاء لعله يتنسم من قبلها أنفاساً تبعث إليه شيئاً من السلام ، ولكنها كانت مثل طلل فى صحراء مقفرة بعد أن غادرتها خيلاء ، فعاد نحو حجرته . وكان لا يزداد مع

كل خطوة إلا ضيقاً ، حتى أفاق على الحارس الحبشى يعترضه مثل تمثال من نحاس قائلا :

ــ لا يؤذن لأحد فى الدخول إلى هنا .

فلم يجبه ولم ينظر إليه ومضى فى سيره كالحالم حتى أعاد عليه الحبشى قوله مرتين ، ثم رآه يسد طريقه بسنان الحربة . فنظر سيف إليه فى سخط ثم سار خارجاً حتى بلغ مرابط الخيل فأخذ مهره الأبيض وخرج من الباب الخلفى إلى طريق الشمال . « إلى أين ؟ » لم يدر سيف إلى أين يتجه بعد أن وجد نفسه فجأة على الطريق الخالية . فإنه كان إلى تلك اللحظة منقطعاً إلى نفسه وأحلامها وخواطرها وأشجانها وأحاديثها المختلفة ، فلم يفكر ساعة واحدة فى خطة لحياته ، ولم يصرف ذهنه مرة واحدة إلى الحقائق التى كان لا بد له من مقابلتها . أهكذا يخرج من حياة إلى حياة أخرى كمن يلقى بنفسه إلى البحر عندما يجد نفسه على شاطئه ؟ وتذكر قول أمه إذ قالت له : « إنك أسلمت نفسك للخيال حتى إذا عدت إلى الحقائق وجدتها تصدمك وتهزمك وتجرفك » . نعم كانت الحقيقة تجرفه وهو لا يدرى إلى أين .

وجاء الليل على بطء يستصحب مرارة العجز وحر القيظ وضيق الوحشة . وخلف سيف المدينة وراء ظهره يرى من أمامه ظلاماً ومن خلفه ظلاماً وفى قلبه ما هو أشد سواداً من الظلام ، وأخذت النجوم تلمع من فوقه صامتة هادئة لا تبالى شيئاً من الهموم التى تثقل قلوب البشر .

أهكذا خرج أبو مرة فى ظلام الليل وحيداً لا يعرف قراراً يستقر

فيه ؟ وأين ذهب ؟ أما زال حيًّا أم قضى عليه الهم والأسى ؟

وكان النسيم يهب من الجنوب يحمل عطر أزهار الربيع كأن ليس على الأرض طريد محروم يهيم على وجهه وحيداً . وعاد فكره إلى خيلاء فى شيء من العتب كأنها قد تخلفت عنه وقطعت ما بينهما عمداً . أكانت فى تلك الساعة تنظر مثله إلى السماء وترى النجوم البعيدة تومض إليها كما تومض إليه غامضة رهيبة ؟ أما يتجه فكرها إليه ، كما يتجه هو بكل قلبه إليها ؟ أم هى تصرف عنه فكرها خشية الخطيئة ؟

وكانت الآكام تحف بطريقه من جانبيه ، والطريق ينفرج فى الضوء ، المنبعث من النجوم ، والجواد يسير على رسله والعنان مرخى على كاهله ، وقال فى نفسه : « أيها الجواد سر أين شئت فأنت أهدى منى » . ومسح على معرفته فى عطف وشكر .

لم يدر كم مضى عليه فى سيره ثم أحس بالجواد يصعد فى أرض صلبة ، وتلفت فإذا عن يمينه وشماله هوتان عميقتان مظلمتان ومن أمامه قصر عال يقطع صفحة السماء عابساً . « إنه قصر ذى جدن » . ونزل كأنه يتحرك فى نومه متجهاً نحو الباب المغلق وطرقه . فجاء إليه الحارس بعد حين يطل من كوة صغيرة قائلا فى نغمة جافية :

ــ من أنت ؟

وأجاب سيف فى صوت خافت :

ــ أنا سيف .

فهز الرجل نفسه فى دهشة قائلا :

– سيدى ؟

وفتح خوخة الباب فى حذر ثم ردها وراءه هامساً :

– الحبشة هنا .

وصمت سيف لحظة فى تردد وزاد انقباضاً . ثم ذهب إلى جواده قائلا للحارس : وداعاً يا صبيح ؛ لا تخبر أحداً عنى .

وسمع همهمة الرجل وهو يجيبه بصوته الخافت فى رحمة . ثم سمع خوخة الباب وهى ترتد وراءه ، وكأن بقية من أمل قد غلبها اليأس فى نفسه .

« حتى بيت جدى ! »

هكذا قال فى نفسه : « حتى بيت جدى الذى كنت أحسب أن أعيش فيه مع خيلاء ؟ » .

وعاود السير على الطريق تاركاً عنان الجواد على كاهله . ومسح عنقه يستأنس به شاكراً أن يجد على الأرض صديقاً باقياً لا يسأله إلى أين تسير . وسار الجواد خفيفاً جريئاً كأنه هو خرج يقصد قصداً . وظهر القمر بعد حين من وراء الجبل الشرقى مثلما ينهض العليل النحيل يجاهد أن يقوم والضعف يعجزه ويترنح به ، ولكنه جلا الأرض شيئاً وكشف له وجه الربى المعشبة ، وعجب إذ أحس شيئاً من الأنس يدب إلى قلبه كما يتنفس النسيم الفاتر فى أعقاب يوم شديد الحر وأحس كأن الليل يبش له بعد عبوس فملأ صدره من الهواء ، وزالت عنه تلك الوحشة التى خيمت عليه منذ خرج من صنعاء . إن أودية الأرض ما زالت واسعة يستطيع أن يجد فيها جواراً يأمن عنده وديارا

يحل فيها كريماً . أليس قومه أمامه فى تلك الأودية الساكنة ؟ وطال به السير حتى لاح الفجر من المشرق يتنفس هادئاً مثل جواده الفتى ، ورأى إلى يساره ضوء نار تتقد حيناً ثم تخبو حيناً . فلوى عنان الجواد متجهاً نحوها وهو يحدث نفسه حديثاً جديداً . سوف يمضى إلى قومه فى شعاب الجبل فهم يملأون الأرض وينتظرون مقدمه . وسوف يجمع شملهم ليستأنف الجهاد الذى بدأه جده وأبوه . سوف يستعذب لسع الأفاعى والعقارب وسوف يستسيغ طعام العظام والدماء ، سوف يَقْتُلُ ويقتل ويُقْتَل . ولاحت له صورة يكسوم إذ ينظر إليه بعينيه القاسيتين ورنت ضحكته الساخرة فى أذنيه وثار الدم فى رأسه . سوف يقتل ويقتل ويُقْتَلُ . وبلغ قريباً من النار فالتفتت إليه امرأة شابة تتلفف فى خمارها ويبدو شبابها من اعتدال رأسها ولين حركتها . وقالت له مبادرة :

ــ على الرحب نزلت .

ثم أسرعت نحو الخيمة تنادى زوجها .

وترجل سيف فى تردد ، حتى رأى صاحب المنزل يخرج إليه وهو يلقى شملته على كتفيه ويناديه قائلا :

ــ مرحباً بك وأهلا !

وما كادت عين الرجل تتبينه حتى صاح قائلا :

ــ سيف بن ذى يزن !

وفتح له ذراعيه . وانقشعت هموم الليلة فجأة عن سيف كما تنقشع السحب السوداء فى أعقاب زوبعة .

١٥

قال الراوى :

كانت المياه الصافية الزرقاء تتموج فى رفق تحت الصخور السمراء العالية المحيطة بالخليج ، وجلس على الشط رجال يتحلقون فى حلقات يتناقلون الأحاديث على الرمال ، والنسيم يرف رهواً دفيئاً من قبل البحر الهادئ . وكانت الشمس تبعث أشعتها المائلة تتواثب على ظهور الموج فى عرض البحر ، وتنبعث منها خيوط من بين فرجات الصخور ، فتقع لامعة على قطع من الخليج الظليل وترسل بسمة مؤنسة فى وحشته . وكان سطح البحر يشف عن شعاب المرجان تتلألأ فى ألوان شتى ، بعضها أبيض ناصع وبعضها أحمر قرمزى أو أزرق بنفسجى ، كأن عرائس البحر قد تأنقت فى ذلك الركن المنعزل من شاطئ السودان وأعدته ليكون لها مراحاً . وعلى صخرة ناتئة فى البحر فى الطرف الأقصى من الشاطئ جلس سيف بن ذى يزن فى ثوب من الزرد وسيفه يتدلى من منطقته ، يمد عينيه إلى الأفق ساهماً وفى نظرته العابسة ما ينم عن صرامة تكاد تبلغ القسوة . وكان وجهه المعروق تعلوه سمرة والنسيم الهفاف يعبث بأطراف شعره المرسل إلى كتفيه ، لا يكاد الناظر إليه يتبين ملامح الفتى الذى ترك غمدان منذ ثلاث سنوات . لشد

ما تبدل سيف في هذه السنوات التي قضاها في اضطراب بين أودية اليمن وشواطئها لا يستقر به المقام في مكان حتى تلاحقه جنود يكسوم قبل أن يجتمع إليه جمع يستطيع أن يثبت به في قتال . فما زالت شعاب اليمن وشواطئها تتقاذف به حتى انتهى به الوثوب إلى ذلك الملجأ المنعزل من الشاطئ المقفر عبر البحر . وكان معه فتيان من قومه أبوا أن يتخلوا عنه وساروا معه يشاركونه حياة لا استقرار فيها . فكانوا يهبطون معه على سفن الأحباش العابرة بين شاطئي البحر فيغنمون ما فيها من بضاعة ويوقعون بمن قد يكون فيها من جنود يكسوم، ثم يعودون إلى مخبئهم الخفي . ونسي سيف في تلك الحياة الجديدة أو كاد ينسى كل ما مر به في حياته الأولى ، إلا خطرات كانت تعتاده حيناً بعد حين . لم يبق في قلبه إلا شيء واحد أصبح كل همه في حياته ، وهو أن يصدم أعداءه أينما استطاع وأن يوقع بهم كلما استطاع . وكان في جلسته على الصخرة ينظر إلى البحر الواسع الممتد تحت عينيه كما ينظر الفهد الذي يتربص بأعداء يطاردونه من حواليه . هذا البحر الفسيح يفتح له آفاقه باسماً حيناً وعابساً أحياناً وهو في كل أحواله صديق جبار تعجز يد يكسوم أن تمتد إليه .

وبرقت أمامه هنة ضئيلة تتحرك عند أفق الجنوب ، فمد بصره إليها وتقلصت عضلة ساعده وأسرعت أنفاسه وعلق بصره بها كما يعلق الفهد بصره بفريسة مقبلة . لقد مضت أيام ولم يجد فرصة يشفي بها غليل قلبه . ولكن الهنة الضئيلة كانت ثابتة عند الأفق لا تكاد تتحرك .

فنزل إلى الشاطئ الرملى يسير بخطوات واسعة حتى بلغ آخر منحناه ، ورأى أصحابه فى حلقاتهم الصغيرة يتحدثون . ما لهم يتضاحكون هكذا كأن قلوبهم خالية . وعاد نحو صخرته مسرعاً فى خطاه مؤثراً أن يخلو إلى خطراته الحانقة . وسأل نفسه ما جدوى تلك الصدمات الصغيرة التى لا تصيب يكسوم إلا بأيسر الأذى ؟ إنه هناك فى غمدان تبلغه الأنباء أحياناً أو تخفى عنه ، وما يزعجه من سفينة أغار عليها لصوص البحر فاقتطعوا من بضاعتها غنيمة أو قتلوا ممن عليها بعض الجنود ؟ أهذا كل ما يستطيع من جهاد يكسوم ؟ وتمنى لو رآه أمامه فى جمع من أحباشه فيقذف نفسه عليه حتى إذا لم يبق له من الحياة إلا ما يمكنه من أن يتعثر إليه حتى يغمد سيفه فى قلبه لمات سعيداً .

وهجمت عليه صور من ذكريات كأنها كانت حبيسة ثم انطلقت جافلة . كيف أمست خيلاء بعد هذه السنوات ؟ أهى مثله تعاودها ذكرياتها بين حين وحين ؟ ألا تذكره فى ساعة من ليل أو نهار ؟ أم هى لا تفكر إلا فى المسيح الذى انقطعت له ؟ لحظات مسحورة ؟ ألا ما أقساها وقعاً إذا ذكرها المحروم منها ! إنما يسعد بذكرياتها أولئك الذين تغمرهم السعادة دائماً . وأما المحرومون فإنها تزيدهم شقاء . أيعود يوماً إلى نجران حتى إذا وقعت عينها عليه ألقت بنفسها بين ذراعيه باكية من فرط السعادة ؟ هيهات هيهات . وعاد ببصره إلى الأفق فرأى الهنة الصغيرة قد تبينت صورتها . إنها سفينة حقاً ؟ وكان الموج الهادئ يتدافع تحت قدميه كأنه دلافين تتلاعب فى مرح . وود

لو ثارت عاصفة فقذفت على الشاطئ بموج فائر يصطدم فى الصخور صاخباً ويتطاير عنه الرشاس الأبيض مدوياً عنيفاً ، فإن ذلك أكثر اتساقاً مع خواطره الثائرة .

وشق السكون الشامل صوت منبعث من أعلى الشاطئ الصخرى ، يشبه صيحة أنثى العقاب إذا آوت إلى وكرها فى قمة الجبل بعد طول غيبتها لتدعو فراخها حاملة إليهم بشرى عودتها إليهم بالفريسة . فاستجمع سيف نفسه ووثب من مجلسه خفيفاً وقد شردت عنه ذكرياته كأنها سرب من الخفافيش أزعجتها المطاردة فى الظلام ، فتفرقت تطلب ملجأ فى الزوايا البعيدة . وكانت الصيحة معروفة له ولأصحابه صيحة الربيئة الواقف فى أعلى الصخور يرقب البحر فى انتظار السفن العابرة .

وتسابق الفتيان إلى سفينة قابعة فى ركن من الخليج تترجح فوق الماء الصافى ، وما هى إلا لحظات حتى استقروا فى مواقفهم وقال سيف :

ــ الجميع هنا ؟

فأجابته أصوات بعضها جاد ، وبعضها ضاحك معابث ، واندفعت السفينة الصغيرة منسابة فى الخليج والمجاديف تضرب فى الماء معاً ثم تعلو معاً كأن يداً واحدة تحركها . ووقف سيف عند صدر السفينة يقلب بصره فى عرض البحر واضعاً يسراه فوق حاجبيه . وصاح قائلا :

— الشمس تميل إلى الغرب فاجعلوه سباقاً معها .

وتقاربت ضربات المجاديف واندفعت السفينة تشق الماء رشيقة ، وأمسك الفتيان عن النطق إلا همسات كأنهم يجمعون جهودهم للمعركة المنتظرة . واقتربت السفينة الضخمة بعد ساعة وكانت تجاهد بطيئة فى سيرها والنسيم الفاتر لا يكاد يملأ أشرعتها الثلاثة . ونظر سيف إلى سطحها يتأمل من عليه وما عليه وأحس بشيء يشبه خيبة الأمل . لم تكن من تلك السفن الأنيقة التى تحمل تجارة الحبشة من زبيد أو جزيرة فرسان ، ولم تكن من السفن السريعة التى تقصد شواطئ مصر — عيذاب أو القلزم أو أيلة وتحمل رسل يكسوم وهداياه إلى قيصر . كان يود لو كانت تلك إحدى السفن التى يجد فيها فرصة لشفاء غليله ، ويرى دماء أعدائه تسيل تحت قدميه ويستمع إلى أنينهم وهم يعالجون سكرات الموت .

وجاء بعض ركاب السفينة فوقفوا وراء جوانب السطح ينظرون فى دهشة إلى السفينة الصغيرة التى تقترب منهم مسرعة . وعلا صوت سيف قائلا :

— علقوا السلاليم .

وهدأت السفينة الصغيرة فى سيرها وقام بعض رجالها إلى سلاليم عريضة من خشب لها كلاليب من الحديد فى أطرافها ، فألقوها على السفينة الضخمة وغرزوا الكلاليب فى جنبها . واهتزت سفينتهم هزة عنيفة ثم استقرت تساير السفينة الأخرى . وعقلت الدهشة ألسنة الركاب

فبهتوا حيناً وهم ينظرون إلى الفتيان إذ يتبادرون إلى السلاليم وسيوفهم فى أيديهم ، ثم انطلقت منهم صرخات الذعر الحبيسة وتفرقوا فى اضطراب يلتمس كل منهم ركناً بعيداً يلوذ به . وصعد سيف إلى السفينة أخيراً وهو فاتر حتى إذا بلغ سطحها رأى منظراً جعله يغمد سيفه ويقف مبهوتاً .

كان ركاب السفينة مثل قطيع بائس من الماعز يتزاحم ويتخبط فى دفعات هوجاء . وذهب الفتيان يبحثون فى السفينة فإذا التيار الأعمى يرتد نحو سيف فى عنف ، وقد غطى على عيونهم . فوقف ثابتاً حتى اختلط به الجمع كأنه دجاج مذعور يتعثر فيه ويتطاير حوله . وكان فيه فتاة تحاول أن تقاوم صارخة غاضبة والتيار يدفعها معه لا يستمع إلى شىء من ألفاظ الحنق التى كانت الفتاة تصبها . واصطدمت فى اندفاعها بسيف ومدت يدها تتعلق به فمد يده إليها وانتزعها فإذا هى بين ذراعيه ليسندها ، وتشبثت به حتى تفرق الجمع ومضى فى دفعته إلى أقصى السفينة من الناحية الأخرى ، ثم دفعت نفسها عنه فى غضب وقالت له :

– تعساً لك !

– فقال لها سيف :

– لا تراعى يا فتاة .

وكأنه لمح فى وجهها شيئاً استوقف نظره لحظة . ثم التفت نحو أصحابه وكانوا عائدين يتضاحكون فى عجب .

وصاحت الفتاة بهم :

ـ ويلكم ماذا تبغون منا ؟

فقال لها سيف فى نظرة عابرة:

ـ لسنا نبغى شيئاً فاهدئى .

فقالت فى عنف :

ـ ما أخيبكم من لصوص جبناء . أتقول لى اهدئى . وهل رأيتنى فزعت حتى أهدأ . إن هؤلاء الحمقى هم الذين جرفونى ، ولو كان معى سيف لوقفت فى وجوهكم جميعاً . أما تخجلون أن تجردوا السيوف على العجائز والأطفال ؟

وكان وجهها المقلص وعيناها الملتهبتان ورأسها المرفوع بالتحدى تزيد ألفاظها حرارة . واتجه سيف إليها بنظرة فاحصة وهى تقذف بألفاظها وتبعث مع كل لفظ منها شرارة من غضبتها ؛ ولم يملك ابتسامة شاردة اجتمع فيها إعجابه ودهشته . كان وجهها الأسمر تعلوه نضرة الشباب وعيناها السوداوان الواسعتان تنطقان عنفاً ، على حين كان حاجباها الدقيقان وأنفها المستوى الدقيق تنطق رقة من وراء ثورتها الوحشية . وكان رأسها المرفوع يبرز محاسن عنقها وصدرها ، وحركة غضبها تهز قوامها اللدن المعتدل . كان جمالها يبرق من خلال عنفها كما تبرق محاسن النمرة الشابة إذ تتجمع للوثوب على غريم تعرض لها . ولم تزدها ابتسامة سيف إلا غضباً فقالت :

ـ خذ أصحابك وانصرفوا إن بقيت فيكم شهامة ، واستشعر الخجل بدل أن تبتسم هذه الابتسامة المتكبرة .

فقال سيف :

ـ أزيلى أيتها الحسناء هذه السحابة عن وجهك . ممن أنت ؟

وخيل إليه أنها هدأت قليلا عندما سمعت قوله ، ولكنها همهمت بجواب ثم مضت بعد أن علقت بصرها لحظة فى وجهه . وخيل إليه كذلك أن بسمة خاطفة مثل لمحة البصر سنحت فى عينيها وهى تنصرف نافرة . ونظر فى أعقابها حتى غابت وراء أكداس الطرود الملقاة على السطح ، ثم رأى رجلا ضخماً يتدحرج فى مشيته البطيئة مقبلا نحوه كأنه كان مختفياً يرقب ما يحدث للفتاة . وكان من ورائه بعض رجال يبدو عليهم الضعف والهزال فى ثيابهم الممزقة . وصاح الرجل قائلا بصوته الحاد :

ـ ما خرجنا إلى قتال أيها الشجعان ، وليس معنا ما يستحق أن يؤخذ . نسائى طوالق وسفنى غوارق إن كنت أقول غير الحقيقة .

فقال سيف باسماً :

ـ إلى أين تسير أيها الربان ؟

فقال الرجل كأنه لم يسمع سؤالا :

ـ هل مثل هؤلاء يحمل شيئاً له قيمة ؟ ما رأيت فى حياتى أكثر منهم خبثاً ولا أشد منهم بالحاجة ومماكسة فى الأجر .

فقال سيف : من هم ؟

فقال الربان :

ـ هؤلاء الذين تسمع صياحهم وترى تخبطهم ، كأنهم رأوا

الشياطين أمامهم . يضطربون هكذا مثل قطيع من الغنم كأن حياتهم ذات قيمة . ولو رأيت كيف قلعوا الصارى الأكبر . . .

فقاطعه سيف قائلا :

– وأين تسير بهم ؟

فقال الرجل : ليتنى أستطيع أن أقذف بهم ها هنا . خذهم إذا شئت فقد يكونون أثمن من بضاعتهم . قد تبيع الواحد بدينار والواحدة بنصف دينار . وفيهن واحدة يقال إنها بمائة ناقة . نسائى طوالق وسفنى غوارق إن كنت أقول لك كلمة . . . .

فقال سيف مقاطعاً :

– ولكنك لم تقل إلى أين تسير . وكنت أود أن أسألك من أين جئت .

فقال الرجل : ومع هذا فإنهم لا ينقطعون عن الثرثرة . ألم تسمع بأذنك كيف تستطيع إحداهن أن تشتم ؟ هكذا يشتموننى أنا . ليتك رأيتهن وهن يطلبن منى كالمجانين أن أسرع إليكم لأطردكم ، كأننى خرجت لأطرد من يتعرض لهن . وهذه الجنية الشيطانة التى رأيتها منذ لحظة ، أتصدق أنها خنقتنى يوماً بيديها وكادت تزهق روحى . أتصدق أن فتاة مثلها تفعل ذلك ؟ أظنك تبتسم لأنها أعجبتك . لا يغرنك حسنها فإن أظافرها مثل مخالب القطط .

وغمز بعينه باسماً وقال :

– كلما نزلنا بشاطئ أثارت فيه معركة . ومع هذا فكلهم يسألوننى

من هى ؟ ولو عرفوا حقيقتها لفروا من وجهها . إنها تصبح سيدها بعلقة وتمسيه بعلقة .

فقال سيف :

– ألها سيد ؟

فقال الرجل ضاحكاً :

– هكذا كان الجميع يسألون عنها . أرأيت ؟

وأعاد ضحكته عالية . ومضى قائلا :

– لست أدرى فى الحقيقة أيهما السيد وأيهما الأمة . هو يقول إنه اشتراها بمائة ناقة وإنه لا يبيعها إلا بمائتى ناقة سود الحدق . ولكنى أظنه نتاشاً كاذباً ، وأغلب ظنى أنه يبيعها لك إذا شئت بمائة دينار . ولكن كيف تأتى له بثمنها ؟ لا تؤاخذنى يا سيدى . نسائى طوالق وسفنى غوارق إن كنت أقصد . . .

فقاطعه سيف باسماً :

– دع نساءك فى سلام وقل لى من أين جئت ؟

فقال فى تردد :

– من جزيرة فرسان بعد أن انتهى سوقها . والحق أنى سمعت هناك . ولكن نسائى . . .

فقال سيف : ماذا سمعت ؟ قل ماذا سمعت ؟

فقال : أقصد أنهم قالوا لى ولكنى لم أصدق . كل منهم يريد أن يقول كلمة .

فقال سيف فى شيء من الضيق وهو ينظر إلى الشمس المنحدرة :

ـ ماذا قالوا ؟

فقال الرجل : قالوا كلاماً كثيراً ولكن هذا الطريق أقصر ، وأنا أعرف هذه الشواطئ جميعاً . والماء هنا أهدأ والشواطئ لا صخور فيها . والطريق الآخر أشد عواصف ، ولو استمعت إليهم لكنت الآن أزحف فى وجه التيارات القوية . ولكنى عصيتهم وسرت من هنا . وإذا علت الريح اندفعت السفينة مثل المهر الأصيل . ولستم مع هذا كما صوروكم فى أحاديثهم . لم تمدوا يداً إلى أحد ، وأنت تتحدث معى كما لو كنت إنساناً مثل الناس . نسائى طوالق . . .

فانطلقت ضحكة عالية من الفتيان وقال أحدهم :

ـ كم عدد نسائك أيها العصفور ؟

فتبسم الرجل فى خبث حتى ضاقت عيناه المكورتان وقال :

ـ إن شئت الحق فلست أدرى ما عددهن .

فعادت الضحكة وقال سيف

ـ كم ثوباً تشترى لهن ؟

فقال وقد اتسعت بسمته :

ـ لست أشترى شيئاً . كل شاطئ فيه واحدة أو اثنتان أو ثلاث ، ولست أجد وقتاً للشراء فى أحدها ، فأنا دائماً على عجل .

فقال أحد الفتيان :

ـ وكم معك منهن على السفينة ؟

فالتفت إليه الرجل بنصفِ جسمه قائلا :

ـ أما هذا فلا نسائى طوالق إن كنت أحدث الناس عن حرمى .

فقال سيف وهو يضرب بكفه على كتفه :

ـ يلوح أنك غيور يا صديقى ، كم سنة تجوب هذا البحر ؟

فقال فى مباهاة :

ـ أربعون عاماً . قبل أن يعبر الحبشة إلى اليمن . لست أنت من الحبشة بلا شك .

فقال سيف :

ـ وأنت ؟

فقال الرجل :

ـ أنا ؟ أما ترى وجهى ؟ ليس على سفينتى أحد منهم . أما سمعت عن سيف ؟

. فقال سيف : أتعرفه ؟

فقال الرجل وكيف لا أعرفه ؟ سيذهب إلى يكسوم بجيش عظيم ليطرده من صنعاء . ولكنه لن يدركه حيًّا ، إلا إذا أسرع منذ الآن .

فقال سيف فى اهتمام : وكيف ؟

فقال الرجل : يقولون إنه مريض . ويقولون إنه جريح فى موقعة مع نفيل بن حبيب . ولكن آخرين يقولون إنها خدعة ، وإنه يدعى

المرض حتى يطمع فيه سيف بن ذى يزن ويعود إلى صنعاء ، وهناك . . .

ثم رفع يده وأشار إلى رقبته إشارة القطع .

فقال سيف : أنت رجل ظريف أيها الربان . ما اسمك ؟

فقال الرجل : أظنك قد تأخرت هنا والشمس تنحدر مسرعة . نسيت أن أقول لك إن هؤلاء سائرون إلى عكاظ . وسألقى بهم عند أقرب قطعة من ساحل الحجاز . فإذا احتجت يوماً إلى خدمة منى فاسأل فى جزيرة فرسان عن أبى العيوق .

فانفجرت ضحكة أخرى من الفتيان وشاركهم سيف وهم يسرعون على السلاليم ، والرجل الضخم ينظر فى آثارهم فاتحاً فمه كأنه يقول : « إن فى هذا العالم من يصيبهم الجنون » . ومالت الشمس تكاد تصافح الأفق عندما بلغت السفينة الصغيرة مدخل الخليج ، وكانت الأمواج تتلاطم متدافعة فى أذيال ريح عالية بدأت تعنف شيئاً بعد شيء آخر النهار . وتفسح الفتيان على الشاطئ بعضهم يوقد ناراً وبعضهم يستروح ساعة قبل أن يلف الليل الفضاء ، وكانت السفينة الضخمة تدب عند الأفق متجهة نحو الشمال ، وصورة الفتاة الغاضبة تتمثل لسيف وصوت الموج يقع فى ظهر وعيه الحالم . ولما غمضت الآفاق وانبهمت معالم الشاطئ قام من مجلسه يسير نحو الكهف الذى اتخذه منزلا ، إذ لم يجد خفة إلى المجلس الذى اعتاد أن يجتمع فيه مع أصحابه فى ساعة العشاء .

وكانت شعلة المصباح الضئيل تتراقص مع أنفاس الهواء وتبعث على جوانب الكهف ظلالا غبشاء تتحرك كالأشباح . فعادت إليه

ذكرى كهف ينور وقصة العجوز وصاحبه الشيخ المسكين أبى عاصم . أيهلك يكسوم قبل أن ينفذ إلى صدره طعنة تمزقه ؟ أتحرمه الأقدار من هذه السعادة الكبرى ؟ وخيلاء ؟ كان يوماً يظن أنها سعادته الكبرى أحقًّا تبعد عنه أبد الدهر؟ أحقًّا كان يوماً فى قصر غمدان ووقف معها إلى جانب الوعاء المرمرى ؟ إنها أيام بعيدة إن كانت حقيقة . ثم لمعت له صورة الفتاة الغاضبة . لم يكد ينظر إلى وجهها عندما قال لها : « لا تراعى يا فتاة » ، ولكنه أحس دفء جسمها وهو يضمها إليه بغير وعى ، ثم نظر إلى وجهها الغاضب . ما أعجب تلك اللمعة الوحشية التى رآها فى عينيها . وأنفها المستقيم وحاجباها الدقيقان ورونق شبابها النضير . كان جسمها اللدن أشبه بتمثال جنية غاضبة . كم وقفت تلك الفتاة فى مواقف عنيفة ؟ كانت كل حركة منها تنم عن أنها اعتادت الدفع والمقاومة والاستماتة ، ومثلها من يستطيع أن يطعن بخنجر أو يتعرض للطعنة . أهى الأخرى أمة تباع وتشترى بمائة ناقة أو مائة دينار ؟

كان بين الصورتين شبه عجيب كما كان بينهما فرق عجيب — بين صورة تلك الفتاة وبين صورة خيلاء . ماذا تفعل فى عكاظ وأية تجارة هناك لمثل تلك الشيطانة الحسناء ؟ وأى فرق بين بسمتها وبسمة خيلاء؟

وأحس وخزة من الندم عندما تحدث عن خيلاء وهو يتمثل صورة الفتاة النمرة . كيف يقرن صورة ملاك بصورة . . . ماذا يسميها ؟ ولكن أين خيلاء ؟ إنها هناك فى دير نجران لا فى عكاظ حيث الزحمة والتدافع والتنازع والتحدى .

أما الأخرى فهى مثله فى حياته الجديدة التى يحياها فى السطو على السفن ، أو فى القتال العنيف الذى يملأ قلبه حقداً وعداوة وقسوة . هذه تستطيع أن تستمع إليه إذا حدثها عن طعناته للأعداء وعن مغامراته فى الأودية والبحار ، وتطرب إذا وصف لها المآزق التى وقف فيها ونجا منها على سراط ضيق معلق فوق هوة عميقة مظلمة .

واستطاع بعد حين أن يغمض عينيه فى نوم عميق لم يستيقظ منه إلا بعد أن أطلت الشمس عليه من بين صخور الكهف .

وكان أول خاطر سنح له أن ذهب إلى أصحابه ليفضى إليهم برأي جديد بدا له بغتة كأنما استقر عليه فى أثناء نومه العميق .

فقد أوشك شهر ذى القعدة أن يستهل ، وسيذهب الناس من كل فج إلى سوق عكاظ يبيعون ما عندهم ويشترون ما عند غيرهم ، ويشهدون الموسم الذى تستفيض فيه الأحاديث عما يجري فى بلاد العرب جميعاً ، يحمل كل قوم منها طرفاً يعلمونه . وهناك يستطيع أصحابه أن يجمعوا أكداساً من الذهب لقاء ما عندهم من الغنائم المكدسة . وما كاد يفضى بهذا الرأى إلى أصحابه حتى وثبوا إليه فى حماسة كأنهم كانوا يتمنونه .

وأخذوا يستعدون من ساعتهم للرحلة القريبة قبل أن تتفلت فرصة الموسم العظيم .

١٦

قال الراوى :

بدأت الصبا تهب رفيقة من قبل نجد على النازلين فى عكاظ على مقربة من مدينة الطائف . وتدفق الناس إليها من الآفاق القريبة والبعيدة ليشهدوا الموسم فى ذى القعدة ، قبل أن يذهبوا إلى مكة ليحجوا إلى الكعبة المقدسة . وكان موسم العام أشد زحمة مما عرف الناس من قبل ، فإن قبائل العرب تسابقت إلى الحج منذ شاع فيها نبأ انتصار قريش على أبرهة الحبشى ، وعدوا ذلك النصر آية دالة على قدرة هبل واللات والعزى ومناة . وكانت الخيام تمتد فى صفوف متداخلة كأنها مدينة نبتت فجأة فى الصحراء ، بينها طرق متعرجة وميادين فسيحة ، بعضها لمباريات الشبان فى الرماية وبعضها لمسابقات الخيل والرهان عليها ، وبعضها لعرض السلع التى أتى بها الناس من أركان الأرض ليقضى كل حاجته من بيع أو مبادلة . وكان فى سرة الخيام ميدان فى وهدة من الأرض تحف بها من جوانبها صخور مدرجة ، وفى وسطه ربوة تبرز عالية فوق الوهدة كأن الطبيعة أعدتها لتكون مجتمعاً عامًّا .فكانت الآلاف المتزاحمة تحيط بالوهدة الواسعةمنتشرة على الصخور المدرجة ، ليستمعوا إلى أناشيد الشعراء إذ يتفاخرون ويتهاجون ويتنافسون

فى نشر مآثر قبائلهم ، وهم وقوف فوق الربوة الوسطى ، فإذا ما فرغ أحدهم من نشيده أطلق الحكم رأيه فى قوله فيقبله راضياً أو ساخطاً وخاشعاً أو ثائراً . فكان ذلك الميدان لا يخلو من هزة تعقبها مشاحنة قد تجر أحياناً إلى القتال بين العشائر أو المبارزة بين الأفراد .

فإذا ما انقضى النهار وهدأت الحركة فى ساحات عكاظ ، خرج طلاب المتعة إلى الأطراف البعيدة ليقضوا قطعاً من الليل فى الحانات أو أندية السمر التى كانت تجمع أسباب اللهو من أطراف الشام واليمن والعراق وكانت حانة النبطى مهبط المترفين من شيوخ القبائل وشبانها ، إذ كان صاحبها رجلا مرحاً لين العريكة سريعاً إلى إرضاء ضيوفه بكل ما يشاءون من لهو . وكان يختار لهم المعتقة من خمر الإسكندرية وأنطاكية ، كما كان يختار لهم أجمل الراقصات وأبرع المغنيات من فتيات العرب أو الروم أو أرمينية . وكان بين راقصات تلك الحانة فى ذلك العام فتاة عربية عرضها النبطى أول مرة ، فتناقل الناس أخبارها وتحدثوا بأوصافها قيل إنها من بنات حمير سباها جيش أبرهة فباعها حبشى إلى تاجر من قريش طفلة صغيرة وباعها القرشى لصاحب حانة فى جزيرة فرسان عند ما صارت شابة ثم باعها صاحب حانة فرسان إلى صديقه النبطى الذى أعجب بحسنها ونغم صوتها وبراعة رقصها فبذل فى ثمنها مائة ناقة . وكانت الفتاة فيما يقولون ذات بدوات ونفرات ، لا تعبأ بشىء إذا ثارت بها ثورة . فكانت تسوم صاحبها أعنف ما تنال حسناء قاسية من مطية ذليلة .

ومع ذلك كان لا يغاضبها بكلمة كأنه يتمتع بما يصيبه من عذابها . وهي فوق ذلك متقلبة بين المرح والطرب وبين الفتور والسهوم .

كانت تنفلت أحياناً من رقصها أو غنائها غاضبة لغير سبب ظاهر ، فلا ترضى أن تعود وإن بالغ صاحب الحانة وزوارها فى استرضائها . وكانت تغضب للكلمة التافهة تبدر من شاب عبثت به نشوة الخمر ، أو من دفعة غير مقصودة من إحدى صويحباتها فى الرقص ، أو من صيحة ماجنة من خليع ،أو من صيحة إعجاب فى غير موضعها . بل كانت أحياناً تغيب من غير غضب إذا بدا لها أن تغيب ، ولا يجرؤ صاحب الحانة على أن يلومها بكلمة ولعل النبطى الماكر كان يرضى فى نفسه عن بدواتها العجيبة ، فقد كان يعلم أسرار النفوس ويعرف أن رواد الحانة كانوا يزيدون بتلك البدوات حرصاً على التردد عليها ليلة بعد أخرى .

على أن طليبة ــ وكان ذلك اسمها ــ كانت تسمح أحياناً وتقبل صافية الطبع على زوار الحانة فتخطر بينهم مثل النسيم خفيفة متفننة مفاكهة متندرة، فتسحر ليلتهم وتشيع من حولها جواً صاخباً من المرح والنشوة .

ومضى صدر من موسم عكاظ ولم يبق منه إلا أيام ينصرف الناس بعدها إلى مكة ليؤدوا مناسكهم فيها ، ثم أقبلت قافلة من ناحية شاطئ البحر تحمل تجارة لم ير الناس فى عكاظ مثلها ، فيها بضائع شتى من كتان مصر وأبراد اليمن وزبيب أيلة وخيل نجد ،

وفيها من الحلى وصنوف الأمتعة ما يتهافت عليه أهل الثراء والترف من شيوخ القبائل وسادة القرى . وكان صاحبها فتى سمحاً فى البيع كريماً واسع الرحاب لمن ينزل عليه ، مهذباً فى الحديث لا يحب اللجاجة فى المساومة . فكان الناس يقصدونه فى منزله للشراء فيصيبون فى ضيافته ما شاءوا من كرم الوفادة . وسرى ذكره بين النازلين فى يوم وليلة وصاروا يتحدثون عنه ويعجبون من يكون، إذ لم يعرفوا عنه إلا أنه معديكرب ؛ وأنه فى هيئته وطريقة حديثه يشبه أن يكون من أهل صنعاء .

وذهب معديكرب إلى حانة النبطى ليستمتع بخمرها ، ويشهد ما فيها من رقص ويستمع إلى ما فيها من غناء . وليرى تلك الفتاة العجيبة البارعة طليبة التى سمع اسمها يتردد على الألسنة .

واستقبله النبطى مسرعاً مرحباً ، واتخذ له مجلساً فى الصدر ، والتف حوله جمع من تجار القبائل ، وجلسوا إليه يتحدثون فى شئون شتى ، وأنشد بعضهم ما خف عليه من قصائد الشعراء التى سمعها . . . وأتت الكؤوس تدور عليهم ومعها أطباق من فاكهة الطائف وجلق ومن بقول حلب وأزمير . ثم بدأ الغناء والرقص ، فتطلع الفتى يدير بصره ليرى الفتاة التى سمع عنها ولكنها لم تظهر بعد أن مضت ساعة طويلة ، وخشى أن يكون قد عرض لها بعض ما كان يعتادها ، وظهر عليه شىء من القلق وكاد يهم بالانصراف خائباً . ثم تعالت أصوات من أقصى المكان ، واضطربت المجالس بمن فيها ، وأقبل جمع من الشبان يتضاحكون وفى

وسطهم طليبة فى ملابس براقة زاهية من الحرير الموشى . وسارت تنثر بسماتها ، وكلما مرت بجمع أسفر وجهها عن بسمة ضئيلة ، وقالت وهى تلقى عليه نظرة شاملة : « عمتم مساء » .

ونظر إليها معديكرب فى دهشة . وأخذ الكأس التى أمامه فرشف منها يحاول أن يغطى دهشته . أتكون هى حقًّا ؟ ومال النبطى على الفتاة يحدثها ، ثم رفع صوته قائلا لها :

ـ هنا ضيف كريم يزورنا لأول مرة .

فالتفتت طليبة نحو معديكرب لفتة سريعة ثم ردت إليه نظرتها حتى وقعت عيناه فى عينها فى حركة تصبغها دهشة مستورة . وأسرعت متخلصة من نظرته فى شىء يشبه الجفول ، وصاح الفتى فى سره « إنها هى ! » .

ومضى النبطى قائلا :

ـ أرى على وجهك نظرة خبيثة فلا تدعيه يفلت .

وتعالت ضحكته وضحك الجمع وفيهم معديكرب . وأظهرت طليبة شيئاً من التدلل ثم ذهبت تخطر خفيفة وبدأت تغنى .

وتضايقت حلقة الجلوس فى الحانة وتزاحمت صفوفها، وعلت أنغام الغناء تبعثها طليبة متطربة ، ثم انطلقت فى فضاء الحلقة فى وثبات رشيقة أو خطوات رفيقة،وكانت إذا اقتربت من معديكرب تنظر إليه نظرة سريعة وتبتسم ابتسامة خفية ثم تندفع فى عنف باعدة عنه إلى أقصى الحلقة ، وتطامن من وثبها وتهدئ من سرعتها كأنها تستروح بعد جهد

شق عليها . ونسى الفتى فى نشوته أنه هناك فى حانة وأحس فى نفسه شيئاً يشبه الغيرة أن تعرض هذه الفتاة محاسنها للأنظار المخمورة التى تتعلق بها . وخشع الجمع المحتشد وغشيه من سحر الفتاة ما أسكن ضجته ، إلا همسات تقول إن طليبة لم تنطلق فى ليلة كما انطلقت فى تلك الليلة الرائعة . وإذا صرخة جشاء تعلو فجأة ، ولم يتبين أحد صاحبها حتى تحول الموقف إلى منظر لم يتوقعه أحد ولم يستطع أحد أن يحول دونه . فقد اندفع من بين الجالسين رجل طويل القامة مفتول الأعضاء مرفوع الرأس تدل هيئته على التهور والقوة ، يتمايل فى خطواته وهو يصيح صيحة سكرى ، حتى إذا ما بلغ الفتاة طوقها بذراعيه وأهوى عليها بقبلة معربدة ، ثم وقف أمامها يتمايل من أثر الشراب وهو باسط ذراعيه ويقول لها بلفظ متعثر : « أنت ساحرة » . وبرقت العيون من الدهشة ولم يهم أحد من موضعه كأن الجمع يشهد منظراً يريد أن يرى آخر مشاهده . ووقفت طليبة مذهولة لمدة لحظة ، ثم نظرت إلى الرجل ثائرة ورفعت رأسها وعلا صدرها مضطرباً وفى مثل لمح البصر رفعت يدها فصفعته ووقفت أمامه متحدية متنمرة .

وما كاد الناس يرون ذلك حتى عمهم الاضطراب ، وثاروا من مقاعدهم إذ أحسوا أن الأمر قد تحول إلى مأزق ، وارتد الرجل إلى الوراء مترنحاً يبتسم ابتسامة غل وقال لها :

— هرة وحشية !

ورفع يده إليها وما كاد يفعل حتى وثب معديكرب من مجلسه فدفعه

بجمع يديه وألقاه على الأرض ووقف ينتظر قيامه .

ووقف الناس سكوتاً فى خشية وعجب ينظرون إلى الأشخاص الثلاثة فى وسط الحلقة كأنهم يرون ملهاة . وقام الرجل كأنه ثعبان غاضب فاندفع نحو معديكرب وابتدأ بينهما صراع عنيف يشبه أن يكون قتالا للموت . ومرت ساعة قصيرة تردد فيها الفوز بين الخصمين ، وكانت طليبة تضع منديلا بين أسنانها وتنظر إليهما فى لهفة . وفيما كان الجمع ممسكاً لأنفاسه على أثر دفعة شديدة ألقى بها معديكرب خصمه على الأرض ، قام الرجل حانياً جسمه إلى الأرض مطرقاً فى حقد يختلس نظرة ثائرة إلى خصمه وهو مكشر عن أنيابه ، وصرخ صرخة عالية وفى يمينه خنجر مسلول . ووضعت طليبة منديلها على وجهها فى فزع ، وهمهم الناس سخطاً ، وارتد معديكرب إلى الوراء خطوات وهو يرى السلاح الخائن يلمع نحوه مهدداً ، ولكن خطوات الرجل لم تكن ثابتة فاستطاع الفتى أن ينفلت إلى جانب وجمع قوته فى ضربة حانقة فتزعزع الرجل واضطرب ، وانتزع معديكرب الخنجر من يده وقذف به تحت قدميه ووقف ينظر إليه متحدياً .

واعتدل الرجل منكسراً ولكنه قال فى حقد وهو يلهج :

ـ سوف تعرف أيها الفتى جزاءك .

فقال معديكرب باسماً فى سخرية : نلتقى إذا أفقت .

فقال الرجل حانقاً :

ـ ومن تكون يا بائع التمر ؟ من تكون حتى يلقاك نفيل بن حبيب ؟

فقال الفتى فى صرخة مكتومة : نفيل بن حبيب ؟

فقال الرجل فى مباهاة : نعم نفيل بن حبيب ، فأفزع فى صحوك وفى نومك فلن تنجو طويلا :

ثم تحرك منصرفاً .

وصمت الفتى لحظة ينظر إليه فى هدوء ثم قال : تمهل يا نفيل بن حبيب ، فما كنت أحسب أن نلتقى على مثل هذا .

فنظر الرجل إليه فى كراهة وقال : ماذا قلت ؟

فقال الفتى فى صوت خافت :

ــ أما تذكر إذ بعثت إلىّ لألقاك فى شعب غمان ؟

فصرخ نفيل وهو مضطرب بين السخط والعجب قائلا : أنت ؟

فقال الفتى فى صوت متردد : نعم أنا سيف .

فوقف الرجل مبهوتاً ينظر إليه حائراً ثم انفرج فمه عن بسمة ضئيلة وقال : كأنى أرى أبا مرة .

وكان فى صوته بقية من حنقه .

وقال سيف فى نغمة تشبه الرجاء : لحديثنا بقية يا نفيل .

فطوح الرجل قامته الطويلة قائلا :

ــ لا تكون هنا .

* * *

وسار نفيل مسرعاً وسيف يلحق به حتى خرجا ، والجمع الداهش ينظر صامتاً فى أثرهما ، كأنها قطعة من ألاعيب الملهى قد دبرت وأحكم

تدبيرها . وبقيت طليبة فى موقفها حيناً وهى مشدوهة ثائرة الأنفاس تشخص ببصرها إلى حيث انصرف الحصان . ثم مالت على الخنجر الملقى على الأرض فأخذته وأسرعت تجرى نحو خبائها ، حتى إذا ما صارت وراء الستر ألقت بنفسها على أريكة واستخرطت فى البكاء .

وسار نفيل وسيف بعد خروجهما يسرعان الخطا فى صمت لا يسأل أحدهما إلى أين . وكان ضوء القمر الذى أوشك أن يكتمل يفيض على الفضاء الرملى الذى يحف بالخيام المتراصة ، وأنوار المصابيح تخفق بينها خافتة كأنها يراعات تسنح ثم تختفى . وعرج نفيل نحو ربوة منعزلة فصعد فيها لا يلتفت إلى ورائه وسيف يسائل نفسه ماذا عساه يفاتحه به ، وماذا يمكن أن يقع بينهما بعد ذلك التحول السريع الذي نزعهما من النزال العنيف . والتفت نفيل إلى سيف عندما بلغ رأس الربوة ، واستقبل وجهه بنظرة طويلة وأشعة القمر المائلة تسطع عليه ، ثم وضع يديه على عضديه قائلا : أى فتى لو قتلتك ؟

وكان فى صوته هزة كأنه صياد يتأمل شاباً من الوعول ويعجب بمحاسن أعضائه .

فتبسم سيف هادئاً وقال :

ــ ولو قتلتك لفاتتنى بقية حديث أود سماعه .

وكان فى صوته نغمة من التحدى .

فقال نفيل وهو يرفع يديه عن الفتى :

ــ أى أقدار تجمعنا هنا ؛ ما زالت هذه الأقدار تعابثنى ولا تبالى

أين تلقى عبثها . هكذا ألقت بأبيك يوماً فى سبيلى .

فقال سيف فى اهتمام :

ـ أكنت تعرفه ؟

وانصرف نفيل عنه كأنه لم يسمعه ، فذهب إلى صخرة ناتئة فى الربوة وكان ما يزال يترنح سكراً وجلس قائلا :

ـ أحس دبيب السن يا فتى . كنت لا أنهج فى النزال هكذا . أتعرف هذه الفتاة من قبل ؟

فقال سيف فى غير اهتمام :

ـ أظننى رأيتها .

وقال نفيل :

ـ كأنك معجب بها .

فعجب سيف أن يسأله الرجل عن الفتاة فى مثل ذلك الموقف وأجاب فى خبث : أظننى كذلك .

ونظر إليه كما ينظر إلى باب مغلق يريد أن يعرف ما وراءه وقال :

ـ كيف كنت مع أبى مرة ؟

فلمعت عينا الرجل وتحسس منطقته وقال فى حنق :

ـ يا للشيطان أين خنجرى ؟ وحق مناة إن لك مع الأقدار شأناً .

فقال سيف ساخراً :

ـ لقد نسيت خنجرك هناك .

فقال نفيل فى كراهة :

ـ سقطة أخرى . أنت لا تضمر غدراً .

فقال سيف باسماً :

ـ نحن فى الشهر الحرام يا أبا حبيب . ولكن ما لنا نتحدث هكذا . هذه أول مرة ألقاك فيها وكنت أود لو رأيتك قبل هذا .

فقال الرجل فى جفاء :

ـ اجلس أيها الفتى حتى أجمع نفسى فى حديثك .

وكان صوته الأجش ينم عن نفس متحركة . وجلس سيف مستنداً إلى صخرة ، والرجل يتبع حركته فى اهتمام ثم قال له بعد لحظة :

ـ لم تكن هذه المرة أول مرة رأيت فيها الهواء يقطر دماً .

وكانت الخمر ما تزال تفور فى صوته وتفوح فى أنفاسه . ومضى يقول :

ـ إذاً فأنت تحبها يابن ذى يزن . لو علمت أنك ابنه كنت أسمع صوتاً يصيح بى : اضرب . اقتل . بغير أن أعرف . ولو عرفت . . . . ويل لشيطان الجحيم ! ما شعرت فى حياتى خزياً كما شعرت الليلة . وأمامها ؟ أمام تلك الهرة الوحشية ؟ هكذا شعرت يوماً منذ عشرين عاماً عندما كان ينازلنى شاب مثلك وكنت أنا شاباً كذلك . كان كل منا يريد أن يفوز بها . ألست تقول أيضاً إنك تحبها ؟ دع هذا الحديث فإنه يحرج صدرى . ويل للشيطان فإنه تخلى عنى مرة ثانية ووجدت يدى ترتعش بالخنجر كما اهتزت من قبل .

وضحك ضحكة مرعبة ، ثم وضع مرفقيه على ركبتيه وأسند بهما رأسه حيناً ثم رفعه قائلا :

ـ لست أبالى أيها الفتى ما تظن بى ، فلست مخموراً كما قد تحسب . ولم تدركنى بعد الشيخوخة كما قد يذهب ظنك . إن نفسى هى التى خانتنى هذه المرة أيضاً . كانت تقف من ورائك ، ولو رميت خنجرى فلم يصبك لوقع فى صدرها هى . كنت أريد أن أبقى عليها حتى أغمد خنجرى فى صدرها عمداً وهى ترتعد فى قبضة يدى .

وكان سيف ينصت إليه وهو بين العجب والازدراء . أهذا نفيل ابن حبيب ؟

ومضى الرجل قائلا :

ـ لا تسخر منى أيها الفتى فى سرك وإن كنت لا أبالى سخريتك ، فإنى مستعد لمنازلتك مرة أخرى أمامها وإن كنت لا أريد قتلك . كان خنجرى تحت قدميك ولم ترده إلى صدرى . قل ما شئت فى سرك فإن كرهى لك أشد من حقدى القديم على أبيك . بل إنى أمقتك وأمقتها ، ولو كان خنجرى معى الآن لقذفته عليك ولم أخش أن يقع فى صدرها . أنت شاب فى ربيع الحياة وأنا شيخ فى الخمسين . أليس هذا ما تقوله لنفسك ؟ كان أبوك يشبهك أو أنت تشبهه فى هذا الرونق الذى أراه عليك ، ولهذا فاز على فى المنافسة . لست فى حاجة إلى التوسل عند النساء بجاه ولا بمال يابن ذى يزن . أعرفتك طليبة ؟ لم أر من هذه الهرة الوحشية من قبل نفوراً كما رأيت الليلة . أذلك لأنك كنت هناك ؟

ووقف فجأة كأنه يريد أن يستأنف القتال ، ولكن الفتى لم يتحرك بل نظر نحوه ثابتاً يترقب حركته . وعاد الرجل إلى الجلوس فى عنف

وأسند رأسه على يديه وانفجر باكياً .

وامتلأ قلب سيف شعوراً بالخيبة يشوبه شعور آخر من الرثاء . كان يتمنى أن يعثر يوماً بنفيل بن حبيب الذي يتحدثون عنه فى كل واد كما يتحدثون عن بطل أسطورة . ولكنه رآه آخر الأمر مخموراً يسخر من سنه كأنما هو أحد صعاليك الخلعاء لا شيخ فرسان خثعم ، ثم ينتهى به الأمر إلى أن يخلط ذلك التخليط فى أقواله ويتهالك فى ختامها باكياً كأنه طفل أو فتاة بائسة . أهذا نفيل بن حبيب ؟

ولم يدر أينصرف عنه فيكون ذلك آخر العهد به أم يبقى حتى يرى المهزلة إلى ختامها ، ورفع الرجل رأسه بطيئاً ومسح عينيه وقال فى صوت كسيف :

ـ ماذا كنت تقول لى آنفاً ؟ أظنك سألتنى عن أبى مرة .

ونظر سيف إليه وهو يحس نحوه انجذاباً يشبه انجذاب من يرى أعجوبة ثم قال له :

ـ نعم سألتك عن أبى وتحدثت لى عنه .

فوضع نفيل يده على جبينه ثم قال :

ـ لا شك أنك كرهت ما قلته لك . كلهم يكرهون ما أقول إذا استولت الخمر على لبى ، أما أنا فلا أذكر شيئاً سوى خيال غامض من صور متفرقة . إنى أعتذر إليك يا سيف مما لست أعرف ، فإنى لا أذكر ما قلته لك . لست أدرى ما ذلك الذى يتلبس بى إذا سكرت .

وكان صوته عند ذلك صافياً ونظرات عينيه هادئة واكتسى وجهه مسحة من سماحة . ثم اتكأ على مرفقيه شاخصاً ببصره إلى الأفق الأغبش وقال كالحالم :

— هى أيام مضت وتباعد العهد بها ، أتأملها فى هذه الساعة كما أتأمل صورة صاحب سايرته حيناً فى مفازة ، ثم ثرت به فى ساعة لعبت فيها الخمر برأسى فقتلته ودفنته فى الرمال وخلفته وراء ظهرى لا يعرف مقره أحد غيرى . فإذا ذكرته يوماً ملأ الأسف قلبى وشعرت بالجريمة ، فلا أجد مفرًّا منها إلا بأن أنسى . لست أحب أن أكذبك وحسبى ما كان منى . عرفت أبا مرة منذ كنا شابين نتنافس على ما يتنافس الشباب عليه . وكان أبرع منى فى الرماية والفروسية وأقوى منى فى المصارعة والمسابقة . وكان فوق ذلك أحب إلى الفتيات منى . ولست أحب أن أطيل عليك فإن قلبى كان يتقد منه غيرة ، لأن فتاتى تعلقت به وإن كان هو متعلقاً بابنة عمه . لم يكن له ذنب سوى أنها أحبته وكان ذلك كافياً ، فلم يقف بى الحقد عند غاية ولم أتورع عن شىء فى منافستى . وأقبلت على الخمر فى شراهة وحنق ، وعرفت بين الناس بأننى عربيد لا تؤمن وثبتى إذا أخذ الشراب منى . اقترب منى يا سيف فإننى إذا أعليت صوتى شعرت بقشعريرة ؛ ويخيل إلىّ أن أشباحاً ترقص فى ضوء القمر . كم قتلت من الناس فى هذه الثورات بغير وعى منى ، حتى ملنى الصديق وتبرأت منى عشيرتى من خشية ما أجره عليها من جرائرى .

وانحدرت إلى هوة عميقة مع خنجرى الذى رأيته . كم قذفت به إلى صدر عدوى وكنت أحس نشوة من الفرح كلما أصاب قلباً ، كأننى صائد يحس السرور عند ما يصيب صيداً . لم يخن ذلك الخنجر إلا مرتين وهذه الليلة إحداهما ، أما الأخرى فكانت عندما كنا نحارب

أبرهة . كان أبوك عائداً من موقعة منصورة وأوقدت النيران ونحرت الإبل ودارت علينا الخمر احتفاء بالبطل الظافر . ووجدت نفسى أكثر من الشراب ، وكانت النيران تلتهب فى صدرى من الحقد . فلما أخذ الشراب منى عربدت عليه – على أبى مرة – فى أقوال لا أذكر منها حرفاً . وانقلب السامر إلى منازلة عنيفة وقذفته بخنجرى رمية كادت تخترق صدره ، ولكن يدى خانتنى . وكانت تلك الليلة فاتحة الهاوية . أتسمع يا سيف ؟ تخلى عنى قومى ولم أجد لى صديقاً وشعرت بوحشة زادت قلبى غليلا ، فانقلبت على قومى ، وساعدت أبرهة ، أتسمع قولى ؟

وكان سيف يكبح نفسه قسراً . ومضى نفيل قائلا :

– وانتصر أبرهة فشعرت بشيء يشبه السعادة عندما عدت إلى قومى سيداً على رغم أنوفهم . وعرفت أن أباك جرح فى المعركة وتسلل هارباً فى الليل يهيم على وجهه . فالتهب الفرح فى قلبى .

ثم تبين لى بعد قليل أننى صرت عبد أبرهة . نعم عرفت أننى بعت حريتى بحقدى . فاستعنت على النسيان بالخمر أعب منها حتى أنسى . ولكن قلبى كان ينطوى على حقد آخر من عبوديتى لأبرهة . فأطلق السكر أقوالى تفوح بما فى نفسى .

فلما ذهبت إليه يوم عزم على الخروج إلى مكة . . .

وضحك ضحكة جشاء حتى ظن سيف أنه يعود إلى تخليطه . ولكنه قال فى هدوء :

– قلب لى أبرهة ظهر العداوة وخاطبنى كما ينبغى للعبد أن يخاطب .

وخرجت من عنده وأنا عازم على استرداد حريتى . ولكن . . . ولكن قومى لم ينسوا . أتسمع ؟ تخلوا عنى وتركونى فى المعركة مع حفنة من عشيرتى أمام جنود أبرهة . ونجوت بنفسى من حراب الحبشة بأعجوبة ، وتسللت فى الليل أحس المطاردة من ورائى .

ثم وقعت أسيراً ، وذهبوا بى إلى أبرهة — وهناك وجدت زميلا استسلم قبلى ، أتسمع عن ذى نفر ؟ كان الشيخ يحسب أن مناة تنصره ، فلما رأيته هناك عاد حب الحياة يملأ نفسى . ولست أدرى أأنا الذى خدعت أبرهة أم هو الذى خدعنى . فاستنجدت بالشيطان ورضيت أن أعود عبداً لأبرهة ، وأكون دليله أدبر له المكائد فى حرب قريش .

ولما بلغت مكة ورأيت الكعبة تحت بصرى صاح قلبى قائلا : « اضرب ودمر واقتل » . وتمنيت لو رأيت الكعبة ذليلة محطمة وقد نقضت من أساسها حجراً حجراً . وتصورت ذل قريش أمام أبرهة ، وتصورت ذا نفر عندما تقع عينه على أصنام مناة واللات والعزى معفرة فى الرمال ، والتهب صدرى شماتة . كان كل العرب أعدائى لأنهم جميعاً يتخاون عنى .

ثم رأيت رجلا لم أر مثله فى حياتى ؛ رجلا شعرت عندما لقيته كأننى طفل إلى جنب أبيه . لم أكن أومن بشىء من تلك الآلهة الصماء . ولم يكن فى صدرى مودة لأحد ، ومع ذلك حدثت الأعجوبة . ألم تسمع بعبد المطلب بن هاشم ؟

فقال سيف : بلى يا نفيل . وأظنه منا .

فقال نفيل ضاحكاً : تقصد أن أمه خزرجية ؟ إنها قرابة بعيدة لم

أذكرها . ولكنه فتح قلبي بصوته العميق عندما رحب بي قائلا : « يا ولدى ! » ولم يقل لى « أيها الخائن » . وأخذ بيدى وطاف بالكعبة وجعل يحدثنى قائلا : « يابن أخى » .

وأطرق نفيل حيناً كأنه ينتظر حتى تهدأ نفسه ، ثم استأنف قائلا :

– وقال لى الشيخ : أحقاً جئت مع هؤلاء لتهدموا الكعبة ؟

فقلت له متحدياً :

– هى كومة من حجارة .

فقال الشيخ :

– وما بقاء العرب إذا انتصر أبرهة على قريش ؟

فقلت له :

– أتهلك نفسك وقومك ؟

فقال الشيخ فى حدة :

– وإذا لم نهلك اليوم أما نهلك غداً ؟ وماذا ينتظرنا إذا لم نهلك ؟ أليست هى العبودية ؟ لا يانفيل . ما هكذا ينبغى لك أن تقول . بل قل إن العبودية شر من الهلاك .

ووقعت كلماته فى قلبى كأنها أسنة حراب لا وخزات لوم. وانصرفت إلى نفسى أنظر إليها مكشوفة ، فإذا هى نفس عبد آثر الحقد والحياة على الحرية والكرامة ، وتواريت عن نظرات الشيخ وهو ينتظر إجابتى ، حتى قال فى صوته الضخم :

– عد إلى أبرهة يا نفيل وقل له جوابى .

فقلت له فى دفعة : بل أبقى ها هنا . سأبقى مع قريش . سأحارب معكم يا أبا عبد الله لعلى أقتل فى المعركة . سأحارب من أجل هذه الكعبة وإن كنت لا أومن بآلهتها .

فقال الشيخ : لسنا نحارب من أجل الكعبة ولا من أجل الآلهة . ولسنا نعبد الحجارة كما يزعم أبرهة . أترى العلم فى المعركة يا نفيل ؟ أيعبد حامله الخرقة التى فى يده ؟ هكذا نحن مع هذه الكعبة التى بناها آباؤنا . إنما هى علم العرب الذى يجتمعون تحته . وما هذه الآلهة إلا رموزاً لما نقدس من التراث الذى انحدر إلينا من أجيال أجدادنا . ليست اللات ولا العزى ولا مناة ولا أوال ولا غيرها من هذه الآلهة الكثيرة سوى رموز تتجسد فيها أرواحنا ، ويتمثل فيها إيماننا . نحن نخلقها لنتمثل فيها ما نحب وما نخشى . فابق معنا إن شئت أو اذهب إلى أبرهة إذا شئت فلن يجيبك القوم هنا إلا بما قلت لك . ليس عندنا إلا الجهاد حتى تحكم الأقدار بيننا .

فقمت إلى الشيخ وقبلت يده وعرفت أننى فى حضرة زعيم .

وأحس سيف نحو نفيل رحمة خالصة . وقال فى حماسة :

– وحاربت مع قريش ؟

فقال نفيل :

– حاربت كمن يريد أن يغسل ذنوبه . حاربت كالمنبوذ الذى يوعد قلباً يأوى إليه . وعقدت لأبرهة عقدة لا يستطيع جنى أن يحلها . أنا الذى حفرت له الحفرة التى تردى فيها .

وكان ينطق بحماسة فيها غضب وفى صوته رنين الاستعلاء .

ـ وسكت لحظة ثم قال فى مرارة الخيبة :

ـ كنت أحسب أننى غسلت أدران الماضى فأعود إلى قومى ويعودون إلىّ . بل لقد بعثت إليك ـ إليك أنت يابن ذى يزن ـ لأضع يدى فى يدك . ولكن قومى لم ينسوا ولم يفتحوا لى قلوبهم فى شعب غيمان .

فصاح سيف : يوم بعثت إلى ؟

فقال الرجل : نعم يوم بعثت إليك . وكنت أنتظرك عندما جاءت جنود يكسوم مع حناطة الحميرى . ولقيت جند يكسوم كما لقيت جند أبرهة مع حفنة من عشيرتى .

وضحك ضحكة أخرى مفزعة ثم قال : تخلى قومى عنى مرة أخرى .

فقال سيف حزيناً وأسر أبو عاصم ؟

فقال نفيل : ألم يحمل إليك رسالتى ؟

فقال سيف : لم أره إلا فى أغلاله بين يدى حناطة .

فقال نفيل فى حزن أهذا هو الحديث الذى أردته ؟ هذا أنا ترانى أهيم على وجهى لا أجد مخلصاً إلا فى هذه الخمر التى تمكن الشيطان منى ، وهذه المعرات التى ألطخ بها شيبى .

فقال سيف : ألك فى خطة أخرى ؟

فقال نفيل : هيهات !

فقال سيف : بل تهب نفسك للحياة يا أبا حبيب . هب ما بقى لك من حياتك لغاية أسمى مقصداً وأكرم مورداً . هبها لما هو أكبر

من كرامة نفسك ومن حرية شخصك . هب نفسك للجهاد من أجل بلادك .

فقال فى حزن : هيهات يا ولدى . إنها آثام أكبر من التوبة وأعمق من المغفرة .

فقال سيف : ليس من الآثام ما هو أكبر من التوبة والمغفرة . انظر إلى أعماق نفسك تجد علة الشقاء . إنك تنتظر الجزاء دائماً . فاحمل نفسك مرة على العطاء بغير أن تتوقع الثواب . تحمل المشقة بغير أن تتمنى الجزاء . هناك سعادة أكبر من الجزاء ومن الثواب ، وهى سعادة من يعرف أنه يجاهد ويشقى فى سبيل غاية نبيلة . أتعرف أين أبى ؟

فأجاب : أظنه عند كسرى . أظنه هناك ما يزال يأمل أن يعود يوماً . إنه هناك يعرف أن أبرهة هلك وأن يكسوم يوشك أن يهلك .

فصاح سيف : أحقاً ؟

فقال نفيل : لم أكن لأنسى ثأرى .

وقال كأنه يحدث نفسه : العطاء والجزاء ، والحرمان والجهاد . ماذا تقول يا سيف ؟

وكان سيف منذ سمع بنبأ يكسوم غاب فى سبحة بعيدة إلى غمدان . أيهلك يكسوم حقاً ؟ ومسروق ؟ أهو الذى يلقاه عند باب القصر إذا عاد إليه ؟

وقال عندما تنبه إلى سؤال نفيل : ماذا تقول يا أبا حبيب ؟

فقال نفيل : أعيد ألفاظك التى نقطت بها . كأنك تبعث الأمل إلى نفسى .

فقال سيف : أتسير معى ؟

فقال نفيل : إلى أين ؟ لست أحب أن أغرر بك فى هذه اللحظة يا ولدى. إننى أحدثك فى هذه الساعة ولست أدرى ماذا أقول لك فى بكرة الصباح.

فقال سيف : ماذا كنت تفعل لو قتل أبوك ظلماً .

فقال نفيل : كما يفعل الناس يا سيف .

فقال سيف : ألست تقسم ألا تذوق خمراً ولا تقترب من امرأة حتى تدرك ثأرك ؟

فعلق نفيل بصره فى وجه الفتى لحظة ثم قال :

ــ استمع إلىّ يا سيف . إننى أعرف من ضميرى ما لا تعرف . ولكنى سأبذل جهدى ، وأضرع إليك أن تضع سيفك فى صدرى إذا وجدت ضميرى يخوننى .

سأسير معك يا سيف . وآليت لا أشرب خمراً ولا أقرب امرأة حتى أكفر عن آثامى . آليت أن أضع يدى فى يدك وأن أحمى ظهرك وأفديك بنفسى حتى أبلغ عذرى

أتقسم أنت يا سيف ؟

فقال سيف : علام أقسم ؟

فقال الرجل : أن تضع سيفك فى صدرى إذا لمحت منى غدراً .

فقال سيف : لن تغدر يا أبا حبيب ، ولن أضع سيفى فى صدرك أبداً .

فقام الرجل يمد يده إليه فى حماسة وشكر .

وكان القمر ينحدر إلى الغرب بطيئاً متعباً كئيباً عندما نزل الرجلان

عن الربوة يقصدان نحو الخيام المظلمة . وذهب أحدهما إلى اليسار والآخر إلى اليمين يقصدان منزليهما ، وكانا فى طرفى السوق من جانبيها المتقابلين. وتواعدا على اللقاء أول شىء فى الصباح .

١٧

قال الراوى :

أخذ سيف يسير بطيئاً من جانب الفضاء حتى لا يتعثر بين الخيام فى الظلمة ، وكانت السرادقات العالية تحجب نور القمر الهابط ، فكان لا يكاد يتبين ما أمامه . وكانت أفكاره ما تزال تضطرب بصور الليلة الصاخبة — حانة النبطى وطليبة والجمع المخمور والخنجر الخائن ونفيل ابن حبيب وأى رجل ذلك الرجل الذى كان يتطلع إلى رؤيته فى يوم من الأيام ! أى رجل يجمع من أسرار الطبيعة أضدادها ! الرجل الذى لا يعرف عدلاً ولا اعتدالا ولا يؤمن بإله ولا بإنسان ولا يطمئن فى صداقة ولا عداوة . بل الذى لا يطمئن إلى نفسه فى يمين آلى بها على نفسه ؟ أيريده أن يغمد سيفه فى صدره إذا هو حنث فى يمينه ؟ وخيل إليه أنه يحس قشعريرة فى جسمه كأنه يرى كائناً لم تنجبه الطبيعة . ثم خيل إليه أنه سمع صرخة مثل نعيب بومة ، كأنها صرخة جريح وقع خنجر فى صدره . ورفع بصره يقلبه فى الفضاء الأغبش الذى يمسحه الضوء الخافت ، وكان السكون عميقاً والهواء ساكناً لو رف فيه جناح خفاش

لتردد له صدى . ثم عاد الصوت يقطع الصمت كأنه أنين مكروب يعانى خوفاً فى أعقاب مأساة خفية يكتمها . وبدا له شبح يقطع صفحة السماء وهو يتعثر فى الرمال خائراً ويقلع خطواته مترنحاً . فثبت فى مكانه يراقب الشيخ فى دهشة . أهى امرأة ؟

كانت حقًا امرأة تنطق حركتها بالذعر والثورة ، ويبرق فى يدها شيء كأنه سلاح . فأسرع ذاهباً إليها يدفعه شعور قوى ،أنه خيال قصة دامية . ولما خرج من ظل الخيام ووقعت عليه لفتة المرأة المذعورة سمع صرخة مكتومة ، ورآها تجرى هاربة وأقدامها تغوص بها ثقيلة . ثم خارت قواها ووقعت فلم تحاول النهوض وبقيت فى مكانها تنظر إليه خامدة ، وتقاربت أصوات أنينها المكتوم الممتد . ولما صار على خطوتين منها جمع صورتها فى نظرة ، وقال فى صيحة ذاهلة : أنت ؟

وكانت طليبة تنظر إليه مكشرة عن أسنانها وعيناها تلمعان فى الضوء الضئيل بحدقتين واسعتين يتمثل فيهما الرعب والتحدى . كانت مثل جريحة لا تستطيع حراكا . ولما استطاعت أن تميز وجهه قامت تتساقط حتى وقفت وتبدلت صورتها من الذعر اليائس إلى الاستسلام، وتهانفت باكية تقول فى صوت متقطع :

ــ أأنت هنا ؟ ألم يقتلك ؟

واقتربت منه وسقط الخنجر من يدها فانغرز فى الرمل قائماً .

وقال سيف لها   ماذا صنعت ؟

فقالت وهى تلمسه بيدها : أنت هذا حقًا ألمسك بيدى .

وتهالكت على الأرض تقول فى صرخاتها المكتومة :

ــ قتلته . قتلته بخنجره ثم جريت أبحث عن جثتك . حسبته قتلك .

وكانت تنتفض مكبة بوجهها إلى الأرض ، تسند رأسها بذراعها . ومرت على سيف لحظات طويلة خيل إليه فى أثنائها كأن الوجود استحال إلى هباء لا يرى فيه ولا يسمع شيئاً . ثم أخذ الموقف المحزن يتجلى له . فها هو ذا خنجر نفيل مغروز فى الرمل وهذه البائسة ترتجف تحت قدميه . أتسخرها الأقدار فى هذه اللحظة لكى تنفذ مشيئة ؟ أهذه النمرة الوحشية تعرف الندم والحزن حتى تبكى هكذا فى حرقة تهز جسمها ؟ وتمثل له نفيل وهو يمد إليه يده مصافحاً ، كان المسكين ينظر إليه بعينين ضارعتين كأنه يستنجد به على نفسه . أفى هذه الليلة يقتل نفيل ؟ وغمره حزن شديد كأنه فقد صديقاً عزيزاً !

وقال فى صوت مهتز

ــ ماذا فعلت أيتها البائسة ؟

وأخذها من يدها فأقامها ومال على الخنجر فغاص به فى الرمل حتى دفنه . هكذا حلت الأقدار العقدة بضربة حاسمة قطعت تلافيفها وانتهت حياة نفيل . ماذا فعلتْ هذه البائسة المجرمة ؟ هذه الهرة الوحشية ؟ أهى مجرمة فى شرعة الحياة المطلقة من قيود الأخلاق ومن عرف البشر ؟ كيف ينظر وحش الفلاة إلى قطة وحشية حملها الذعر على أن تنقض على زميل فى الفلاة وتنشب فيه أظفارها وأسنانها ؟ كان نفيل مثلها ذئباً أو ضبعاً أو سبعاً يشق طريقه فى الأرض معترفاً بشرعة الحياة المطلقة .

كان يهـــاجم ويدفع ويراوغ ويفر ثم يكر ويتربص ويثب عندما يتمكن ، فإذا انتصر ومزق فريسته أطلق نفسه فى فرحة ضارية يستمتع فيها بنشوة النصر لا يفكر فى رحمة ولا عدالة . وسار بالفتاة متجهاً إلى منزله وأحس يدها المرتجفة تشتد فى قبضته متعلقة مستأنسة، وتقترب إلى ذراعه حتى أحس دفء جسمها . وكانت تسايره غير متعثرة ولا تجرر قدميها . أذهب عنها ذعر الجريمة ؟ أم كانت هزة المعركة ثم انجلت عنها ؟ وبلغ منزله وهو لا يهتدى إلى رأى فيما يظنه عدلا فى جزاء فعلتها . وكانت خيامه قائمة على نشز صلب من الأرض وفى وسطها فناء واسع تكدست فيه طرود شتى ، ومن ورائها فضاء فيه مرابط الخيل والرواحل . ولم يجد أحداً من أصحابه هناك ، وكأنه أحس ارتياحاً لذلك ولكنه مع ذلك عجب إذ يبطئ أصحابه عن العودة إلى مثل تلك الساعة .

وقالت طليبة وقد فطنت إلى دهشته :

– ذهبوا يبحثون عنك كما ذهبت أنا . أو لعلهم ذهبوا يبحثون عن جثتك عندما قلت لهم إن الرجل لا بد قاتلك . لم يره أحدهم فى ركن من السوق بعد أن جاسوا خلالها .

فقال سيف : وكيف وجدته أنت ؟

فقالت : ذهبت إلى منزله . نعم ذهبت إليه فقد كنت أعرفه أيها الفتى . لست أعبأ بما تظن . هم يشتهون وأنا أغوى وهم يسخروننى لمتعتهم وأنا أسخرهم وأتمتع برؤية قلقهم ، وتزيد متعتى كلما رأيت قلقهم يشتد

عندما يعودون بالخيبة .

ونظرت إليه كأنها فى موقف إغراء . ثم عبست وحولت عنه عينيها كامرأة تستلهم طبيعتها . ثم قالت فجأة :

ـ لمَ جئت بى إلى هنا ؟ دعنى أذهب إلى الحانة لأقضى سائر ليلتى أرقص وحدى وأشرب حتى يطلع الصباح . سأرقص وأرقص حتى أعيا وأشرب حتى لا أعى . فغداً لا رقص ولا شراب ، وسيعلم الجميع أنى قتلت نفيل بن حبيب . غداً يمزقوننى إرباً إرباً ، ولكنى سأكون مخمورة .

ثم ضحكت حتى ظن سيف أنها لا تمسك عن الضحك ، وأحس اشمئزازاً كأنه حقاً أمام أنثى من الوحش .

وفى مثل لمحة البصر وثبت وثبة فتعلقت فى عنقه بيديها ، وألقت رأسها على صدره وجعلت تنشج منتفضة .

ومضت لحظة لم يدر سيف كيف يصف شعوره فيها ، ولم يعرف ما تكون حركتها المقبلة ، كأنما هى هرة وحشية حقاً .

ثم انفلتت منه فى وثبة أخرى وأخذت تعدو على الرمال متعثرة ، فاندفع سيف وراءها وأمسك بها قائلا :

ـ قفى هنا .

ثم ألقاها كما يلقى حشرة ، فلم تحاول مقاومة . وعاد إلى الخيام فأتى بفرسين عليهما عدة السفر وعاد إليها فقال :

ـ أتركبين ؟

فوثبت خفيفة بغير أن تجيب ، وسارت معه فى صمت حتى

بعدا عن مضارب الخيام واتجها نحو الشمال . وكان القمر يميل إلى الأفق ، لا يزيد على حلقة حمراء خابية ، والسكون لا يقطعه صوت حشرة . وعلا صوت حوافر الفرسين بعد قليل ، فارتاح سيف إلى أنه خرج إلى أرض صلبة ، لا يستطيع أحد أن يتبع أثرهما فيها .

ولكن قلبه كان كئيباً لفراق أصدقائه الذين ساروا وراءه فى فجاج الأرض حتى جاءوا معه إلى عكاظ ، وشاركوه فى هذه الأعوام مخاطر المعارك التى خاضها على البر وفى البحر ، يقفون إلى جنبه ويحمون ظهره فى المآزق أهكذا يفارقهم بغير وداع ويسير مع امرأة راقصة؟أهكذا تحل الأقدار العقد التى يعقدها البشر بضربة واحدة قاطعة؟

وسار الراكبان فى صمت وكل منهما يهيم فى عالمه؛ كان كلاهما يضرب فى الأرض شريداً وحيداً . وسأل سيف نفسه : « أية دفعة هذه التى جعلته يفعل ما فعل ؟ لمَ أسرع وراءها حتى أدركها ؟ أهى جرفة أخرى ينساق فيها منهزماً مع الحقائق عندما يصطدم بها ؟ وخطرت له صورة أمه ، ثم خيلاء . ماذا تقول ريحانة إذا رأته يسير مع هذه المرأة التى قتلت رجلا من الأشراف فى الشهر الحرام ؟ وماذا تقول خيلاء لو خطر لها أنه يخرج فى الليل هكذا مع مثل طليبة ؟ أيخطر لها ذلك ؟ ونظر إلى طليبة وكانت تسير هادئة إلى جنبه كأنها اعتادت كل حياتها أن تصاحبه . أكانت تريد أن تعود إلى الحانة لترقص حتى تعيا وتشرب حتى لا تعى ثم تنتظر قضاءها ؟ وكأن الفتاة أحست بما يجول فى صدره فصرخت صرخة فزع مكتومة ، كأنها رأت جلاديها يقبلون نحوها .

وكان نور الفجر يطل رويداً رويداً من المشرق ، والنسيم الندى يرف من الشمال فى وجهيهما . وانحدرت الهضبة إلى واد فسيح معشب فيه نخلات تلوح فى الجانب الآخر هادئة وسنى . ونظر سيف إلى وجه الفتاة وكان لونه المصفر يخلع عليه رقة لم يرها عليه من قبل . المسكينة ؛ وهمز فرسه نحو النخيل وكانت الشمس تبعث أشعتها الأولى إلى السحب المتبرجة كما تفعل دائماً .

ونزلا فى جانب النخلات التى تقبع فى فجوة إلى جانب الوادى ، تحتضنها الصخور من ورائها وتنفرج منها إلى منبسط أصفر من طمى ناعم فيه شقوق واسعة لطول عهده بالأمطار ، وتنبت فيه أشجار من السيال والسنط وأنواع من شجيرات شوكية وصبير . وكانت أعراش الحنظل تمتد خضراء يانعة كأنها رويت منذ ساعة ، وتتعلق بها ثمارها الموشاة بالنقوش مستظلة بأوراقها . وخطرت لسيف صورة خيلاء فى ملابسها البيض وهى مطرقة فى هودجها تصلى ولا تلتفت إليه . أما كان فى مثل هذا الركن الضيق مثوى سعيد لهما ؟ ولكنها آثرت أن تذهب إلى الدير ولا تخرج معه فى ظلمة الليل . أيخطر لها وهى هناك أنه فى تلك الساعة ينزل مع فتاة مثل طليبة فى جانب واد معشب وسط الصحراء ؟ أم نسيته وانصرفت بكل قلبها إلى الصورة التى اختارتها ؟ ماذا تقول خيلاء لو رأتهما هناك ؟

ونظر إلى طليبة وهى تأخذ مجلسها مستندة إلى الجدار الصخرى ، وتمد رجليها ثم تغلق عينيها كما يلقى المسافر المجهد عصاه ويطلب الراحة .

أنسيت كل ما مضى ؟ أهى لا تسأله عما يكون بعد ساعة ؟ إنها تستجيب إلى حاجة الساعة التى هى فيها كما يستجيب كل أمثالها من ضوارى الفلاة .

وذهب إلى ناحية من جانب الوادى فاستلقى مستنداً برأسه إلى صخرة ولكنه لم يغمض عينيه . فماذا يقول أصحابه غداً ؟ وماذا يقول أهل عكاظ من شتى القبائل عندما يرون جثة نفيل بن حبيب ؟ لن يظن أحد أن الفتاة الراقصة قتلته ، بل ستذهب كل الظنون إليه هو . ألم يخرج معه علانية من الحانة ثم يغادر عكاظ فى ظلام الليل هارباً بالفتاة التى نازل ابن حبيب من أجلها ؟ ولكن ماذا كان يستطيع أن يفعل ؟ أكان يبقى فى عكاظ ليشهد عذاب الفتاة حتى تموت قطعة قطعة ؟ كانت طليبة أمة ، وما كان لها إلا أن تجد عقاب الأمة التى تقتل سيداً من الأحرار . أمة ؟ أمة مثل خيلاء ؟

مسكينة خيلاء ! هى الأخرى ذهبت إلى الدير لأنها أمة . ولو كانت مثل هذه الراقصة الشيطانة لاستطاعت أن تغمد خنجرها فى قلب يكسوم ، ولكنها لا تستطيع أبداً أن تسير فى ظلام الليل مستسلمة هادئة ، ولا أن تغمض عينيها هكذا فى ركن صخرى من الصحراء كما تفعل هذه الأخرى . وكان النوم يمسح على ملامح طليبة ويزيل عنها كل أثر من العنف ، فتمثلت له فى صورة طفلة سعيدة . أهى طليبة حقاً ؟ هى الحياة التى عنفت عليها وجعلت منها الراقصة الشيطانة التى تلمع عيناها فى ثورة ويرتد رأسها إلى الوراء متحدياً ولا تبالى أى قضاء ينتظرها . وقام ينظر إليها فرأى تمثال حسناء ناعسة . بل هى

حسناء بائسة ، قاست فى حياتها الكوارث والمآزق ، وعرفت العنف فى أعنف مآتيه والبؤس فى أبعد مهاويه . هى التى تقوى على صحبته وهو يضرب فى القفر مقاتلا مستيئسًا يتعرض فى كل خطوة لصراع الموت والحياة. ألا ما كان أشبه ملامحها بخيلاء! وكأنه أحس فى قلبه حركة نحوها.

وفتحت الفتاة عينيها كأنها أحست وقع نظراته . وقالت باسمة :

– أليس معنا طعام ؟

فذهب يلتمس شيئاً مما حمله معه فى الحقيبة وكانت الشمس تسطع صاعدة فى السماء على الوادى الخالى .

وتبسم سيف فى شىء يشبه السخرية عندما أدرك الحقائق التى تحيط به. لقد صدقت ريحانة عندما قالت له إنه يعيش فى الخيال ويصطدم بالحقائق وينجرف معها .

* * *

وتقاذفت بهما الصحراء، وكانت طليبة امرأة طليقة كالوعل أو الذئبة أو كالقطاة أو أنثى الصقر ، لا تعرف قيداً إلا ما تحتمه عليها الطبيعة . كانت تجوع فتطلب الطعام ، وتلتمسه أنى وجدته ، وتحس البرد فترتعد ، والحر فتطلب الظل ، وتحب فتهب حياتها للحب ، وتكره فلا تبالى أين تندفع مع كراهتها . كانت لا تعترف بالناس لأنها لم تعرف نفسها سوى بضاعة ، يملكها الناس كما يملكون الرواحل التى تحملهم ثم يذبحونها . لم تحس يوماً أنها إنسانة فى جماعة من الناس . كانت سلعة توهب أو تباع وتشترى ، أو داجنة تقتل إذا بدا لمالكها أن يقتلها .

واتخذها الناس متعة فرأت نفسها قينة ترقص وتغنى . لم تعرف القيود ولم تكن بها حاجة إلى القيود التى يقيد الحرائر بها أنفسهن . وماذا يجديها أن تقيد نفسها وقد أخرجها الناس من حدود العرف والشرائع والأخلاق . لم تكن تعرف الإحسان أو الإساءة ولا الخير أو الشر والفضيلة أو الرذيلة ، ولم ينتظر منها أحد أن تعرف من ذلك شيئاً . كان الحرائر ينزلن عن حرية الطبيعة لكى يفزن بحرية المجتمع ، فماذا يحملها على النزول عن الحرية التى تهبها لها الطبيعة ؟ كانت وهى إنسانة تنظر إلى الناس كأنهم من عالم غير عالمها . كانت الطبيعة هى التى توحى إليها وترقص فيها . ترقص مرحاً أو حزناً، وترقص حبًّا أو كرهاً ، وترقص أمناً أو خوفاً . كانت ترقص بكل خلجة من خلجات نفسها . ولهذا كانت حياة الصحراء أقرب إلى طبيعتها .

ومضى عليها الخريف والشتاء وسيف يضرب بها فى الأرض كأنهما آدم وحواء . لم يطلب سيف منها شيئاً ولم تطلب منه شيئاً ، بل كانا يتقاسمان ما يجدان معاً ، ويطلبان ما يريدان معاً . وكان سيف لا يجد مشقة فى النزول بأحياء العرب يحتمى بجوارهم قبيلة بعد أخرى ، لأنهم كانوا جميعاً يعرفون سيف بن ذى يزن . وكان فى كل يوم من تلك الأشهر التى مرت به فى شعاب الصحراء يرى لوناً جديداً من محاسن طليبة . لم ير منها فى أول عهده بها إلا رونق شبابها ، ولم يحس منها سوى أنفاس حواء . ثم بدأت دقائق حسنها تتكشف له واحدة بعد أخرى . حاجباها الدقيقان ، وعيناها الواسعتان ، وفمها الحساس، وأنفها البديع .

وكلما تأمل محاسنها تذكر خيلاء . ألاما أقساها من ذكرى ! كان أحياناً ينطوى على نفسه بعد نظرة منها ويقضى ساعات طويلة فى كآبة ، ولكن طليبة كانت لا تعبأ أن تقول له فى أثناء ذلك كلمة . كانت هى كذلك تنطوى على نفسها ساعات فلا تحب أن يقول أحد لها كلمة . وهذا الخدان الأسيلان اللذان أشربتهما شمس الصحراء سمرة الخمر المعتقة ، وهاتان اليدان اللطيفتان البضتان وأناملها الرخصة المستوية الدقيقة ، وذلك القوام اللين الذى يخطر خفيفاً فوق قدمين صغيرتين خلقتا لكى ترقصا رشيقتين . وكانت تلك المحاسن تبدو له فى ألوان شتّى ، إذا تنفس الفجر وإذا سطع ضوء الشمس وإذا احتجبت أضواؤها خلف السحاب وإذا أظلم الليل ولاح شخصها فى ضوء النجوم الخافت ، وإذا غمرها القمر فى الليالى الزاهرة . أكانت خيلاء تستطيع أن تسير معه هكذا ولا تسأله إلى أين يسير بها ؟ أكانت تصادم الليل والنّهار معه هكذا لا تعبأ أين يطلع عليهما الصباح التالى ؟

وانتهى بهما المسير إلى جبل أوارة من أطراف نجد فيما يلى العراق ، فأقاما هناك فى جوار بنى تميم . وكان سيف يتحسس المواضع فى سيره البطىء كأنه يقصد إلى قصد ، وإن كان قصده ماثلا أمام عينيه فى كل لحظة . أيستطيع أن يدرك أباه وهو عند باب كسرى ؟ أما زال أبوه يحزن من أجل زوجه ريحانة وولده سيف ؟ أيعرف أنها ولدت لأبرهة؟أمات يكسوم حقًّا ؟ فمن يلقاه إذن عندما يعود إلى صنعاء؟ أهو أخوه مسروق؟

وكان أوارة الأجرد يشرف عابساً على مروج خضراء باسمة خلفتها

الأمطار التى توالت غزيرة فى شتاءين متعاقبين. وكانت بطون الصخر ملأى بالمياه الصافية، وقيعان الأودية ما تزال تلمع بجداولها المتعرجة. فأقام سيف هناك يستجم أياماً قبل أن يثب المرحلة الأخيرة إلى الحيرة، ليلقى بها الملك عمرو بن المنذر. وكان فى مقامه بأرض تميم يتطلع إلى اليوم الذى يبلغ فيه المدائن، فلا شك أن عمرو بن المنذر اليمنى يعينه على بلوغ باب كسرى. بل هو جدير بأن يغضب معه لليمن وما أصابها من ذل الحبشة لأنه كان يمنياً من قبل أبيه اللخمى ومن قبل أمه هند بنت الحارث بن عمرو الكندى.

ولكنه وهو يوشك أن يغادر الصحراء كان يتمسك بالأيام الباقية كما يتمسك الظمآن ببقية ماء بارد فى كأسه. كانت الصحراء تغمره شعوراً بالحياة، ولا تقيم بينه وبين نفسه حجاباً، ولا تختلس من إحساسه شيئاً من المتعة التى يعب منها مع طليبة.

كان يحيا هناك فى كل لحظة من أيامه ولياليه، يحيا فى أنفاسه وفى عطر الصحراء الوحشى الذى يتنافح إلى شمه، وفى الأصباح والأماسى وفى محاورة الوعول فوق الهضاب، وفى استقبال طليبة إذا آب من الصيد، وفى عبير شعرها الذى لا يمسه الطيب، وفى غصنها الرطيب ونغم صوتها إذا كركرت ضاحكة أو ترنمت بأغنية، بل فى نومه العميق الذى لا يتخلله حلم.

وجلس ليلة مع طليبة عند النار بعد عودته من الصيد، يجهزان معاً عشاءهما وهى تحدثه بين ضحكاتها عما لقيت فى يومها عند مورد الماء، إذ انقطع حبل دلوها فقضت نصف يومها تفتل حبلا جديداً وتصنع من جلد الماعز دلواً لا يكاد يمسك المـــاء.

وحدثته عن كلبها الضارى الذى كان يدع الغنم وحدها ليلحق بأرنب تسنح له ثم يعود خائباً غاضباً . ولما نضجت القدر وفاحت ريح الشواء كان عشاؤهما شهيًّا ، وأخذ سيف يصف فى مرح حوادث يومه الصغيرة .

وقالت طليبة فى غير مبالاة :

ـ أعرفت أن القوم عزموا على الرحيل ؟

فقال سيف فى دهشة : الرحيل ؟

فقالت هادئة : أنذروا بغارة من عمرو بن هند ؟

فقال فى دفعة : أتحجبين هذا الخبر عنى منذ عودتى ؟

فقالت ضاحكة أأقوله وأنا جائعة ؟

وقام يلقى رداءه على كتفه ، فقالت : إلى أين ؟

فقال : إلى حاجب بن زرارة .

وكان حاجب سيد بنى تميم بعد موت أبيه زرارة صاحب عمرو بن هند وكان لا يكاد يفارقه ، حتى لقد أمنه على ولده أسعد بن عمرو ليقوم على تنشئته بالبادية . وكان أسعد يلعب يوماً بقوس فرمى ناقة فى ضرعها ، فجاء صاحبها التميمى وعدا عليه فقتله ثم هرب . فأسرّ الملك غضبته على تميم إعظاماً لصاحبه زرارة حتى إذا مات وجه جيشه إليهم ليقتص ممن قتل ولده.

ولكن حاجب بن زرارة لم يكن هناك ، لأنه ارتحل منذ الصباح يضرب فى الصحراء هرباً من جيش عمرو بن هند . وكانت خيبة سيف عظيمة عندما عاد إلى طليبة يؤذنها بالرحيل من أوارة . وسار فى تلك الليلة بقلب ثقيل على درب العراق لا يدرى كيف يصل إلى كسرى .

١٨

قال الراوي :

خرج الناس ألوفاً يتزاحمون فى طرق المدائن عاصمة بلاد فارس ينتظرون خروج كسرى أنوشروان العظيم من قصره ، ذاهباً إلى الميدان الأعظم الذى حشدت فيه الجيوش للعرض المنتظر . وكان فى الميدان منصة عالية عليها بسط بديعة الصناعة ، ذات نقوش زاهية من صور الزهر والطير وصنوف الحيوان والوحش ، أو مناظر فرسان يطاردون الصيد ، والظباء الحائرة تعدو فى ذعر ؛ والسباع تفترس الأبقار الوحشية . وبثت فوق البسط وسائد من الحرير ذات ألوان شتى عليها نقوش بخيوط الذهب والفضة . وكان قائد الجيش الأعظم بابك بن البيروان يتكئ على المنصة فى لباسه الحربى الفخم ، تزينه حلية من الجوهر والذهب . وكانت الجموع المحتشـــدة تتجه بأبصارها نحو الطريق التى تهبط من ناحية القصر الملكى تتطلع لرؤية كسرى مقبلا فى موكبه ، ليعرض نفسه على القائد الأعظم على أنه الجندى الأول الذى يضرب المثل لطاعة الجندى لقائده . وكانت الجموع أخلاطاً من فرس وكرد وعرب ومن أهل خراسان وسجستان وفرغانة ومن الترك والديلم والكرج ، يقفون جماعات وفرادى يتحدثون فى لغات شتى تشهد باتساع دولة كسرى .

وكان سيف واقفاً بين الناس إلى جوار شيخ عربى يلبس ثياب الفرس ، ووجهه ينطق بالقلق الذى يساوره.

وقال سيف : أترى يخرج كسرى اليوم يا أبا عدى ، أم نعود بالخيبة كما عدنا فى اليومين السابقين ؟

فقال الشيخ : لا أحسبه يتخلف اليوم ، فإن القائد يأبى إلا أن يكون كسرى أول من يعرض نفسه . إنه بابك بن البيروان وهذا شرطه أن يقبل القيادة .

فقال سيف : أحس قلبى يتقد يا أبا عدى ، والأيام تمر بى كما مرت بأبى . لم تبق لى إلا هذه الفرصة فإما أن أنجح وإما أن أختصر انتظارى . أأبقى على باب كسرى حتى أموت يائساً مثل أبى ؟

فقال الشيخ متردداً : لا أظنك تستطيع أن تقترب منه يا ولدى .

فقال سيف : وماذا أبالى ؟ سوف ألقى بنفسى نحوه وأقتحم هذه الجموع ..

فأمسك الشيخ بذراعه قائلا : ليس لك من سبيل إلى كسرى إلا أن يساعدك عمرو بن هند ؟

فقال سيف : سأجعل هذا آخر طوافى . أيقتلوننى ؟ إنه أحب إلى ...

وظهرت طلائع الموكب فقطع سيف قوله وتطاول بعنقه . وكانت الفيلة تسير فى الصدر عليها سروج حمر منقوشة وحلية من الفضة فوق رؤوسها وحول أعناقها . ثم أتت بعدها فرقة من الفرسان على جياد رشيقة ، وتسير صفوفاً كل منها فى لون من الملابس . وكانوا جميعاً فى سلاح

كامل – درع وجوشن وساقان من النحاس وسيف ورمح وترس ومنطقة وطبرزين وعمود وجعبة فيها قوسان بوتريهما وثلاثون نشابة ووتران مضفوران معلقان فى المغفر من وراء .

وكان كسرى على جواد أبيض له سرج من الحرير الأحمر ، وعليه حلية من الذهب والجواهر . وأما هو فكان فى لباس الجنود ويحمل سلاحهم . وكان الناس يخشعون له إذا مر بهم وينحنون إجلالا فيما يشبه السجود وغشى الميدان صمت رهيب .

وصاح المنادى قائلا : سيد الكماة كسرى !

وتقدم كسرى نحو المنصة بجواده فاستعرض للقائد الأكبر الذى كان متكئاً على الأريكة . وعلا صوت بابلك قائلا :

– إنك أيها الملك مثال لرعيتك فى تقدير العدل الذى لا محاباة فيه ولا هوادة . فهلم إلى كل ما يلزم الجندى من صنوف الأسلحة فاعرضها علىّ واحداً فواحداً .

فأخذ كسرى يشير إليها على ترتيبها . فقال الشيخ القائد :

– أين الوتران من وراء المغفر ؟

فبادر كسرى فتناول وترين وعلقهما وراء مغفره .

وصاح المنادى : الكمى سيد الكماة كسرى ! أربعة آلاف درهم عطاء ممتازاً .

وعلت صيحة إعجاب من الجموع عند ما سار كسرى يشق الميدان .

وهمس سيف عندما اقترب الملك من موضعه : « انظر يا أبا عدى إلى وجهه » .

وكانت لحيته البيضاء تحيط بوجه ينطق جلالا وقوة وهدوءاً .

واستمر سيف : إن وجهه ينم عن نبل .

وهمس الشيخ : انحن يا ولدى حتى لا تثور الشكوك فينا .

فقال سيف : إنه يقترب .

وكان أول الموكب يمر ولم يبق بين الملك وبين سيف إلا خطوات ، فاندفع فجأة واخترق الصفوف حتى وقف فى صدر الجمع وصاح قائلا : أيها الملك العظيم !

ورن صوته فى الصمت العميق ، فالتفت الناس إليه وعقدت الدهشة الألسنة ، وخفق قلب الشيخ وهو يرى الحراس يبادرون إلى سيف بسيوفهم . وجذب الملك عنان فرسه وقال بصوت جهورى :

— دعوه فليقترب منى .

وانفرجت حلقة الحراس وأخذ رئيسهم بذراع الشاب متقدماً نحو الملك وانحنى إجلالا .

وقال الملك : سلوه ماذا يريد .

ولم يفهم سيف ما قال ولكنه أدرك من هيئته أنه غير غاضب .

فقال فى خشوع : لى عند الملك مظلمة . لى عندك دين .

فقال الملك : أما من يفهم لسان هذا ؟

فتقدم أبو عدى يصيح من بين الجمع بالفارسية :

ـ عبدك يا مولاى يعرف لسانه .

وانفرجت له الصفوف حتى انحنى أمام الملك قائلا :

ـ إنه يقول قولا جريئاً يا صاحب العرش .

فقال الملك فى دفعة :

ـ قله حرفاً حرفاً .

فقال الشيخ :

ـ يقول إن له عندك مظلمة . له عندك دين .

فلاحت بسمة هادئة على وجه الملك الشيخ وقال :

ـ إنه مضطر يخاطر بنفسه . سله عن دينه أيها الشيخ وله عندى الوفاء إن صدق .

فقال أبو عدى لسيف متظاهراً بالجفاء :

ـ الملك العظيم يسألك عن الدين الذى لك .

فقال سيف :

ـ أفى هذا الجمع ؟ ما ينبغى أن يسمعنى غير كسرى العظيم .

ونقل الشيخ قوله فقال الملك :

ـ ما اسم الفتى ؟

ولما سمع اسمه قال فى صوت خافت :

ـ ذو يزن ! ذو يزن ! كأننى أذكر هذا الاسم .

وبسط سيف ذراعيه قائلا : أنت مثل قطر السماء أيها الملك تروى الجبال والسهول ، ويعم فضلك القريب والبعيد . لا تصرف وجهك

عنى وافتح لى بابك حتى أطالبك بديني . بوعدك لأبى .

ولما نقل الشيخ قوله اتسعت بسمة الملك وقال :

ــ إنها حيلة أريب . إن له لشأناً .

والتفت إلى كبير حراسه قائلا : خذه بالرفق حتى أراه إذا عدت .

وسار الموكب بين ضجيج الجموع بالدعاء للملك العظيم الذى يقف للأجنبى الضعيف ويستمع إلى شكواه ويأذن له فى المثول بين يديه .

* * *

ولما صار سيف أمام الملك اتجه إليه باسماً وقال على لسان ترجمانه :

ــ لقد جئت تطلب دينك .

فقال سيف :

ــ عفواً أيها الملك فإن الناس يتحدثون فى كل مكان عن كرمك وعدلك ورحمتك . والمضطر يركب الصعب وهو عالم بركوبه .

فقال كسرى :

ــ أأمنت أن يقتلك جندى ؟

فقال سيف :

ــ الهلاك أهون ما يخاطر به مثلى .

فقال كسرى : كأننى أسمع صوتاً أعرفه . أعد على اسمك يا فتى .

فقال سيف : ابن أبى مرة ذى يزن .

فصمت كسرى لحظة ثم قال لترجمانه :

ــ ألا تذكر هذا الاسم يا وهرز .

فقال الترجمان الشيخ : أظنه صاحب القصيدة يا مولاى .

فعاد كسري إلى الصمت لحظة ثم قال فجأة :

– ذكرته يا وهرز . لقد صدقت يا فتى . كان لأبيك دين فى عنقى . قل له يا وهرز إننى منجز وعدى .

وأشار بيده فأخذ كبير الحراس بيد سيف مترفقاً حتى خرج به من الإيوان ، وسيف يحس أنه لم يبلغ بعد مما أراد شيئاً . كانت كلمة قصيرة . ثم صرف من حضرة الملك ولم يسمع منه قولا . وخرج وهو يحس كأن الأرض تنهار من تحت قدميه ، حتى وقف بالباب مع مئات من طلاب الإذن وأصحاب الحاجات . وخيل إليه أن قلبه يدمى . أهذا كل مبلغ أبيه عند كسرى ؟ رجل أرسل إليه قصيدة ؟ وضحك فى نفسه ضحكة مرة وهو ينظر إلى الجموع الأنيقة التى تنتظر بالباب . أهكذا كان أبوه يقف كل يوم طوال السنين ؟ وكان الناس يتحدث بعضهم إلى بعض وعيونهم تنزلق نحو حجاب الباب الذين يدخلون إلى الإيوان ويخرجون منه . كان كل منهم يتربص بفرصة يفوز فيها من أحدهم بكلمة ، ثم يطأطئ رأسه احتراماً وينصرف بغير أن ينظر الحاجب إليه . أهكذا كان أبو مرة ينحنى ؟ ألا شد ما لقى ! وبدت له حياته كلها باطلة تافهة وأن ميتة فى معركة مجهولة فى بطن فلاة لا يعرف أحد من أسرارها شيئاً خير من أن تمتد به الأيام على مثل هذا . وسمع صوتاً ينادى باسمه ، فإذا حاجب يقلب نظرة هائمة فى الوجوه ويقول « ذو يزن » . فتحرك سيف مسرعاً وذهب إليه متلهفاً .

أيكون كسرى قد بعث إليه ليستمع إلى بقية حديثه ؟ وذهب به الحاجب إلىحجرة فسيحة ذات نقوش بديعة تغطى جدرانها وسقفها ، وعلى جوانبها قطع من سلاح وتحف شتى . وكان فى صدرها مجلس أنيق عليه بسط ووسائد والشيخ وهرز يستقبله باسماً . ونسى سيف فى دهشته أن يُحيى حتى انحنى الحاجب نحو الأرض ، فأومأ سيف بانحناءة وكان وجه وهرز مجعداً تعترضه أسارير عميقة تتخللها جراح ، وشعره الأبيض يتوج رأسه ويطل من حاجبيه البارزين فوق عينيه ، ونظر إليه سيف فى إعجاب صامتاً . وقال وهرز :

– لقد أعجبت الملك العظيم يا فتى . وها هو ذا دينك .

ثم أشار إلى الحاجب فحمل كيساً ضخماً كان على الأريكة فقدمه إلى سيف . وفتح سيف عينيه فى دهشة ونظر إلى الحاجب ثم إلى الشيخ قائلا :

– أى دين هذا ؟

فقال وهرز فى ارتياح :

– هذه جائزة أبياتك .

ومد سيف يده إلى الحاجب فحمل الصرة الثقيلة فى شىء من العنف ، ولم يقف لحظة ليقول كلمة ، وكان يحس فى صدره مرجلا يوشك أن ينفجر . ألهذا جاء إلى كسرى ؟

وخرج من الباب حتى صار بين الجمع الذى ما زال يتهامس فى البهو ، ثم ألقى بالحمل الثقيل على الأرض ، وأكب عليه يفتحه فى حنق .

ثم ضحك ضحكة جشاء وهو يدس يده فى الكيس ويقبض قبضة ثم يصبها فيه ثانية . وصاح :

– إنه ذهب ! إنه ذهب يبهر الأنظار المتطلعة .

وتعالت منه صيحات مجنونة قائلا :

– أيها الناس المتزاحمون هنا . إنه ذهب . فخذوا !

وأخذ يقبض القبضة منه وينثرها لا يبالى أين تتساقط . ومضى فى صيحاته :

– أيها الأنذال البواسل الذين يتطاحنون من أجل الذهب ، خذوا ! إنه ذهب أيها العظماء الأذلاء ، خذوا ! أيها العبيد السادة ، أيها السادة العبيد خذوا ! إنه ذهب . أيها الذين تبيعون أنفسكم، خذوا ! إنه ذهب . ها هو ذا الذهب أيها الحكماء الحمق، وأيها الجشعون المهذبون، وأيها الأوغال الظرفاء . خذوا جميعاً ، هذا هو الذهب فاملأوا به عيونكم وأسعدوا به عبوديتكم .

ووقف الناس يستمعون إليه ولا يفهمون ما يقول وزاحم كثير منهم على الذهب المنثور فى دفعة شرهة وجعلوا يلتقطون ما يتساقط منه فى ضجيج وعنف ، حتى أفرغ سيف ما فى الصرة ووقف يتأمل الصراع العنيف من أجله وضحكته المضطربة ترن فوق ضجتهم العالية .

وخرج من البهو كالأعمى يتصادم بالأقدام والصدور ، حتى صار خارج القصر ، ثم وقف يتأمل الطريق لا يدرى أين يتجه . وإذا صيحة تعلو من ورائه فى أصوات مختلفة وألفاظ لم يفهم منها شيئاً سوى أنها

حانقة ، وامتدت إليه أيدى حراس القصر تعود به فى غلظة نحو الإيوان ، حتى وجد نفسه أمام كسرى . وكان ينظر إليه عابساً وقال له على لسان وهرز :

ـ ماذا فعلت أيها البائس بجائزة الملك ؟

وأحس سيف كأنه خرج من مأزق واستعاد الأمل بعد أن كاد ييأس . فماذا يفعل به كسرى ؟ أيقتله ؟

وقال هادئاً : وماذا أصنع بها أيها الملك ؟

فقال الملك فى دهشة : ألم يكن ذهباً ؟

فاندفع سيف قائلا : كم من فقير يتلوى فى هذه الساعة من الجوع أيها الملك ، ولو وقعت فى يده منه قطعة لطلعت عليه السعادة . ولكم تزاحم الواقفون عند بابك عندما نثرته عليهم وامتلأوا به غبطة .

فقال الملك غاضباً : أتسخر أيها الأعرابى ؟

فقال سيف : عفواً أيها الملك ، إنك تملأ الأرض بعظمتك وحكمتك ولا يمكن أن تسمو إليك سخرية . ولكنى لم أقصد بابك من أجل الذهب . فلو شئت ذهباً لوجدته فى معادن الأرض تراباً خسيساً ، تطؤه الإبل فى سيرها فى الصحراء . فقطعة من الحديد خير عندى من هذا الذهب ، لأنى أتخذ منها سيفاً أضرب به عدوى أو درعاً تحمى صدرى ، أو لجاماً أمسك به جوادى ، أو مسماراً أدقه فى سفينة .

فقال الملك : أنت تحرج صدرى بثرثرتك . فيم جئت إذا

لم تكن طالب جائزة ؟ فيم جاء أبوك هنا ؟

فقال سيف : لم يجئ أبى من بلاده يطلب جائزة أيها الملك العظيم ولست أعرف أنه يقول الشعر ، ولكنه إذا قال شعراً فذلك لكى يستعطف قلبك على غاية أسمى .

فقال الملك فى جفاء : كان ذلك من سنين طويلة وأظن أمك لم تخبرك بهذا أيها الفتى .

وتحرك قلقاً .

فقال سيف : أمى ريحانة بنت ذى جدن سليلة بيت تبع ملك اليمن ، ولم يكن أبى شاعراً بل أميراً يطلب ملكاً . جاء إليك لأن الأحباش غلبوا على بلاده ونزع أبرهة زوجته . جاء إليك يطلب نصرك على الظلم وعونك على من يستعبدون الأحرار . وقد جئت لأجده فوجدته هلك عند بابك وهو ينتظر وعدك ! أليس هذا ديناً ؟ جئت إليك أطلب النصر لا الذهب ، وألتمس الشرف لا الغنى . إن فارساً واحداً من ذوى النجدة أسند إليه ظهرى فى القتال أحب إلى من كل ذهب الدنيا .

وكان سيف يتبع حركة وجه الملك وهو ينفرج من عبسته حتى بدا عليه الارتياح والسماح وقال له :

ـ تقرب أيها الفتى وقل ممن أنت .

فقال سيف : أنا ابن ذى يزن الحميرى . ليس لى مال ولكن قومى يعرفوننى . ولولا بطش الأحباش بالناس وإيقاع الفرقة بين سادة العرب وإفسادهم بالرشى لوقف الجميع ورائى .

فقال الملك : الأحباش ؟

فأجاب سيف : نعم الأحباش . هؤلاء الأحباش الذين أذلوا عز اليمن وأزالوا مجدها . فهلا نصرتنى أيها الملك فتكون إحدى حسناتك عند أمة تعرف الجميل ؟ إن كرمك وفضلك وعدلك تحملك على أن تنصر المظلوم وإن لم يستنصر بك ، فكيف وقد جئت إليك أناديك باسم أمة ؟

وسكت كسرى مفكراً ، ثم التفت إلى وهرز فحادثه حيناً قصيراً ثم التفت وهرز إلى سيف قائلا :

– سينظر الملك فى الأمر أيها الشاب فالزم بابه .

فقال سيف : ألم يفرغ الملك من النظر فى الأمر منذ وعد أبى ؟ لست أطلب نصره مبتدئاً ، بل أستنجز وعده . اليوم قبل الغد ، فإن الحبشة تمهد هناك لقيصر . هناك مضيق البحرين الذى يفضى بالسفن إلى الهند وسواحل الصين . وهناك الأودية التى قد تمد جنود الروم بما تشاء من الخيرات . وهناك فرسان العرب الذين يكونون عليك إن لم يكونوا معك .

وكان الملك ينصت إلى سيف فى دهشة وقال له :

– كم سنك يا سيف ؟

فقال : سنوات طويلة من الفكر والهم والحزن والحنق ، سنوات طويلة من المصادمة والمقاتلة والتشريد . عرفت الناس وما فيهم من ضعف وقوة ، وعرفت بعض نفسى أيها الملك ، وبعض ما أضمر من خير ومن شر . سنوات طويلة وإن شئت فقل سنوات عريضة ، تكشفت لى

الحياة خلالها عن أصدق ما فيها وأجمل ما فيها وأبشع ما فيها . هذه هى سنى أيها الملك الحكيم زادك الله حكمة .

فتبسم كسرى بغير تحفظ ، والتفت إلى وهرز فحادثه حديثاً آخر أطول من حديثه الأول ، وكان فى نبرات صوته حرارة .

وقال الشيخ : يقول لك الملك لا تبرح بابى حتّى يتخذ فى أمرك عزماً . لا تغب عن الباب غداً وبعد غد وما يلى ذلك حتّى يوفى لك دين أبيك .

وحيا سيف تحية شكر صادقة وخرج من الإيوان كأنه يسبح فى الهواء ، وأسرع إلى داره الصغيرة فى أرباض المدائن ، بجوار بيت الشيخ أبى عدى .

١٩

قال الراوى :

كان القمر يضىء الليلة التى تسبق المعركة بعد أن مضت أيام الهدنة العشرة التى جاد بها مسروق على الكتيبة الضئيلة التى جاءت من فارس تغرر بنفسها إلى شاطىء اليمن وتتحدى جيشه العظيم . وكان الشط الممتد على الساحل لا يزيد على شريط ضيق نزلت الكتيبة

الصغيرة على لسان منه يحيط به البحر من جوانبه ، وتطل عليه الهضبة الفسيحة منحدرة نحوه فى سفح صخرى تشقه أودية صغيرة . وكانت جوانب الأودية تبدو أمام صفحة السماء ضروساً مسنمة مثل أمواج تتلاطم عند شاطئ وعر .

وكان وهرز القائد الفارسى فى خيمته على ربوة فى الطرف الأقصى من المعسكر على الشط ، ينتظر الغد فى هدوء ولا يبدى شيئاً من القلق الذى كان يثقل قلوب جنوده . كان وجهه المجعد لا ينم عن حركة من جزع أو رجاء ، كأنه لم يفجع منذ يومين فى أعز أبنائه عليه « نوزاذ » . وكان جسمه الضخم ومنكباه العريضان وذراعاه اللتان يغطيهما الشعر الكثيف وصوته الجهورى العميق تجعل حوله هالة أسطورية ؛ كأنما هو أحد أبطال قصص رستم واسفنديار التى كان الناس يستمعون إلى إنشادها فى مواسم عدن وصنعاء وفرسان . وكان جبينه العريض تشقه خطوط من أخاديد وندوب جراح عميقة ، وشعره الأبيض يكلل رأسه ويصبغ شاربه الغزير وحاجبيه البارزين اللذين يتدليان على عينيه .

وكان سيف يقبع وحده فى خيمته والهواجس على عاداتها تتزاحم عليه كما لم يزدحم حوله جمع صاخب ، وكلما هم بالذهاب إلى الشيخ ليحدثه عن معركة الغد تردد ولم يجد فى نفسه جرأة . فماذا يقول له والمعركة تبدأ إذا طلع الصبح وليس معهما إلا سمائة جندى من الديلم ، هم بقية الجيش الصغير الذى بعث به كسرى لينصر أهل اليمن على الأحباش ؟ وكان يحسب أن قومه يسارعون إليه إذا ما سمعوا بمقدمه ،

ولكن رسله الذين بعثهم إلى أودية حمير لم يعودوا إليه ، وقد مضت الهدنة وستبدأ المعركة فى الصباح . فكان فى خيمته الصغيرة يجادل نفسه فى حنق وضيق يكادان يقذفان به إلى اليأس . أمن أجل هؤلاء الذين يدعونه ويستفزونه فى حماستهم الجوفاء يضرب فى الآفاق كل تلك السنين ؟ وهل من أجلهم قاسى ما قاسى من مخاطر البر والبحر ، فلما عاد يدعوهم كان جنود الحبشة أسرع منهم إليه ؟ وكان كلما رفع بصره إلى الهضبة الواسعة أحس قلبه يغوص فى جوفه ، إذ كانت عيناه لا تكادان تبلغان طرفى المعسكر الحبشى العظيم . وكانت حسرته تشتد كلما تذكر أن ذلك الجيش الذى جاء يحاربه كان يضم جموعاً من فرسان القبائل التى جاء يخلصها من الأحباش . وكلما تمثل معركة الصباح امتلأ قلبه غيظاً ، لأنه سيقف مع حفنة من جنود الديلم فى وجه هؤلاء الفرسان الذين كان يدعوهم قومه ، وقد جاءوا ليضربوا وجهه وليرجعوه بالخيبة . فلم يبق له إلا أن يقتحم صفوفهم حتى يشيط فى رماحهم ويختم حياة ضل بها الخيال .

وتذكر حديث كهف ينور وصاحبه الشيخ ، وعزيف الريح العاصفة التى كانت تدوى بين الجدران كأنها تعيد عليه نبوءة الساحرة ، وخيل إليه أن الهضبة التى تمتد من فوقه تثور بزوبعة ذات برق ورعد وسيل ، وأن من تحتها حشداً عظيماً من العقارب والأفاعى . أهذا كل ما تحقق له من النبوءة ؟ أهكذا غررت به الأوهام حتى عاد إلى أرض اليمن بعد تلك السنين المضطربة ليستمع إلى سخرية الحقائق ؟ وكان

الحنق على نفسه يتزايد كلما أوغل فى الفكر ، بل لقد أحس لأول مرة بشىء يشبه الحقد على صديقه الحكيم أبى عاصم ، وخيل إليه أنه شارك فى تضليله بتلك الأحاديث التى كان يحشوها بأوهام الشمس المشرقة وحكمة المقادير وكرامة الحياة . وتمثلت له اللعنة التى حدثته أمه عنها يوماً . فها هو ذا مرة أخرى يهيم فى الخيال ثم تجرفه الحقائق إلى حيث لا يدرى . وطن فى سمعه شىء يشبه وقع حوافر خيل على الأرض الصلبة . أتكون هذه رسله عادت إليه بالبشرى ؟ أم تكون طلائع قومه جاءوا يعتذرون عن تأخر أصحابهم ؟ وقام خارجاً يتطلع إلى السفوح المضرسة التى كانت تبدو أمامه بعيدة راكدة موحشة ، ولكنه لم يجد عليها شيئاً سوى الصخور الوعرة الناعسة .

وذهب وهو متردد إلى خيمة الشيخ « وهرز » ، يريد أن يهرب من الخلوة المزدحمة التى يضيق بها ، وكانت قبضة صدره تتزايد مع كل خطوة ، ويحس كأنه ارتكب جرماً مع الشيخ الباسل . ألم يقل له فى ثقة رعناء إنه سيبعث إلى قومه ولا يشك فى أنهم يأتون إليه سراعاً ؟ وكان وهرز وحده يضفر بيده أوتاراً من معى الوعول ، وقوسه إلى جنبه تعترض الخيمة من مدخلها إلى أقصاها ، وكانت من عود غليظ لم تقع عينه من قبل على مثلها .

ونظر إليه الشيخ من تحت حاجبيه المتهدلين وقال بصوته العميق :

ــ لم أرم بهذه القوس منذ سنوات .

وكان فى صوته هزة من يترقب نشوة مطربة .

وكاد سيف يقول له : « أحقـًّا نحارب غداً ؟ » لولا أن الشيخ وضع الوتر وقال فى شبه مرح :

ـ غداً أنتقم لولدي .

وتناول القوس وأخذ يفحصها بيديه الضخمتين ليستوثق من سلامتها ؛ ثم شد عليها الوتر وجعل يجذبه و يرسله فيصدر عنه هزيم عال متجاوب .

وقال سيف فى نفسه : أهكذا تحزن الآلهة على وحيدها ؟

ونظر إليه معجباً : ذلك الرجل الذى لم يتردد أن يسير فى مثل سنه فى جيش عدته ثمانمائة من الديلم ، ثم لم يجزع عندما غرقت منه سفينتان فى الرحلة ، عليهما مائتان من رجاله ، فلما نزل على الساحل القفر أحرق سفنه بما عليها من الأحمال حتى لا يترك فى أحد من جنوده ظلا من الأمل فى الارتداد ، ثم قال لرجاله: « ليس أمامنا سوى الانتصار أو الهلاك » . لم يسمعه سيف مرة يتأوه حزناً ، ولم يقل عندما عرف أن الأحباش قتلوا ولده إلا إنه لقى جزاء من يتعرض للأعداء فى مدة الهدنة .

وكان الشيخ منصرفاً إلى سهامه يسوى الريش عليها عندما هم سيف أن يقول له: « ألا نتستر بالظلام ونتسلل بين الأودية حتى يجتمع الناس إلينا ؟ » ، ولكنه لم ينطق بكلمة . ووضع الشيخ سهمـاً أمام عينه مبسوطاً ليرى صحة اعتداله ثم قال :

إنما هى جذبة واحدة أضع بها هذا السهم حيث أريد .

ثم لمس حاجبه قائلا :

– ليس يقلقنى إلا هذا الحاجب المتهدل يا سيف ، فإنه ينطبق على عينى فلا أستطيع أن أثبت نظرى كما أحب . أرنى هذه العمامة يا ولدى .

وحل سيف عمامته وذهب إليه باسماً وقال :

– هذا تاجى .

وتبسم الشيخ قائلا :

– سأثبته على حاجبى يا سيف لكى يثبت من بعد على جبينك . أراك تحسن لف العمامة فاعصب بها جبينى وحاجبى .

وكأنه عاد فتيًّا عندما أخفت العمامة تجاعيد جبينه ، وتحسسها بيده قائلا :

– هكذا أحارب غداً .

ووضع السهم فى كبد القوس وجذب الوتر فطاوعته فى بطء حين ملأ يده منها ، وسدد سهمه وسوى نظره عليه لحظة ثم قال :

– ليته الساعة تحت بصرى ! سأثأر غداً لولدى .

ثم أعاد القوس إلى استوائها وعضلات ذراعه تتقلص كمن يضع حملا ثقيلا . ثم أقبل على سهامه يسوى الريش عليها فى اهتمام .

وخيل إلى سيف مرة أخرى أنه يسمع وقع حوافر على سفح الهضبة ، فذهب يشتاف الفضاء ، وكانت السفوح الصخرية ما تزال هادئة تحت ضوء القمر إلا من جوادين يركضان فى عنف فى مسيل واد ضيق ، فأسرع نحوهما فى لهفة ، ولما رآه الفارسان وثبا نازلين .

فقال أولهما :

ـ الأودية تسيل برجالك وراء الهضبة .

فوثب قلب سيف وأسرع إلى وهرز كأنه يدخل صنعاء منتصراً . ورفع الشيخ بصره قائلاً :

ـ ها قد فرغت يا سيف ، ولم يزل فى الليلة بقية .

فقال سيف فى هزة :

ـ عاد رسلى !

وكان صوته ينم عن هزته .

فقال الشيخ هادئاً :

ـ لن يحول شىء بينى وبين ثأرى . أجاء قومك ؟

فقال سيف :

ـ هم وراء هذه الهضبة .

فقال الشيخ :

ـ هم هناك حيث ينبغى أن يكونوا . اذهب الساعة إليهم يا ولدى وتريث بهم إلى الصباح .

فقال سيف فى دهشة :

ـ أما كنا نتلهف فى انتظارهم ؟

فقال الشيخ بل هم هناك أنفع لنا . سأبدأ الحرب وحدى . لا تفوت علىّ ثأر ولدى . سأرمى أول نشابة لأبرد بها كبدى ، وسيرمى جنودى هؤلاء سهامهم من بعدى . فهذه السهام لا يعرفها أحد من

هذه الألوف الكثيرة التى وراء مسروق . سيرون سلاحاً يصيبهم بأيد لا يرونها كأن الشياطين تبعثها . فإذا ما وقع الرعب فى قلوبهم كان ذلك نصف النصر ، وسأبدأ الزحف بعد ذلك بجنودى . فإذا ما بدأت المعركة صعدت أنت بأصحابك من وراء الهضبة فتأخذونهم من خلفهم وتكون مفاجأة قاصمة .

وهكذا فرغ الشيخ من خطة القتال فى لحظة .

فقال سيف :

ـ أنحارب معاً والهضبة بيننا يا أبا نوزاذ ؟

فقال الشيخ :

ـ تلك خطة أخذتهاعنكم يا سيف. ما كنت أخشى فى حروبى إلا كمين العرب . ترقب من هنا صيحة تشبه عواء الذئاب .

ولما ركب سيف ذاهباً إلى قومه صافح الشيخ فى تأثر ، وكان يسأل نفسه وهو سائر كيف يشهد الشمس إذا أشرقت .

* * *

وطلع الفجر وكان البحر هادئاً وأمواجه تتقلب ناعسة ، وكان جيش الحبشة يطل من فوق الهضبة على الساحل الضيق الذى تعسكر عليه الكتيبة الصغيرة ، وبدأ يستعد للهبوط عليها كأنه الصخرة العاتية تتقلقل للهبوط .

وقال وهرز وهو قابض على قوسه :

ـ أعيدوا لف عمامتى فإن حاجبىّ يتهدلان ثانية .

ولما سويت العصابة على جبينه رفع رأسه قائلا :

– هكذا أبصر سهمى . فانظروا أين مسروق إذا بدأ زحفه .

وطلعت الشمس من وراء البحر فاترة ، وكان مسروق يسير فى طليعة الجيش على فيله الضخم وعليه حليته الثمينة ، وكانت الخيول تتواثب رشيقة من حوله فى نصف دائرة ، وتمتد من ورائه الصفوف إلى غير نهاية .

ووقفت كتيبة الديلم فى صف قصير تنتظر قائدها أن يرمى سهمه . وتردد جيش الحبشة حيناً حتى نزل الملك عن فيله واعتلى فرساً أدهم ، وكان على رأسه تاج يلمع بياقوتة حمراء فى شعاع شمس الصباح . فلما صار عند أول السفح جذب وهرز قوسه قسراً وسوى سهمه حتى أحكم تسديده ، ثم أرسله يسبح فى الفضاء كأنه يمد حبلا . فما هى إلا لحظة حتى اضطرب صف الفرسان الملتف حول مسروق .

فصاح الشيخ صيحة يكاد من يسمعها يحسب أنه ذئب جائع ، وعلت من ورائه صيحة من صف جنوده كأنها عواء قطيع من ذئاب . ثم رموا سهامهم فى الجمع الكثيف الذى أمامهم بغير حاجة إلى تسديد . فتزعزعت صفوف الحبشة وتصدعت جموع الأعراب ، حتى خيل إلى الشيخ أن العدو يتردد فى زحفه ويوشك أن يرتد . ولكنها لم تكن سوى هزة ، واستأنف الجيش الضخم سيره على السفح كما يتهاوى سيل من الحمم على جانب بركان .

وصاح وهرز صيحة أخرى مثل ذئب يعرس فى فريسته ، وعلت

من ورائها صيحة جنده ووقعت السهام مرة ثانية كدفعة من المطر الدافق . فتزعزعت الصفوف وتصدعت ، ولكن الجيش لم يلبث أن استجمع وبدأ ينحدر سريعاً .

وفى تلك اللحظة علت صيحة من وراء الهضبة ، وتدفقت جموع من الفرسان خلف صفوف الحبشة ، فتوقف انحدار السيل الجارف وتردد ، ثم استدار فى اضطراب ليلقى المفاجأة المفزعة .

وكان سيف فى درعه المعلمة يتقدم الفرسان ويضرب فى عنف كأنه يصدع جانباً من صخرة ، وأصحابه من ورائه ومن حوله يطحنون الصفوف المضطربة بسيوفهم ورماحهم وحوافر خيولهم ، فلم يلبث الجيش العظيم أن تصدع ، فذهبت قطع منه إلى اليمين وقطع أخرى إلى اليسار ، ثم اختلطت الخيول العربية بالفلول الحائرة ، وجعلت تحطم كل كتلة منها قطعاً . ومرت ساعة طويلة فى فوضى يحجبها غبار كثيف .

* * *

وعاد المطاردون آخر النهار ومعهم جموع من الأسرى وأكداس من الغنائم ، ولم يبق من أثر المعركة سوى حطام يغطى السفح بأشلاء جنود وخيل ، وقطع من سلاح ، ودماء متجمدة ، وخدوش فى الأرض ، وحجارة مبعثرة ؛ وكان مسروق مسجى بثيابه النفيسة المجوهرة تلوثها بقعة من دماء داكنة اللون . ومالت الشمس إلى رؤوس الجبال الجرداء ، والبحر ما يزال هادئاً كأنه بساط زبرجدى تتواثب أشعة الأصيل على رؤوس أمواجه الفاترة ، كأن لم تهلك دولة فى أثناء ذلك النهار .

واعتزل سيف على صخرة من الساحل يحس فى صدره قبضة ، كأن الملك لم يصبح بين يديه . لقد قتل حتى مل من القتل وأسال دماء أعدائه حتى كره منظر الدماء ، ورأى جثة أخيه معفرة فى الرمال ، وصدقت نبوءة الساحرة عليه ، كأن هزيم الرياح كان يتنبأ له بها فى كهف ينور . وها هو ذا جيشه المنتصر يضرب خيامه فوق الهضبة التى كان عليها جيش مسروق فى الصباح ، ولم يبق شىء يحول بينه وبين غمدان . ولكن صدره بقى ضيقاً ثقيلا لا ينعشه نسيم البحر ولا تستفزه نشوة الانتصار .

وقال فى نفسه : « مسكينة ريحانة ! فلعها فى تلك الساعة تجلس مطرقة فى شرفتها تنظر إلى الفضاء وتحدث نفسها كما كانت تحدثها دائماً عن قسوة الأمس والغد ، وهى تفكر فى ولديها اللذين يقفان وجهاً لوجه فى المعركة الصارمة . ولعلها فى تلك الساعة تسأل نفسها أى ولديها هلك وهى مفجوعة فى الحالين . أكانت تحسب عندما قالت له : " اذهب فى الأرض" أنه سيعود يوماً ليقاتل أخاه ؟ أكانت تتوقع أن يكسوم يهلك ويخلى بينها وبين المقادير لتسخر منها ؟

وهل يلقى خيلاء ؟ أهى هناك فى تلك الساعة فى دير نجران ؟ أيستطيع أن يعود إليها ويحدثها عن مغامراته ومصادفاته والمآزق التى وقف فيها حتى استطاع أن يظفر بالملك آخر الأمر ؟ وهل يقوى أن ينظر فى عينيها الصافيتين وصورة طليبة تتخايل أمامه دونها ؟ طليبة التى قتلت نفيل بن حبيب من أجله ، والتى كانت تستغرق

فى ضحكها وهى تعزم على العودة إلى الحانة لترقص حتى تعيا وتشرب حتى لا تعى ثم تنتظر قضاءها الفظيع ؟ أكان يجرؤ أن يطرد من حياته تلك الهرة الوحشية ويعود إلى خيلاء يسألها أن تعود إليه ليتنسم السلام من عندها ، ويعيش معها سائر حياته فى كذبة متصلة ؟ »

وأفاق من غمرة أفكاره على صوت الأبواق ودق الطبول مؤذنة بالسير إلى صنعاء .

٢٠

قال الراوى :

وجد سيف غمدان كما تركه منذ أربع سنوات . بستانه اليانع الذي لا يبخل بزهره لا يبالى أيِ عين تنظر إليه ، ولا يضن بعطره الزكى لا يبالى أى صدر يمتلئ منه . وكانت طبقاته السبع ما تزال شامخة بقبتها المرمرية التى تلمع فى ضوء الشمس مثل منارة على رأس جبل ، وكانت أبهاؤه على عهدها فسيحة أنيقة بأعمدتها الوردية وسقوفها المذهبة ونقوشها البديعة وآنيتها الفضية وتماثيلها الرائعة ، والأسود النحاسية الأربعة التى تزأر كلما هب الهواء فى أجوافها ، وعناقيد المصابيح المتدلية من السقوف كأنها قطع من زخارفها . كان كل ذلك كما تركه سيف ولم يتبدل فى القصر شىء سوى سيده .

وكان الوعاء المرمرى ما يزال على قاعدته الرشيقة الأبنوسية فى الركن الذى طالما سمع همسات نجواه مع خيلاء .

ولكن خيلاء لم تكن هناك تنتظره أو تحييه ببسمتها ، أو تعتب عليه بنظرتها ، أو تبادره قائلة فى دهشة : « أنت هنا ؟ » . ووقف سيف حيناً إلى جانب الوعاء المرمري وهو متجه إلى جناح أمه ريحانة .

وعادت إليه حرقته كيوم رأى خيلاء تخرجُ من صنعاء فى هودجها على طريق نجران . هى خيلاء التى لا يهتز قلبه إلى امرأة كما يهتز إليها أو إلى صورتها . كانت هى أمنيته الكبري قبل أن يلتقى به اليأس منها إلى أمنيته الأخرى : تحرير أمته . وها هو ذا قد عاد إلى غمدان ملكاً ، وها هو ذا شعبُ صنعاء يهتف بإسمه عند أبواب المدينة وعلى جانبى الطريق حتى تبعه إلى فناء القصر ، ولكنها لم تكن فرحته الكبرى . أما تجتمع له الأمنيتان معاً ؟

أما تعود خيلاء إليه وقد عصمها الدير من العبودية كما عصمه الجهاد من العبودية ؟ حرة تعود إلى حر . فأى ملك يصنعان معاً ؟

والشيخ المسكين أبو عاصم . أيجدونه حيـًا فى طباق القصر التى أمر سيف بإخراج نازليها التعساء ؟ وريحانة ؟ كيف يجدها بعد أن غاب عنها كل تلك السنوات ؟ وأسرع خطاه وقلبه يخفق ، وسأل نفسه كيف يكون لقاؤها . أيأخذها بين ذراعيه ويقول لها « هأنذا قد حققت لك خيالى ، وصدقت لك وعدى وأعدت إلى قومى عزتهم وحريتهم ، وثأرت لك ولأبى ، أم يعزيها عن ولدها الذى تركه معفراً فى الرمال عند

شاطئ البحر مسجى بثوبه ؟ وخطرت له نبوءة الكهف كأنها كانت تتجه إليه خاصة : إن لم تقتله قتلك » .

وكان لقاؤهما كما يجتمع وحيدان نجوا من حريق ، يتناظران فى صمت وصدراهما يجيشان . وكانت تلك السنوات الأربع كأنها أربعون عاماً مرت على الأم الواجمة ، فأحنت عودها وعصفت بمحاسنها وأنحلت جسمها . كان وجهها ذابلا تعترضه خطوط قاتمة ، وكانت عيناها الواسعتان تغوصان فى محجريهما وتلمعان كجمرتين خابيتين . وكان صوتها خافتاً كسيراً عندما قالت :

– ليهنك ملك آبائك يا سيف .

ثم تهالكت على أريكتها قائلة

– اجلس يا ولدى إلى جنبى فإن قدمى تختلجان وعينى تظلمان ورأسى يدور بى .

فقال سيف : عداك الأذى يا أماه . ما أشد شوقى إليك !

فقالت : الآن عرفت ما كان يحمله لى الغد يا ولدى ، وأقدر أن أستقبل نهايتى مطمئنة .

فقال سيف فى مواساة :

– كنت أود لو لم يكن أخى الذى ذهب إلى لقائى ، ولكنها المقادير التى أوقفتنا وجهاً لوجه .

فقالت فى هدوء : فيك الغناء يا سيف .

فقال : تجلدى يا أماه فلو استطعت دفع الموت عنه لدفعته .

ولكن لا بد مما ليس منه بد ، وكان لا مفر من هلاك أحدنا .

فقالت : علمتنى الأيام هذا يا ولدى . علمتنى أنه لا بد من أشياء كثيرة علينا أن نتحملها . وعلمتنى أن أرضى بالأمر الذى يقع إذا لم يقع الأمر الذى أرضاه . وعلمتنى بعد هذا أن مخاوف الخيال أشد وقعاً من مخاوف الحقائق . أتحسبنى أحزن على مسروق ؟

فقال فى مواساة : عرفت قلبك نبيلا .

فقالت : لست أحب أن أكذبك يا سيف فى أول لقاء ، فقد كفانى ما كذبت عليك فى حياتى . أحس كأن قلبى مات فى صدرى . فلا أطرب ولا أرجو ولا أجزع ، وأستقبل البشير كما أستقبل النذير .

وأطرقت لحظة تعبث بحجر أحمر براق معلق فى سلسلة ذهبية بعنقها .

ثم قالت : أتعجب إذ تسمع هذا منى ؟ اعجب يا سيف ولا تحمل لى رحمة فإنى لا أحب أن يرحمنى أحد وإن كان ولدى . لست أحس حزناً .

فتحرك سيف قلقاً ومضت ريحانة قائلة :

ـ الحياة والموت والبؤس والشقاء واليأس والأمل ، كلها ألفاظ لست أعرف معناها . وأبو مرة وأبرهة ويكسوم ومسروق ، كلها صور فى الوهم كأنى لا أعرف حقيقتها ، أو كأننى لم أرها فى يوم من الأيام . لقد سلبتنى الأيام كل ما وهبت حتى اللعنة التى كنت أشكو منها ، فلست اليوم أفزع من أوهام أو هواجس . دعنى يا سيف فإنى أحس ضعفاً .

فوضع سيف يده على شعرها المبيض الخشن ، كما كان يفعل عندما

كان أسود غزيراً ، وقال فى رحمة :

– دعى هذه الهموم تنقشع عن صدرك يا أمى . فقد قاسيت طويلا .

فأجابت وفى صوتها هزة :

– ليتنى أحس همًّا يملأ صدرى . نعم أتمنى لو امتلأ قلبى بشىء وإن كان همًّا ، فإن هذا أرفق بى من الخلاء الموحش الذى يفزعنى ، كأننى شبح فى مقبرة ! مقبرة !

وعلا صوتها وسمعه سيف أجش مرتعداً ، حتى اعترته على رغمه قشعريرة . ومضت قائلة : عفواً يا ولدى فإنى أراك تفزع منى ، ولست ألومك على هذا ، فإننى أفزع من نفسى . دعنى أنطق فهذه أول مرة أجد فيها من يستمع إلىّ منذ تركتنى . سأذهب إلى بيت ذى جدن حيث كانت أول كوارثى ، لعل صور حياتى تجتمع علىّ وتثير الأحزان فى قلبى . وارتمت على الأريكة مكبة بوجهها على ذراعها تبكى بكاء حارًّا . وجثا سيف إلى جنبها يطوق كتفيها الهزيلتين بذراعه ، وقال فى همس متقطع : تجلدى وقاومى هذه الأشجان التى تعذبك . أأعيد عليك كلماتك التى حفظتها منك ؟ انظرى إلى أعماق نفسك واكشفى عن الهواجس التى تعذبك واطرديها فى هذه الدموع التى تذرفينها ، ولا تكونى عوناً لها على إفساد حياتك . أما تتذكرين يوم جئت إلى هنا لأودعك ؟ كنت فى ذلك اليوم تنطقين كما تنطق أم بطل ، وكانت كلماتك تصاحبنى وتشد أزرى وتؤنسنى كلما أحسست ضعفاً . وذهبت فى الأرض كما قلت لى لأنشد حريتى وحرية قومى ، وهأنذا أعود إليك

لأزف إليك البشرى والعزاء معًا . قولى إنك سعيدة ، أو إنك حزينة أو إنك لا تدرين أيهما أقوى عندك ؟ قولى إنك الآن فى ساعة فاجأك لقائى مع ذكرى ولدك المسكين ، ودعينى أحدثك وأقول لك إنه كان فى صدر المعركة وقتل كما يقتل ملك، فلعل هذا يبعث إلى قلبك السلام .

فرفعت ريحانة رأسها وجففت عينيها الحمراوين وتنفست قائلة :

ـ لا تؤاخذ ضعفى يا ولدى . هذه أول مرة بكيت فيها منذ فارقتنى . كنت فى كل صباح وكل مساء أمسك نفسى بقيد من حديد حتى لا أظهر جزعى ولا حنقى حتى جمدت عينى وجمدت مشاعرى .

ووقفت لحظة تتهانف بالبكاء ، ثم مضت قائلة :

ـ لست أحب أن أعود إلى البكاء فى هذه الساعة وإن كان البكاء يفرج عنى . أحس كأنه يحل عقدة صلبة تتوسط بين عينى وتقدح فى قلبى . كنت لا أسمح لنفسى بالبكاء ويكسوم يسومنى العذاب والذل ، وفى نفسى مراجل تغلى . وكنت لا أسمح لنفسى بالبكاء كلما ذكرت غيبتك عنى ، وأنا لا أعرف أين تمضى لياليك ولا كيف تستقبل أيامك . كنت أسأل نفسى أأنت حى ترجى وهل ألقاك يوماً هنا أو فى أرض أخرى ، بل لقد كنت أسأل نفسى هل يعود أبو مرة ؟ نعم كنت أسأل نفسى عنه والفزع يكاد يذهب بعقلى . ولكم تمنيت الموت وإن كنت أخشاه . بل لقد رفعت يدى بالسم إلى فمى ثم قذفته فى رعب لأننى لم أجرؤ على الخطوة التى تفضى إلى العالم المجهول . ولكنى كنت دائماً لا أبكى ، حتى إننى لم أبك عندما سمعت أنك عدت وانتصرت ، وأن

أخاك خلف جثته فى المعركة . أترى هذه يا سيف ؟

وفتحت الحجر الأحمر اللامع المعلق فى سلسلتها فإذا هو حق صغير يحوى قطعة صغيرة من مادة صفراء واستأنفت قائلة :

ـ ادخرت هذا السم للساعة الأخيرة لو رأيت أبا مرة . كانت هذه الساعة وحدها لو جاءت تجعلنى أجرؤ على اقتحام الخطوة الحاسمة .

ثم نفضت القطعة الصفراء وداستها فلونت الطنفسة الثمينة التى تحتها ببقعة صفراء . ورنت فى سمعيهما فى تلك اللحظة صيحات الناس فى الفناء واسم ذى يزن يتردد فيها . فقالت ريحانة :

ـ اذهب إليهم يا سيف . اذهب يا ولدى إلى شعبك الذى يدين لك بالكرامة . ودعنى لأفرج عن نفسى وأطلق دمعى . إن هذه الصيحات تثير الدموع فى دمائى فدعنى أرسلها .

واستلقت بوجهها مرة أخرى على يدها وأشارت إلى ولدها باليد الأخرى ليتركها .

ونزل سيف كئيباً إلى الإيوان ، وكانت صيحة الهتاف ترن فى كل مشاعره ، كأنه لم يدرك إلا فى تلك اللحظة أنه أصبح ملك اليمن . وأطل من طنف الإيوان على الجموع الزاخرة التى تهتف باسمه وتلوح إليه بأيديها وتنطق له بوجوهها .

ومرت به لحظات وهو واقف يحى شعبه كأنه فى حلم ، لا يدرى أهى الحقيقة تصدمه وتجرفه مرة أخرى أم هى بعض صور أوهامه التى كانت تلازمه وتجعله يعيش معها قسراً فى عزلة عن الحياة .

وتنبه إلى نفسه وهو يخطب فى الناس ، متدفقاً تتسابق المعانى إلى لسانه حتى انتهى إلى قوله : « إن الأمة التى ترضى بالعبودية تنكر إنسانيتها وتبرأ من أصولها ، وتعيش محطمة يتبرأ بعض أبنائها من بعض ويمص بعضهم دماء بعض . هى مثل شجرة خبيثة لا أصل لها فى الأرض ولا تحمل زهراً ولا تجرى فى أعوادها إلا السموم والدنس ؛ فارفعوا الرؤوس يا أهل اليمن كما كنتم ترفعونها دائماً ، وأطيعوا حكمة المقادير التى لا ترضى إلا عن أمة تتعلق بالمثل العليا ، وافتحوا قلوبكم يا أهل اليمن للعدالة ، وأطيعوا حكمة المقادير التى لا تبقى على أمة إلا إذا كان العدل الصحيح أساسها ، والرحمة الصحيحة لواءها . » وعاد بين الهتاف إلى الإيوان يحس أنه حقيقة وأن قومه حقيقة وأن قصره حقيقة ، وأن صور الخيال التى كانت تحدثه وتدعوه وتشير إليه ليسير وراءها قد صدقته وعدها فانتهت به آخر الأمر إلى الغاية التى بدت له فى أول أمرها أبعد من أوهام الخيال .

وسأل عن السجناء الذين كانوا فى جباب القصر ، وكان ما يزال به أمل متلهف أن يجد فيهم الشيخ أبا عاصم . ولكن الأقدار كانت رحيمة بالشيخ ، فإن يكسوم قتله يوم خرج من عنده .

* * *

ولما خلا إلى نفسه عادت إليه صورة خيلاء فى آخر لحظة رآها ؛ أيجرؤ أن يذهب إليها ويطوى عنها ذكر طليبة فى كذبة كبرى مثل الكذبة التى طوتها عنه أمه أعواماً طويلة ؟ ولكنه كان يعرف أن طليبة هى

الأخرى حقيقة من حقائق حياته التى جرفته فى تيارها . لم يخطر له وهو يودع خيلاء عند باب صنعاء أنه سيأنس يوماً إلى امرأة . كان يحسب أنه سيقنع فى كل حياته بصورها وأصداء أحاديثها . كانت صورتها عنده ذات أحاديث شتى ، فى بستان القصر وفى أبهائه وفى درس الشيخ وفى مخدعها يوم جثا إلى جنبها يستعطفها لتخرج معه ، ثم عند باب صنعاء وهى مطرقة فى هودجها تصلى . وكانت تلك الصور وأحاديثها كفيلة بأن تملأ فراغ قلبه سعادة وشقاء . ولكن طليبة اصطدمت به يوماً ثم سارت إلى جنبه فى الصحراء ، وصارت له سكناً فى أيام تشريده وبأسه ، وكانت هى الأخرى تودعه صوراً شتى لكل منها حديث . كانت بجسمها وروحها تؤنسه ، وكانت بطبيعتها الدافقة الثائرة تحركه وتشعل فيه جذوة الجهاد كلما أوشكت أن تخبو . وقد أبى أن يدعها لقضائها فى عكاظ ولم يبال أن يتهمه الناس بقتل رجل غيلة فى الشهر الحرام ، وما زال يتمسك بها حتى أودعها عند صاحبه الشيخ أبى عدى بمدائن كسرى ، ريثما يفرغ من حربه . فهل كان يستطيع أن يفارقها وإن كان ذلك من أجل خيلاء ؟ أكان عليه أن يختار إحداهما ؟ أم يجمع بينهما ؟ أهما أمتان ؟

لم يكن بين الحرائر من هن أعنف منهما حرية . خيلاء التى هربت من أن تكون ملكة لتحفظ على نفسها اختيار المرأة الحرة ، وطليبة التى وقفت وحدها أمام العالم كله منذ كانت طفلة ، تتحدى وتحقد وتعنف وتدافع وتسخر ، والتى طعنت بالخنجر ولم ترتجف من هول فعلتها ،

بل ضحكت قائلة إنها ستقضى ليلتها راقصة حتى تعيا وشاربة حتى لا تعى، ثم تستقبل قضاءها هازئة أهاتان أمتان ؟ أيسأل نفسه هل يجمع بينهما ؟

• ووجد سيف نفسه آخر المرحلة عند باب الدير فى نجران يرجو أن يقابل خيلاء. وكانت أسوار الدير العالية وأبراجه الضخمة تجعله مثل قلعة حصينة، وكان الباب يفضى إلى فناء مغلق تحيط به جدران أربعة لا منفذ فيها. فوقف سيف هناك فى قلق لا يدرى هل يؤذن له، ولم يخل قلبه من شعور يشبه الإهانة، إذ يقف هناك منتظراً كأنه لم يكن ملكاً. ومضت لحظات كانت عنده مثل ساعة طويلة. أتأبى خيلاء أن تراه ؟ ثم رأى سقف الفناء المغلق ينفرج عن طاقة مربعة ويتدلى منها سفط كبير معلق فى حبال غليظة، وسمع صوتاً يناديه : «تفضل باسم المسيح أيها الضيف الكريم». وبقى لحظة متردداً، وهبطت بصدره قبضة، ولكنه اعتلى السفط وصعد فيه حتى دخل فى الثغرة ورأى الراهبات يجاهدن فى تدوير آلة كالعجلة تلف الحبال به كيما يصعد. واستقبلته رئيسة الدير واضعة يديها قائمتين متقابلتين على صدرها كأنها فى صلاة، ثم تمتمت ببعض ألفاظ وسارت به إلى غرفتها قائلة :

– أنت يا مولاى أول رجل يدخل إلى هذا الدير، ولعلك تكون آخر رجل، فإن خيلاء القديسة أبت إلا أن تراك.

وما فرغت الرئيسة من قولها حتى أقبلت . . . . من ؟ خيلاء ؟ وتقدم

سيف نحوها فى لهفة بغير أن يعى ما يفعل . ولكن خيلاء كانت أهدأ جأشاً ، ووقفت تنظر إليه فى خشوع صامتة . وكانت ملابسها البيض الفضفاضة التى تغطى رأسها وجانبى وجهها ويديها إلى أطراف أصابعها ، مثل زنبقة بيضاء فى كمها . ووضعت يديها كما وضعت الرئيسة يديها وتمتمت قائلة :

ـ يباركك السيد المسيح يا مولاى !

فنظر سيف إليها ذاهلا ، ثم إلى الرئيسة نظرة حائرة ، وكان قلبه يفيض قولا ولا يجرؤ أن ينطق بكلمة . ثم اندفع قائلا :

ـ خيلاء ! أما أستطيع أن أتكلم ؟ أما تقولين يا سيف ؟

فقالت فى صوت خافت وأسبلت جفنيها :

ـ كنت دائماً أصلى لك يا سيف ، وسأصلى لك فى الصباح والمساء .

فقال فى لفظ متقطع :

ـ ولكن ماذا تقولين ؟ أما تعودين معى ؟

فقالت :

ـ تصاحبك صلواتى !

وتحركت فى ارتباك واضطربت أهدابها . فقالت الرئيسة :

ـ يا خيلاء القديسة ! فى صحبة السيد المسيح اذهبى .

ورفعت خيلاء بصرها فى نظرة جائشة ، ثم وضعت يديها على صدرها وتمتمت بصلاة خافتة ، ثم انصرفت بخطا متقاربة خفيفة . ونظر سيف وراءها كأنه يريد أن يلحق بها فقالت الرئيسة :

– تجلد أيها الملك ! لقد عرفت قصتكما فى اعترافها ، ولا أشك فى أنها الليلة ستعترف اعترافاً طويلا . إن قلبها ما يزال يتعلق بالفناء الزائل ، وما تزال تضمر لك الحب الذى وصفته أنه أبقى من الحياة وأقوى من الموت . إنه ما زال ينازعها فى قدسية صلواتها . ترفق بها يا ولدى وترفق بنفسك ، ولا تحاول أن تراها ، فقد وهبت نفسها للمسيح ولن تستطيع أن تسترد ما وهبت .

فقال سيف وهو يخفى حنقه :

– ولكنها لى أيتها الأم الطيبة .

فقالت :

– لن تكون خيلاء لبشر .

وكان صوتها الهادئ صارماً ونظرتها الوديعة نافذة .

وبقى سيف لحظة ينظر إليها صامتاً واليأس يدب إليه ، كما كان الظلام يدب فى الأصيل الخافت .

واستأنفت رئيسة الدير قولها :

– ترفق بالقديسة يا ولدى ، فإنها لا تمتنع عن لقائك إذا شئت ، ولكن ذلك يجهدها ويشرد بها عن صلواتها .

* * *

وانصرف من الدير ينزع نفسه ، فما كاد يخرج إلى الفضاء حتى همز جواده فاندفع فى الليل عنيفاً على الطريق كأنه يطارد عدواً .

وكان أول همه عندما عاد إلى غمدان أن يذهب إلى الوعاء المرمرى ،

لعله يجد فيه الصورة التى تعزيه عن خيلاء . وكان الوعاء على عهده يقف مزهواً على قاعدته الرشيقة والنقش الخالد يبدو عليه عبقرياً . وكان سفر أربع ليال متوالية قد أجهده واليأس من خيلاء يثقل صدره . وأمسك بالوعاء الثمين بين يديه وخطر له أن يحطمه . لم يجده إلا حجراً صامتاً عليه نقش خافت لصورتين جامدتين لا حياة فيهما ، ينظران إلى القمر نظرة مملة ويبسمان ابتسامة بلهاء ، وخيل إليه أنه كلما نظر إليه من بعد ثار حنقه وعاد إليه يأسه وهوانه عند خيلاء . أهى تؤثر عليه صورة ، وتفسد على نفسها وعليه سعادة كانت محققة ؟

ولكنه لم يقذف بالوعاء على الجدار ليحطمه ، بل أعاده إلى موضعه فى شىء يشبه الترفق . وذهب ليطيع حاجة جسده المضنى .

واجتمع إليه فى ضحوة صباح بعد أسابيع جمع حاشد من الوفود التى كانت لا تنقطع عن غمدان منذ عاد إليه . كان فيهم وفود من القبائل البعيدة فى سرو حمير وفى شواطئ البحر وفى سهول تهامة ، وكان فيهم من شيوخ زبيد والطائف ومكة ، وعبد المطلب بن هاشم مع جماعة من قومه جاءوا يؤدون إليه تحية قريش الظافرة .

ودخل معهم الشعراء ينشدونه المدائح ، ويزفون إليه التهنئة . وكان فيمن جاء إليه الشيخ أبو عدى يحمل إليه نبأ من طليبة التى تركها عنده .

وسأله فى لهفة :

– أجاءت معك ؟

فقال الشيخ واجماً :

– بعثت معى رسالتها .

فقال سيف :

– رسالتها ؟

فقال الشيخ :

– تقول إنها صاحبتك عندما كنت تضرب هائماً فى الصحراء ، لأنها خلقت لتهيم فى الحياة . وبقيت معك وأنت تضطرب فى يأسك على باب كسرى ، لأنها خلقت لتضطرب وتيأس وتتحدى . ولكنها لا تطيق أن تكون ملكة .

فقال سيف فى صيحة مكتومة :

– الحمقاء ! سأبعث إليها وأحملها قسراً .

فقال الشيخ :

– كدت أفعل ذلك ولكنى لم أجدها . أصبحت يوماً فلم أجدها . ولم أستطع أن أجد لها أثراً .

وأطرق سيف فى خيبة أشد من خيبته عندما خرج من دير نجران ، وأحس الوحشة تحيط بالبهو المزدحم .

وتقدم أبو الصلت الشاعر الثقفى مع وفد الطائف فقال يهنئه :

ليطلب الثأر أمثال ابن ذى يزن   فى البحر ريّم للأعداء أحوالا

ولكن الملك كان ذاهلا عنه يفكر فى طليبة الهرة الوحشية . امرأة أخرى تأبى أن تكون ملكة !

وكان كذلك يفكر فى غمْدان الذى صار أشد وحشة مما كان عندما خرج منه . حتى ريحانة هاجرت منه إلى بيت أبيها !

وانتهى الشاعر إلى آخر قصيدته قائلا :

فاشرب هنيئاً عليك التاج متكئاً   فى رأس غمدان داراً منك محلالا

وقدم إليه الساقى كأساً ذهبية ، فتناولها وجرع ما فيها ، لعلها تذهب عنه ضيقه .

ولما انصرف الجمع قام سيف فاتراً تقوده قدماه إلى البهو حيث كان الوعاء المرمرى .

وجلس هناك ينظر إليه وهو لا يدرى أيحطمه أم يبقى عليه . أيبقى عليه لكى يذكره كلما وقعت عينه عليه بالخيبة الكبرى فى حيـــاته ؟ ولكنه عندما وقعت عينه على الصورة رأى كأنها تتحرك وتتحدث ، وتذكره باللحظة المسحورة عندما وقفت خيلاء إلى جنبه هناك تحدثه وهو يقول لها : « لو كنت فناناً لخلدت موقفنا هذا فى صورة مثل هذه » . وعادت إليه ذكريات كل حياته الأولى منذ كان طفلا إلى أن ترك خيلاء فى دير نجران . وأحس نسيماً من السلام يدب إليه شيئاً فشيئاً من خلال أشجانه الثائرة . لقد سمت به خيلاء إلى آفاق الحب الأعلى الذى يسمو فوق حب الأجساد . وذاق فى ذلك سعادة تغذى روحه بما لا تغذيه المتعة أو الطرب أو الجهاد فى سبيل الثأر أو الحرية . وإن كانت خيلاء لم تعد معه إلى غمدان فإن صورتها هناك دائماً تصاحبه ،

وهى هناك فى ديرها تذكره وتصلى من أجله . ورف قلبه فى رفق ورحمة ، وأعاد نظره إلى الوعاء المرمرى يتأمل صورته . كانت صورة حية سعيدة خالدة على الدهر لا يعتريها تبدل ولا فناء . وهكذا كانت صورة خيلاء . ستبقى تلك الصورة فى قلبه ما عاش ، وسيراها فى كل مرة مثل الزنبقة البيضاء لا تدب إليها شيخوخة ولا تمتد يد الأيام إلى محاسنها ولا إلى السلام المنبعث من نظرتها .

واستيقظ من سبحه على صوت الحاجب الذى جاء يستأذنه فى استقبال الشيخ وهرز وقد جاء مستأذناً فى العودة بجنوده إلى مدائن كسرى . . .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٨

ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة

الوعاء المرمرى

أى « وعاء من المرمر » فى قصة جهاد « اليمن » ، وجهاد بطلها « سيف بن ذى يزن » ؟ قصة يكتب الزمان حوادثها منذ بضعة عشر قرناً ، ويستحضر المؤلف مادتها منذ نيف وثلاثين عاماً ، ثم يخرجها ونحن على أبواب الحرية التى ندقها بكل يد مضرجة ، ألسنا نقول مع الشاعر الذى أوحى إلى مؤلفنا بهذه القصة الفاتنة : « هل الحياة إلا صورة متجددة تتجسد فى جيل بعد جيل فى شخوص شتى وإن كانت حقيقتها واحدة ؟ »